جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية بإيتاي البارود
المجلة العلمية

(تنوع صور المعنى الواحد في التعبير عن عبادة الصلاة في القرآن الكريم دراسة بلاغية)

إعداد

محمد شاكر محمد صهوان

كلية اللغة العربية بإيتاي البارود، جامعة الأزهر، إيتاي البارود، جمهورية مصر العربية

(العدد السابع والثلاثون)

(الإصدار الرابع .. نوفمبر)

(١٤٤٦هـ - ٢٠٢٤م)

علمية- محكمة- ربع سنوية

الترقيم الدولي: ISSN 2535-177X

(تنوع صور المعنى الواحد في التعبير عن عبادة الصلاة في القرآن الكريم دراسة بلاغية)

محمد شاكر محمد صهوان
كلية اللغة العربية بإيتاي البارود، جامعة الأزهر، إيتاي البارود، جمهورية مصر العربية
البريد الإلكتروني: mohamedsahwan.419@azhar.edu.eg

الملخص:

الناظر إلى آيات الذكر الحكيم التي تناولت التعبير عن عبادة الصلاة يجد أن القرآن الكريم وظف تراكيبه الدالة على معانيه توظيفا فنيا بلغ غاية الدقة، حيث لم يقتصر على تعبير واحد للدلالة على تلك العبادة، بل نوع من صور أداء المعنى بين التعبير بالحقيقة، والتعبير بالمجاز، فتراه مع كلا التعبيرين يعدد من صور بيان المعنى قاصدًا التعبير بلفظه ومعناه في موقعه المحدد، ولكل تعبير مقام اقتضاه وسياق دعاه، ومعلوم أن كل تعبير إنما أتى لغاية ومقصد جليل، ولكل تعبير دلالة مختلفة تتميز بخصوصية عن غيره، فاختلاف العبارات يوجب اختلاف الدلالات، كل هذا كان سببا ودافعا وراء تلك الدراسة التي أردت منها تتبع صور التعبير عن عبادة الصلاة لسبر أغوار تلك الصور، واستنطاق دلالاتها المختلفة، وبيان مناسبتها مع سياقاتها وتناسبها مع ما جاورها من معان، وقد استخدمت في ذلك المنهج الاستقرائي التحليلي حيث قام البحث بجمع كل الصور التعبيرية الحقيقية والمجازية، ثم تحليل هذه الصور تحليلا بلاغيا للكشف عن الدلالات التي استدعت التعبير بهذه الصورة دون ما عداها، وانتهى البحث إلى نتائج أهمها: وجود ترابط والتكامل بين هذه التعبيرات المختلفة الواردة في القرآن الكريم بشأن عبادة الصلاة، حيث يؤدي كل تعبير متطلب سياقه، ويكمل وجها من وجوه الصورة الكلية التي يريد النظم الحكيم أن يرسخها في نفوس المخاطبين، كما استطاعت تلك الصور المتنوعة أن تتغلغل في بواطن المعاني،

وتسبر أغوارها؛ لتعبر عنها في أبهى صورها وأدق مقاصدها فقامت بوظيفة جمالية تجلت في فهم أبعاد عبادة الصلاة وأثرها في حياة الفرد والمجتمع كما استطاعت تلك الصور التعبيرية أن تصور كل أحوال الصلاة والمصلين بكافة تفاصيلها.

الكلمات الافتتاحية تنوع – صور المعنى الواحد – عبادة الصلاة – القرآن الكريم – دراسة بلاغية.

The diversity of images of the same meaning in expressing the worship of prayer in the Holy Quran, a rhetorical study

Mohamed Shaker Mohamed Sahwan
Faculty of Arabic Language, Itay El-Baroud, Al-Azhar University, Itay El-Baroud،
Arab Republic of Egypt
Email: mohamedsahwan.419@azhar.edu.eg

Abstract:
The viewer of the verses that deal with the expression of the worship of prayer finds that the Holy Qur'an employs its structures indicative of its meanings in a very precise manner, as it did not limit itself to a single expression to indicate that worship, but rather a variety of forms of performance of the meaning between the expression of the truth and the expression of the metaphor, so that with both expressions, it multiplies the forms of the statement of the meaning with the intention of expressing its word and meaning in its specific location, and each expression has a place that required it and a context that invited it, and it is known that each expression came for a great purpose and purpose, and each expression has a different meaning that is characterized by a special characteristic of it All this was a reason and motivation behind this study, in which I wanted to track the images of the expression of prayer worship to explore the depths of these images, interrogate their different connotations, and indicate their appropriateness with their contexts and proportionality with their neighboring meanings, and I used the inductive and analytical method, where the research collected all the real and metaphorical expressive images, then analyzed these images rhetorically to reveal the connotations that necessitated the expression of this image without any other, and the research ended with the most important results: Each expression fulfills the requirements of its context and completes a facet of the overall picture that the wise system wants to establish in the souls of the addressees. These various images were able to penetrate into the

depths of the meanings and express them in their clearest forms and most accurate purposes, fulfilling an aesthetic function that was evident in understanding the dimensions of the worship of prayer and its impact on the life of the individual and society.

Keywords: Diversity - Images of the same meaning - Prayer worship - Quran - Rhetorical study.

المقدمـــــــــــــــة

الحمد لله الذي أنزل القرآن على عبده ونبيه محمد ﷺ، ولم يجعل له عوجا، فكان حجته ودليل نبوته، أحكمت آياته، ثم فصلت من لدن حكيم خبير، بلسان عربي مبين، والصلاة والسلام على رسوله الأمين وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فقد كان القرآن الكريم ولا يزال مصدر إعجاب وتأمل في جمال تعبيره وعمق مضامينه، نبعا صافيا يرده الدارسون بشغف لإظهار سمات إعجازه وبلاغته التي وصلت الغاية القصوى في الروعة والجلال، ومن أهم سمات القرآن الدلالية وأبرز مواطنه الإعجازية، تعبيره عن المعنى الواحد بصور متعددة وأساليب متنوعة وتراكيب مختلفة؛ وذلك لعدة أسباب منها تقوية الحجة، وتنويع الأسلوب، وتأكيد المعنى، ومراعاة حال المخاطبين، وقد وظف النظم الحكيم خصائص اللغة العربية التي اتسمت بكثرة التعبيرات الدالة على المعنى الواحد مع وجود فروق دقيقة في الدلالة بين كل تعبير توظيفا محكما؛ ليمس المراد ويصيب المحز ويأخذ بالأفهام إلى المعنى المطلوب؛ لأن كل تعبير له خصوصية يمتاز بها عن غيره من صور التعبيرات الأخرى، وهذه الظاهرة القرآنية أعم وأعلى من ظاهرة اختيار اللفظة المفردة للدلالة على معنى محدد؛ لأن ظاهرة التعبير بالصور المختلفة عن المعنى الواحد لا تقتصر على البحث في أسباب اختيار لفظة دون غيرها، بل تعتني بالصورة الكلية للمعنى، بحيث تشمل اللفظة المفردة والتركيب، والحقيقة والمجاز وغير ذلك مما يدخل في مكونات الصورة الكلية للمعاني القرآنية، وقد انتشرت تلك الظاهرة التعبيرية المعجزة في القرآن الكريم بين معانيه المختلفة بصورة كبيرة واضحة وبشكل معجز بلغ الغاية في الدقة والجمال، إلا أنك تجد اختلافا في الكم والكيف في التناول القرآني لمعانيه المختلفة، ومن أكثر المعاني التي عبر عنها القرآن الكريم بصور متنوعة هو الحديث عن عبادة

الصلاة، تلك العبادة التي لها منزلة كبيرة، ومكانة عظيمة إذ إنها تعتبر من أهم العبادات في الإسلام، بل هي الأساس التي تبنى عليها جميع العبادات؛ ولذلك فقد عظَّم الإسلامُ شأنَ الصلاة، ورفع ذِكرَها، وأعلى مكانتَها، فحظيت بمكانة خاصة في القرآن الكريم، وقد ظهر ذلك جليا في حديث القرآن عنها، حيث أولاها من العناية ما لم يولى غيرها، والناظر إلى آيات الذكر الحكيم التي تناولت التعبير عن عبادة الصلاة يجد أن القرآن الكريم وظف تراكيبه الدالة على بيان معانيه توظيفا فنيا بلغ غاية الفن والدقة، حيث لم يقتصر على تعبير واحد للدلالة على تلك العبادة، بل نوع من صور أداء المعنى بين التعبير بالحقيقة[1]، والتعبير بالمجاز، فتراه مع كلا التعبيرين يعدد من صور بيان المعنى قاصدًا التعبير بلفظه ومعناه في موقعه المحدد، فتارة يستخدم (الصلاة) مسبوقة بالإقامة بصورها المختلفة التي تتنوع ما بين الاسمية والفعلية، وكلا الصورتين يتفرع منهما صور مختلفة فالتعبير بالصيغة الاسمية تجد معه تنوعا ما بين المصدر تارة والمشتقات تارة أخرى، والصور الفعلية تجد فيها تغايرا في الأزمنة ما بين الماضي والمضارع والأمر، ثم تجد النظم تارة أخرى وقد عبر عن تلك العبادة بـ (الصلاة) دون أن يأتي معها بالإقامة، وتارة يتحول في التعبير إلى المجاز الذي تعددت صوره وأساليبه، ولكل تعبير مقام اقتضاه وسياق دعاه، ومعلوم أن كل تعبير إنما أتى لغاية ومقصد جليل، ولكل تعبير دلالة مختلفة تتميز بخصوصية

---

١ – يقصد بالحقيقة هنا "الحقيقة الشرعية وهي: اللفظ المستفاد من الشرع، كالصلاة والزكاة والحج والصوم، سواء كان المعنى واللفظ معلومين عن أهل اللغة أو لا لكنهم لم يضعوا ذلك الاسم لذلك المعنى، أو كان أحدهما معلومًا والآخر مجهولًا". شرح مختصر أصول الفقه، تقي الدين أبي بكر بن زايد الجراعي (٨٢٥ هـ – ٨٨٣ هـ):١/٢٢١، دراسة وتحقيق: عبد العزيز محمد عيسى، لطائف لنشر الكتب والرسائل العلمية، الشامية – الكويت، الطبعة: الأولى، ١٤٣٣ هـ – ٢٠١٢ م

عن غيره، فاختلاف العبارات يوجب اختلاف الدلالات، كل هذا كان سببا ودافعا وراء تلك الدراسة التي أردت منها تتبع صور التعبير عن عبادة الصلاة لسبر أغوار تلك الصور، واستنطاق دلالاتها المختلفة، وبيان مناسبتها مع سياقاتها وتناسبها مع ما جاورها من معان.

ومن هنا جاء هذا البحث بعنوان:

(تنوع صور المعنى الواحد في التعبير عن عبادة الصلاة في القرآن الكريم دراسة بلاغية) مستهدفاً الوقوف على الأسرار البلاغية والأبعاد الدلالية والجمالية وراء تنوع الصور البلاغية التي انطوت عليه التعبيرات المتعددة الدالة على عبادة الصلاة؛ لأن دراسة هذا الجانب البلاغي في التعبير عن عبادة الصلاة في القرآن الكريم يُعين على فهم أعمق لهذه العبادة العظيمة، ويبرز روعة البيان القرآني وعمق دلالاته.

مشكلة البحث:

تتمثل مشكلة البحث في فهم واستكشاف الأسباب البلاغية وراء استخدام النظم الحكيم لتعبيرات متنوعة للإشارة إلى عبادة الصلاة، وكيف يمكن أن يؤثر هذا التنوع في الفهم الدلالي والجمالي للنص القرآني؟ وما الأبعاد البلاغية التي يمكن استخلاصها من هذا التنوع؟

ويتفرع عن هذا عدة أسئلة هي:

١. ما طبيعة التعبيرات القرآنية المتنوعة الواردة في وصف وبيان عبادة الصلاة؟
٢. ما الأبعاد البلاغية والدلالية لهذا التنوع في الألفاظ والتعبيرات القرآنية المستخدمة لوصف عبادة الصلاة؟
٣. كيف تسهم هذه التعبيرات المتنوعة في إبراز أهمية عبادة الصلاة وأبعادها المتعددة في الإسلام؟
٤. ما أوجه الترابط والتكامل بين هذه التعبيرات المختلفة الواردة في القرآن الكريم بشأن عبادة الصلاة؟

٥. كيف يمكن للدراسة البلاغية لهذا التنوع في التعبير أن تثري الفهم والتأمل في عبادة الصلاة وتُعزّز من اتساع المعاني القرآنية؟

٦. كيف يمكن للدراسة البلاغية لهذا التنوع في التعبير أن تسهم في إبراز شمولية عبادة الصلاة وعمقها في الإسلام؟

أهمية البحث:

يساهم هذا البحث في إثراء الدراسات القرآنية والبلاغية من خلال تقديم فهم أعمق لتنوع التعبيرات القرآنية المتعلقة بالصلاة.

أهداف البحث:

- الوقوف على الأسرار البلاغية وراء تنوع صور المعنى الواحد في التعبير عن عبادة الصلاة في القرآن الكريم.
- تحليل النصوص القرآنية التي تتحدث عن عبادة الصلاة من منظور بلاغي.
- استكشاف الأثر الدلالي والجمالي لتنوع التعبيرات المتعلقة بعبادة الصلاة في القرآن الكريم.

منهجية البحث:

يعتمد هذا البحث على المنهج الاستقرائي التحليلي، والمتمثل في :

١- الجمع: حيث يتم جمع الصور التعبيرية التي وردت في القرآن الكريم للتعبير عن عبادة الصلاة.

٢- التصنيف: تصنيف الصور التعبيرية المستخدمة في التعبير عن الصلاة، إلى حقيقة ومجاز، وداخل كل قسم صورة .

٣- التحليل: تحليل هذه الآيات تحليلا بلاغيا؛ للكشف عن بلاغة الأساليب والتعابير المختلفة المستخدمة في وصف هذه العبادة ودقة دلالتها على المعنى المقصود في سياقاتها، وسيقوم البحث باستخدام أدوات التحليل البلاغي لفهم الأبعاد الجمالية والدلالية لهذه التعبيرات.

٤- الاستنتاج: استنتاج الدلالات البلاغية لكل صورة في سياقها وبيان تأثيرها في فهم المعنى وتعميقه.

عينة الدراسة:

لما كان من أهداف البحث الوقوف على دلالات كل تعبير من التعبيرات التي استعملها القرآن في الحديث عن عبادة الصلاة؛ ناسب ذلك أن تكون عينة البحث هي كل صور التعبير التي استعملها النظم للوقوف على الدقائق بين التعبيرات، واستخلاص التكامل بينها، لهذا كانت عينة البحث هي الآيات القرآنية التي تحدثت عن عبادة الصلاة.

الدراسات السابقة:

١- الصلاة في القرآن الكريم دراسة موضوعية (رسالة دكتوراة)، محمد بن عبد الله بن ظافر، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٨هـ، ١٤٢٩هـ الموافق ٢٠٠٧م/ ٢٠٠٨م، وهي دراسة أصولية، تتبع قسم التفسير وعلوم القرآن في كلية أصول الدين والدعوة، وهي دراسة موضوعية تناولت حديث القرآن عن الصلاة وبيان منزلتها ومكانتها، فرضية الصلاة، أنواع المصلين ...، فالمقصد في هذه الدراسة غير مقصد بحثي هذا.

٢- من بلاغة القرآن الكريم عن إقامة الصلاة، بغدادي إبراهيم الصحابي، حولية كلية اللغة العربية بجرجا، جامعة الأزهر ٢٠٠٨م، اقتصرت هذه الدراسة على (إقامة الصلاة) وعليه فإنها لم تعالج تنوع صور التعبير، وهو المقصد الرئيس في دراستي.

٣- الألفاظ الدالة على الصلاة في القرآن الكريم دراسة دلالية، أ. د. علي فرحان جواد، مجلة القادسية في الآداب والعلوم التربوية، المجلد (٨)، العدد (٤)، سنة: (٢٠٠٩) واعتنت هذه الدراسة بذكر الألفاظ الدالة على الصلاة

مع ذكر شواهد لهذه الألفاظ، ولم تعتن بالكشف عن الأسرار البلاغية وراء اختصاص كل تعبير بسياقه.

خطة البحث

انتظم البحث في:

مقدمة، اشتملت على أهمية البحث، ومنهجه، وحدوده، وأهدافه، والدراسات السابقة.

الفصل الأول تناولت فيه، التعبير عن عبادة الصلاة بالحقيقة صوره، وأسراره البلاغية.

واشتمل على مبحثين:

المبحث الأول: التعبير بالصلاة مقرونة بالقيام صوره وأسراره البلاغية

المبحث الثاني: التعبير بالصلاة غير مقرونة بالقيام صوره وأسراره البلاغية

الفصل الثاني: تناولت فيه: التعبير عن عبادة الصلاة بالمجاز صوره، وأسراره البلاغية.

الخاتمة واشتملت على أهم نتائج البحث وتوصياته.

فهرس المصادر والمراجع

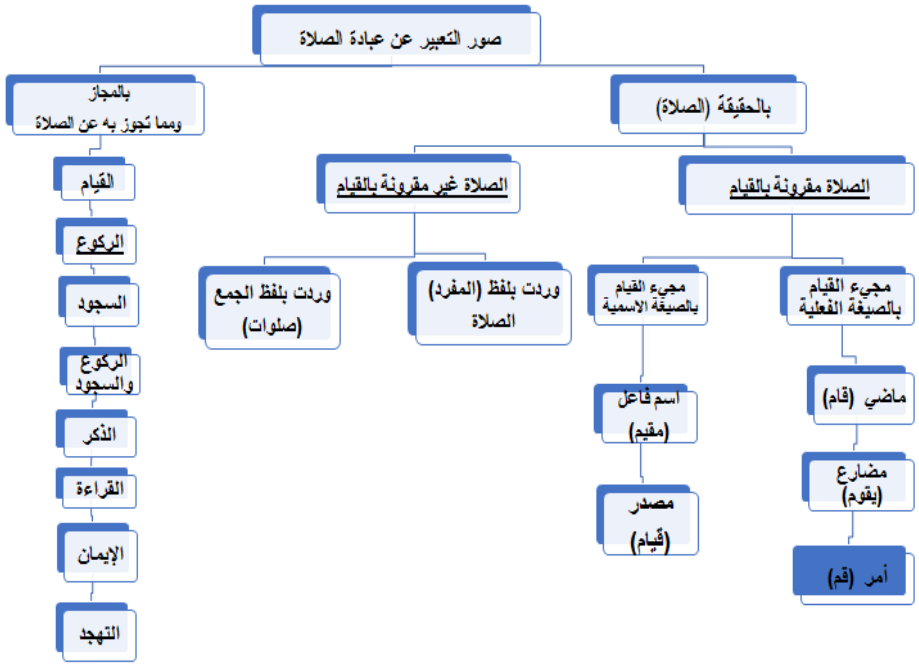
صور التعبير عن عبادة الصلاة
بالحقيقة (الصلاة)
بالمجاز ومما تجوز به عن الصلاة
الصلاة مقرونة بالقيام
الصلاة غير مقرونة بالقيام
مجيء القيام بالصيغة الفعلية
مجيء القيام بالصيغة الاسمية
وردت بلفظ (المفرد) الصلاة
وردت بلفظ الجمع (صلوات)
ماضي (قام)
مضارع (يقوم)
أمر (قم)
اسم فاعل (مقيم)
مصدر (قيام)
القيام
الركوع
السجود
الركوع والسجود
الذكر
القراءة
الإيمان
التهجد

الفصل الأول

التعبير عن عبادة الصلاة بالحقيقة صوره، وأسراره البلاغية

مدخل:

تعدت تعبيرات النظم الحكيم عن عبادة الصلاة بين الحقيقة والمجاز، والمقصود بالتعبير بالحقيقة هنا استعمال لفظ الصلاة، حيث إن التعبير بلفظ الصلاة عن هذه العبادة الجلية يعد حقيقة في بابه، ومن يتتبع حديث القرآن الكريم عن عبادة الصلاة يجد أن لفظة الصلاة ومشتقاتها هي أكثر الألفاظ التي عبر بها النظم الحكيم عن عبادة الصلاة، حيث ذكرت في القرآن الكريم بصيغة المفرد(الصلاة)، وصيغة الجمع (الصلوات)، وصيغة اسم الفاعل(المصلين) وأتت في صورة الفعل بصوره الثلاث (الماضي والمضارع والأمر)، ولهذا التنوع في التعبير دلالات وأسرار تحتاج إلى وقفات واعية متأنية مع الذكر الحكيم للكشف عن بعض أسراره ودقائق لطائفه.

المبحث الأول

التعبير بالصلاة مقرونة بالقيام صوره وأسراره البلاغية

ورد التعبير بلفظ (الصلاة) بصيغة الإفراد في ثمان وخمسين موضعا في القرآن الكريم، ومن الملاحظ أن سبعة وأربعين منها اقترن فيها لفظ الصلاة بالقيام بصور متنوعة ومن المعلوم أن وراء هذا التنوع دلالات يقتضيها السياق وأسرار تضمنها النظم، ومن هذه الصور:

الصورة الأولى: مجيء الصلاة مقرونة بالصيغة الفعلية للقيام:

ورد لفظ الصلاة مقرونا بالصيغ الفعلية الثلاث (الماضي، المضارع، الأمر) للقيام وبيان ذلك على النحو الآتي:

١- مجيء القيام بصيغة المضارع:

ورد التعبير بالقيام مع الصلاة بصيغة المضارع على النحو الآتي:

الصيغة	عدد مرات ورودها	السورة	الآية
وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ	٢	البقرة	٣
		التوبة	٧١
وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ	١	البينة	٥
يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ	٤	المائدة	٥٥
		الأنفال	٣
		النمل	٣
		لقمان	٤
يُقِيمُوا الصَّلَاةَ	٢	إبراهيم	٣١
			٣٧

عند مراجعة المواضع التي ورد فيها قوله تعالى: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾، وقوله:﴿ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ﴾ تجد أن جميعها ورد في سياق الحديث عن المؤمنين وصفاتهم، كما أنه عطف عليها الزكاة أو الإنفاق في جميع المواضع، وهذا يدل على أن استخدام هذا التعبير القرآني له خصوصية في النظم هذه الخصوصية تحتاج إلى إمعان النظر في هذه المواضع للوقوف على جانب من أسرارها وخصائصها.

أولا التعبير بـ ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾

ورد هذا التعبير القرآني في أوائل القرآن نزولا وتلاوة، حيث ورد في سورة المزمل وهي ثالثة السور نزولا، كما ورد أيضا في مفتتح سورة البقرة وهي السورة الثانية في ترتيب المصحف، ويرى الإمام ابن عاشور أن تعليق فعل القيام بالصلاة من مصطلحات القرآن، وبين أن إقامة الصلاة من باب الاستعارة التبعية حيث شبهت المواظبة على الصلوات والعناية بها بجعل الشيء قائما، [1] وقد ورد هذا المصطلح في سياقات متعددة منها:

مجيئها في سياق بيان صفات المتقين: وذلك في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ **سورة البقرة الآية (٣)**

وردت هذه الآية في بيان صفات المتقين الذين قال عنهم رب العالمين سبحانه وتعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ (سورة البقرة، الآية: ٢) وقد وصفت الآية الكريمة هؤلاء المتقين بصفات ثلاث: (الإيمان بالغيب، وإقامة الصلاة، والإنفاق في وجوه الخير)، وذكر هذه الأوصاف الثلاثة لا يعنى اقتصار

(١) التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور (المتوفى : ١٣٩٣هـ): ٢٣١/١، الدار التونسية للنشر – تونس، سنة النشر: ١٩٨٤ هـ .

المتقين عليها، بل إن المتقين تراهم يتقربون إلى ربهم بأنواع الطاعات المختلفة إلا أن النظم خص هذه الثلاث بالذكر لأنها من الأصول الرواسي التي لا يقوم الدين إلا بها، والسؤال ما السر في اصطفاء النظم الحكيم التعبير بـ (ويقيمون الصلاة) في هذا الموضع دون ما عداه من التعبيرات الأخرى الدالة على الصلاة؟

لعل السر في ذلك هو ما يمتلكه هذا المصطلح اللغوي من دلالات تتناسب مع متطلبات السياق ومقاصد النظم الحكيم في هذا الموضع، وأول هذه المناسبات أن هذا الموضع هو أول موضع يتحدث عن إقام الصلاة في القرآن وهذا الأمر يناسبه التعبير بالمصطلح الأعرف والأعم الذي يدل على العبادة بشكلها التام، فمصطلح (الصلاة) هو أعرف المصطلحات الدالة على تلك العبادة، كما أنه يمتاز عن غيره من الألفاظ الأخرى التي تدل على عبادة الصلاة بأن الألفاظ الأخرى كـ(اركعوا، اسجدوا...) تراعي حالة واحدة و كيفية محددة في تلك العبادة، أما لفظ الصلاة فيشير إلى العبادة بشكلها الكامل حيث أركانها وشروط صحتها وسننها وخشوعها...، وهذا أيضا يتناسق مع اشتمال التعبير على كلمة (إقامة)، فالإقامة من معانيها؛ العزم والمحافظة والإصلاح والملازمة و الثبات والتمسك والاستقامة والاعتدال،[١] وعلى ذلك فإن إقامتها تكون بمعنى المواظبة عليها والمداومة على أدائها من غير فتور ولا كسل، ولا توان، بحيث لا يقع في فرائضها وسننها وآدابِها زيغ أو نقص؛ وبهذا يكون أول ما يطرق آذان القارئ مع أول موضع يؤمر فيه بهذه العبادة عبارات تتضمن دلالات شاملة لا تجعل الأذهان تتجه نحو الاهتمام بركن من أركانها أو صفة

(١) لسان العرب، لمحمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري (مادة ق و م)، دار صادر – بيروت، الطبعة الأولى.

من صفاتها، أو تنحصر الغاية في مجرد الاتيان بهيئتها فقط، بل الغاية هنا هي المداومة بنشاط وجد والاعتناء بأدائها بشكل كامل وتوفية حقوقها وشرائطها؛ لتأخذ بفاعلها للهداية التي يبتغى منها حصول التقوى.

وآثر النظم الحكيم استعمال صيغة المضارع في (يقيمون الصلاة) دون غيرها من الصيغ الأخرى؛ لأن النظم هنا يتحدث عن الهداية التي يحدثها القرآن الكريم لمن تلبسوا بالتقوى، ومعلوم أن تحصيل تلك الهداية يحتاج إلى المداومة على فعل الطاعات والاستمرار في العبادات؛ لذا وصف النظم هؤلاء المتقين بما يدل على التجدد والاستمرار فصاغ الأفعال (يؤمنون، يقيمون، ينفقون) بصيغة المضارعة الدالة على أن إيمانهم متجدد ومستمر، أي أنهم إذا ما استمروا في هذه الأفعال ظلوا محققين للهداية، فالهداية ليست عبارة عن ومضة تنطلق فجأة فتنير الطريق كله مرة واحدة وإلى الأبد، بل هي ومضات تظهر في دفعات متتالية بشكل مستمر تهدي صاحبها إلى السير في طريقها وتحتاج من صاحبها أن يوطِّن نفسه على أدواتها والإتيان بما يؤدي إليها مع إصرار وإلحاح ومداومة واستمرار كي يستمر في السير تحت ظلها، وهذا كله استطاع النظم الحكيم أن يوجزه في صياغة الأفعال في زمن المضارعة لتكون سلسلة مستمرة من العبادات التي إن تلبس بها المؤمن التقي واستمر عليها مدفوعا في ذلك بهدي كتاب الله أوصله ذلك إلى قرار راسخ من هدى ربه حتى تمكن فيه تمكن من استعلى على الشيء، كما أن التعبير بالفعل المضارع جعل هدى القرآن يصلح "للذين أقاموا الصلاة فيما مضى وهم الذين آمنوا من قبل نزول الآية، والذين هم بصدد إقامة الصلاة وهم الذين يؤمنون عند نزول الآية، والذين سيهتدون إلى ذلك وهم الذين جاءوا من بعدهم إذ المضارع صالح لذلك كله "[1]، وفي التعبير

(١) التحرير والتنوير: ٢٣١/١.

عن الإقامة بصيغة المضارع الدال على التجدد والاستمرار أيضا دلالة على أن عناية المؤمن بتلك الفريضة عناية متجددة ومستمرة ألا تراه يؤديها في يومه وليلة خمس مرات، بل إن العناية والتجدد عند المتقين ليست مقصورة على تجدد وقت الأداء، بل تتعداه إلى تجدد العناية القلبية لدى هؤلاء، فتراهم مشغولين بها لا ينفك الواحد منهم عن أداء الفرض حتى تراه حريصا على انتظار الفرض الذي يليه وما ذلك إلى لما وجده في قلبه من شوق يتجدد على إقامة تلك العبادة.

مجيء التعبير بـ(يقيمون الصلاة) في سياق حديث القرآن عن المجتمع الإسلامي وبيان حال المؤمنين والمؤمنات، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ سورة التوبة الآية (٧١)

ورد التعبير القرآني (يقيمون الصلاة) في سياق الحديث عن المجتمع الإسلامي وما يمتاز به من روابط قوية ناتجة عن مجموعة من السلوك والأفعال التي أمر بها الشرع الحكيم، وجعل النظم الحكيم أول هذه الأمور التي يبنى عليها المجتمع السليم المتماسك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إذ إنه السفينة التي تحمى المجتمع الإسلامي من الغرق، وتأخذ بيده نحو شاطئ النجاة؛ لذا جاءت متصدرة لأفعال هذا المجتمع، ثم تلاها (إقام الصلاة)؛ لأنها ذات أثر كبير في توحيد الصف وتثبيت القلوب وترسيخ عقيدة المجتمع وثباته أمام المحن والمصائب، ولما كان الحديث عن بناء المجتمع وجب أن تكون تلك الأفعال ذات وقع مستمر متجدد بحيث تستطيع أن تواكب التغيرات وتتصدى لكل ألوان الشر التي تتوالد بعضها من بعض، فجاءت على صيغة المضارع؛ لتشير إلى أنه يجب أن تكون هذه الأفعال ذات أثر متجدد في نفوس أهلها جيلا بعد جيل؛ لتكون القوة التي يواجهون بها عوامل الفساد ومعاول الهدم؛ لذا حرص النظم على

أن تأتي الأفعال هنا في صورة المضارع الدال على التجدد والاستمرار، كما أن النظم آثر التعبير بمادة (القيام) الدالة على التمام والكمال، وأسند الفعل لواو الجماعة؛ للدلالة على أن المجتمع الإسلامي الحق هو الذي تجده يحافظ على صلواته لا سيما صلاة الجماعة بكل متطلباتها .

والناظر في هذه الآية الكريمة يجد أنها جاءت في مقابل قوله تعالى: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ سورة التوبة الآية (٦٧)، ومن يتأمل هذه المقابلة العجيبة ويتأمل ترتيب المعاني الجزئية الداخلة في تكوين صفات كل فريق، ينكشف له من أسرار النظم ما يوضح له أسباب التعبير بالمصطلح القرآن: (وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ) في هذا السياق القرآني

الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ	**الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ**
بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ	**بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ**
يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ	**يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ**
وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ	**وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ**
.....	**وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ**
وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ	**وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ**
نَسُوا اللَّهَ	**وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ**
فَنَسِيَهُمْ	**أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ**

من الملاحظ أن جميع الأوصاف التي ذكرها للمنافقين ذما أتي بما يقابلها في جانب المؤمنين مدحا، إلا أنه زاد في جانب المؤمنين (وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ) دون أن يكون هناك ما يقابلها في جانب المنافقين تصريحا أو تلميحا، والسبب هنا هو زيادة المدح الموجه لطائفة المؤمنين بوصفهم بتلك العبادة، كما أن فيه تنويها بفضل الصلاة وعلو شأنها فخصها بالعناية وجعلها الطريق الذي يمتاز به

المؤمنون عن غيرهم ويرتفع به شأنهم، لذا زيدت في جانب هؤلاء الذين شملهم الله برحمته، ومن عجيب النظم أنه طوى في هذا السياق عبادة الصلاة تماما في جانب المنافقين على الرغم من أنهم كانوا ممن يؤدونها لكن أداؤهم لها كان أداء رياء وسمعة، فكانوا لا يأتون إليها إلا كسالا مرائين، فطوى القرآن ذكر صلاتهم هنا وكأنها لم تكن منهم البتة؛ لأن ما يفعلونه يعد تضيعا لها بالكلية، كما أن هذا الطي مشعر بتعظيم المذكور وهو صلاة المؤمنين فلكرمه ومكانته لم يذكر في مقابله شيء؛ لهذا فإن النظم لما انتقل إلى جانب المؤمنين كان من الأنسب للسياق أن يطبق قاعدة (ذكر الضد إلى ضده يُظهر الأمرين معًا) وهذا لا يكون إلا باستعمال تعبير يكشف عن كمال تلك العبادة من جانب المؤمنين لتكون مقابلة لفعل المنافقين، ويدل على أن المؤمن الحق هو من يأتي بهذه العبادة على أكمل وجه وأتم حال، لهذا أتى التعبير بـ(وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ)؛ ليكون مقابلا لما سكت عنه النظم في جانب المنافقين، وكأن ما يفعلونه لا وزن له ولا قدر عند الله وكأنه غير موجود، لكن المؤمنين أتى منهم الفعل على أتم حال فحافظوا على الصلاة في أوقاتها وأتموا خشوعها وأركانها وسننها وآدابها دون ملل أو كلل أو كسل أو رياء، ولو استعمل النظم تعبيرا غير هذا التعبير كأن عبر بالسجود أو الركوع مثلا؛ لتوهم أن المضمر في جانب المنافقين هو عدم إتقانهم للجزء الذي صرح به في جانب المؤمنين دون غيره، لكنه لما صرح بـ(يقيمون الصلاة) دل دلالة قاطعة على أن المضمر في جانب المنافقين هو الترك والتضييع الكلي لهذه الفريضة، وأن ما يأتون به لا صلة له بالصلاة التي فرضها الله على تلك الأمة، وفي ذلك مزيد مدح للمؤمنين ومزيد ذم للمنافقين.

التعبير بـ ﴿وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾

ورد هذا التعبير القرآني في قوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ (سورة البينة، الآية:٥)

ينعي القرآن الكريم هنا على أهل الكتاب كذبهم "بجملة حالية مفيدة لغايةِ قبحِ ما فعلُوا"[١] حيث بين لهم فيها أنهم لم يؤمروا في الإسلام إلا بمثل ما أمروا به في التوراة والإنجيل، فليس في الإسلام ما ينافي ما ورد في صحيح كتبهم سواء أكان من الأصول كعبادة الله وحده، أم من الفروع كالعبادات التي منها الصلاة والزكاة، وقد كشف النظم الحكيم حقائق ما أمروا به كشفا لا يقبل الزيف أو الزيغ، وذلك في قوله: ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ حيث أعلى النظم هنا نبرة التأكيد؛ ليهدم مزاعم أهل الكتاب وادعاءاتهم الكاذبة خصوصا وأنهم أهل جدل وزيغ، فاستعمل أسلوب القصر الذي طريقه (ما وإلا) هذا الطريق الذي يستعمل في الرد على ما ينكره المخاطب و يشك فيه، ولحرص النظم على أن يغلق أمامهم كل باب يزيغون منه استعمل الأفعال المضارعة المسندة إلى واو الجماعة في (يعبدوا، يقيموا، يؤتوا) ومعلوم أن المضارع يدل على التجدد والاستمرار وهذا يشير إلى أنهم أمروا بهذه العبادات ومازالوا مأمورين بها، ولو أتي التعبير بالماضي لادّعوا أنهم أمروا بذلك في حقبة من الزمن ثم رفع عنهم هذا التكليف، وفي إسناد الأفعال إلى واو الجماعة تأكيدا على أن هذه العبادات أمروا بها جميعا ولم تسقط عن أحد منهم، ويظل النظم في إحكام بنائه اللغوي الذي يجعل المعاني تؤدى وظيفتها أداء متكاملا في التصدي لادعاءات أهل الكتاب ويظهر ذلك في أن النظم لم يكتف بقوله:﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ لكنه أتي بجملة (مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ) تقصيا لما أمروا به وبيانا للحقيقة الكاملة التي أمروا بها، وأنهم مأمورون بالمحاولة للوصول إلى أعلى

(١) التحرير والتنوير ٢٣١/١.

درجات العبودية، ثم "لما ذكر النظم الحكيم أصل الدين أتبعه الفروع، فبدأ بأعظمها حيث مجمع الدين وموضع التجرد عن العوائق فقال: (ويقيموا) أي يعدلوا بجميع شرائطها وأركانها وحدودها"(١)، وهنا يتجلى سر من أسرار التعبير بـ (يقيموا الصلاة) حيث أراد الذكر الحكيم أن يكشف لهم أن ما أمروا به لم يكن مجرد أداء للصلاة بأي كيفية فحسب بل هم مأمورون بما أمر الله به المؤمنين من إقام الصلاة على الوجه الأكمل التام الذي لا اعوجاج فيه بحيث يتحقق معه الخشوع والخضوع لله في كل أركانها وسننها، وهذا لم يكن يتحقق إلا بالمصطلح القرآني (يقيموا الصلاة) حيث أفادت (يقيموا) معنى المحافظة والإصلاح والملازمة و الثبات والتمسك والاستقامة والاعتدال...، وأفادت (الصلاة) معنى التمام إذ إنها تطلق ويفهم منها العبادة بكل تفاصيلها، كما أن المصطلح فيه خطاب لأهل الكتاب بعبادة اشتركوا فيها مع المؤمنين فكان الأنسب أن يعبر النظم بأعرف المصطلحات لهذه العبادة حتى لا يقع في النفس شك في المقصود منها.

ومن يتأمل المواضع الثلاثة السابقة يجد أنها أتت على النحو الآتي:

الموضع	معطوف على	التعبير القرآني عن الصلاة	عطف عليه
الأول	يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ	وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ	وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ
الثاني	يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ	وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ	وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ
الثالث	وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ	وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ	وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ

(١) يراجع نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، إبراهيم بن عمر بن حسن البقاعي (المتوفى: ٨٨٥هـ)/ : ٢٢/ ١٩٥، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة

وهذه المواضع تشترك في أنها تعرض صورة متكاملة لما يجب أن يكون عليه الإنسان المؤمن، لذا اجتمع فيها أمور عظام منها:

أولا: التعبير عن عبادة الصلاة بالمصطلح القرآني الذي استخدم الفعل المضارع (يقوم) بما ينثره من دلالات ومعان تدل على التمام والكمال والاستمرار، مسندا إلى لفظ الصلاة الذي هو المصطلح الحقيقي لهذه العبادة والأشهر لها وهذا يتناسب مع كمال التصوير المراد في سياق الآيات.

ثانيا: أنه عطف إقامة الصلاة على أمر كبير فتارة تجدها معطوفة على الإيمان بالغيب، وتارة معطوفة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتارة معطوفة على عبادة الله بإخلاص.

ثالثا: أنه عطف على إقامة الصلاة عبادة الإنفاق.

وبهذا تكون هذا الأجزاء المكونة من إقام الصلاة وما عطفت عليه وما أتى بعدهما هي الأجزاء المكونة للصورة الكلية التي يتطلع النظم إلى إبرازها والتعبير عنها.

ومن هنا فإن تعبير النظم الحكيم بهذا المصطلح القرآني داخل وجوده التركيبي يعد غاية في تناسب اللفظ للمعنى المنسول من أوضاع الكلمات داخل بنائها التركيبي وأوفى بحق السياق وأحرى بتأدية المراد ببراعة بنائية بحيث لا يصلح غيره لتأدية هذا المعنى.

<u>التعبير الثاني: يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ـ يُقِيمُوا الصَّلَاةَ</u>

يختلف هذا التعبير عما سبقه في أن السابق عطف على غيره أما هذا التعبير فأتى ابتداء دون أن يعطف على سابق، وقد ورد هذا التعبير في مفتتح أربع سور، وأتي في غير المفتتح في موضعين.

وعند النظر في المواضع التي أتت بغير واو في صدر السور والمواضع التي اقترنت بالواو ينكشف لك بعض أسرار النظم في مجيء (الواو) في مواضع وعدم مجيئها في مواضع أخرى

يقول تعالى: ﴿الم (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣)﴾ (سورة البقرة، من الآية ١: ٣)

ويقول تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣)﴾ (سورة الأنفال من الآية ٢: ٣)

ويقول تعالى: ﴿طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ (١) هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٣)﴾ (سورة النمل، من الآية ١:٣)

ويقول تعالى: ﴿الم (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (٢) هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ (٣) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤)﴾ (سورة لقمان من الآية ١: ٤)

فالمواضع الأربعة أتت في مفتتح سور تتحدث عن القرآن الكريم وتصفه بأنه هدى للمتقين والمؤمنين والمحسنين، وأن لآياته أثرا في زيادة الإيمان، ومن الملاحظ أن ثلاثة مواضع أتى التعبير القرآني (يقيمون الصلاة) صلة للموصول دون أن يعطف على شيء يتقدمه، وأتى في موضع واحد معطوفا على أمر سبقه هذا الموضع هو موضع سورة البقرة حيث عطف قوله:(يقيمون الصلاة) على (الذين يؤمنون بالغيب)، فما سر اختصاص مفتتح سورة البقرة بالعطف على قوله: (الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ)؟

لعل السر في اختصاص هذا الموضع بتلك الزيادة هو أنه أول المواضع في التلاوة فناسب ذلك حرص النظم على تأكيد نفي الريب والشك عن القرآن حتى تستقر نفس قارئه وتطمئن إلى أن الشك بعيد كل البعد عن كل ما سيخبر عنه القرآن الكريم من حقائق ودلالات علمية، وأخبار وقصص الأمم السابقة،

وحديث عن مواقف مستقبلية كأحداث القيامة وغيرها، وما فيه من أخبار عن عوالم غيبية كعالم الملائكة وعالم الجن، كل هذه أمور تعد من الأشياء التي غابت عن مدركات الحس فلا يهتدي إليها إلا من ترسخ الإيمان بالغيب في قلبه، فناسب ذلك اختصاص هذا الموضع بزيادة العطف على ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ دون غيره.

وأتى التعبير بالمصطلح القرآني (يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ) في هذه المواضع المذكورة مناسبا مع المقام الذي ورد فيه حيث جاء في سياق الحديث عن هؤلاء الذين حققوا النفع من كتاب الله، ومعلوم أن كتاب الله متجدد العطاء في سائر الأزمان، يجد فيه كل صاحب حاجة بغيته ويرتشف من نبعه على حسب علمه واختلاف مطالبه، حتى إن المؤمن كلما ارتقى في مدارج هديه ارتقت أفعاله وتجدد الإيمان في قلبه، وعلامة ذلك أنك ترى من تحقق فيهم هدى القرآن لصلاتهم قائمون وعليها محافظون فلا يضيعون لها وقتا ولا ينتقصون منها ركنا ولا سنة ولا خشوعا؛ لذا تجد أنه متى أتى الحديث عن إقام الصلاة بعد ذكر هدي القرآن تجد النظم يستعمل الفعل المضارع (يقيمون) الدال على التجدد والاستمرار بدلالة زمنه، والدال على التمام والكمال بدلالة مبناه، وفي هذا إشارة إلى أن هذا التجدد ما هو إلا نتاج لتجدد عطاءات الهداية القرآنية، وأن التمام الحاصل في عباداتهم مرده إلى ما حصلوه من معانى الهدى في قلوبهم فانعكس ذلك على جوارحهم، وكل هذه المعاني لا تتحقق إلا بهذا التعبير القرآني (يقيمون الصلاة) الذي يشير إلى المعنى التام للصلاة بكل أركانها وسننها، بل ويدل على دوام فعلها وتجدد أثرها .

ثانيا المواضع التي لم تأت في صدر السور.

الموضع الأول: قوله تعالى:﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ سورة (المائدة، الآية: ٥٥) .

لما نهى الحق –سبحانه وتعالى– المؤمنين عن موالاة الكفار في الآيات السابقة لهذه الآية أتى هنا بما يوضح من يجب أن تكون لهم الولاية، ولما كانت هذه القضية من الخطر بمكانة فقد أحكم النظم بناء عباراتها بما يضبط سبل الاختيار، فصدر الآية بـ(إنما) التي تفيد الحصر والقصر، وفي التعبير بها دون غيرها من طرق القصر ما يشير إلى دلالة تربوية نفسية مهمة حيث إنها تدخل على المعاني "المأنوسة القريبة من النفس لا المعاني الغريبة، فهي أداة رقيقة هامسة لا تنزعج النفس لما دخلت عليه ولا ترفض ما جاء في وعائها"[١]، وكأن النظم استخدم (إنما)؛ ليعالج القضية من الجانب النفسي لدى المؤمنين حيث يؤكد لديهم أن هذه الحقيقة معلومة لديهم فهم لا يحتاجون إلى إعلام بها، ومراد النظم هو أن يذكرهم بالأمر المعلوم لديهم، ويؤكد ذلك أن ما سبق هذه الآية كان كالتهيئة للمعنى المراد منها وممهدا للأمر الذي عالجته تلك الآية حتى أتت تلك الآية بمعاني مأنوسة لدى المخاطبين، ثم قال: (إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا) فأتى في جانب المؤمنين بالاسم الموصول دون أن يقول: (إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ والمؤمنون) لزيادة التأكيد والإحكام في جانب المؤمنين فإذا كانت ولاية الله ورسوله مما لا يقع فيها خلاف، فإن الولاية مع المؤمنين تحتاج إلى مزيد تأكيد وبيان، فاستعمل الاسم الموصول وصدر جملة الصلة بالفعل الماضي(آمنوا) الدال على تحقق الإيمان، ثم عمد إلى التعريف بهؤلاء المؤمنين

١ – تراجع هذه المعاني في كتاب دلالات التراكيب دراسة بلاغية، د/ محمد أبو موسى، ص: ١٥٥، مكتبة وهبة ، ط: ١٤٢٩هـ، ٢٠٠٨م.

بعلامات لا تقبل الشك ولا الحيرة، فأتى بما يصدق دعواهم الإيمان حتى يكونوا جديرين بتلك الولاية مع الله ورسوله، ويخرج من ادعى الإيمان بلسانه دون أن يصدقه قلبه وهم المنافقون الذين ﴿لَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ (التوبة: ٥٤)، فقال في صفة المؤمنين: ﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ وأعاد التعبير باسم الموصول (الذين) لمزيد تأكيد وتنبيه على ما تتضمنه الصلة من أفعال، وبهذه الصفات يكون قد ميز الله المؤمن المستحق للولاية عن المنافق، وخص هاتين العبادتين دونَ سائرِ فروعِ الإيمان؛ لأنهما أكثر ما يتميز بهما المؤمن الخالص عن المنافق، فإذا كانت الولاية بين المؤمنين تتمثل مظاهرها في علاقة التقارب والتآلف والود والأخوة التي منبعها ولاية الله ورسوله، فإن هذه المظاهر تؤَسَّسُ وتبنى في المسجد، في صف الصلاة، ففي المسجد تُنسج الخيوط الأولى في كساء الوَلاية بين المؤمنين، الذي ينسج بخيوط الإيمان والحفاظ على الصلاة هي البرهان التعبدي الأظهر على تحقق الإيمان مصداقا لقول النبي صلى الله عليه وسلم : إِذَا رَأَيْتُمُ الرَّجُلَ يَعْتَادُ الْمَسَاجِدَ ، فَاشْهَدُوا لَهُ بِالإِيمَانِ ..." [1] وهذا التمييز لم يكن ليتحقق بغير التعبير القرآني:(يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ)؛ لأن المنافقين يصلون لكن صلاة ناقصة لا خشوع فيها ولا دوام، أما المؤمنون المقصودون هنا فمن صفاتهم إقامة الصلاة لا مجرد أدائها، وإقامتها تعني أداءها أداء كاملا، إذن فهؤلاء الموصوفون تجدهم على صلاتهم يحافظون، وفيها خاشعون، لا تجد منهم فتورا ولا انقطاعا، فناسب هذا المعنى التعبير بفعل القيام الدال على التمام في صيغة

(١) من حديث أبي سعيد، سنن ابن ماجه، لابن ماجة أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني (المتوفى: ٢٧٣هـ)،١/ ٢٦٣، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي الناشر: دار إحياء الكتب العربية – فيصل عيسى البابي الحلبي، بدون تاريخ .

المضارعة الدالة على الاستمرار الذي يظهر فيه صدى دلالة كلمة (يعتاد)، التي جاءت في حديث النبي صلى الله عليه وسلم، وآثر استعمال كلمة الصلاة؛ ليشير إلى العبادة بشكلها التام الكامل، كما أن هذا اللفظ هو المسمى الأشهر لتلك العبادة فأتى به هنا؛ ليكون أوضح في التمييز وأقوى في الدلالة على صفة هؤلاء المؤمنين .

ولكن لماذا استعمل النظم الحكيم التعبير (يقيمون الصلاة) دون أن يعطفه على غيره؟

يريد النظم الحكيم هنا أن يميز فئة المؤمنين الصادقين عن المنافقين، وأهم ما يميز هذه الفئة عن المنافقين هو الصلاة التي هي عماد الدين؛ لذا أتى بها ابتداء دون أن تسبق بأي أمر آخر، وفرق بين هذه الآية وبين قوله تعالى: ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بالمعروف وَيَنْهَوْنَ عَنِ المنكر وَيُقِيمُونَ الصلاة ﴾ (سورة التوبة، الآية: ٧١) فمع أن الموضعين يتناولان قضية الولاية إلا أن آية المائدة صرح فيها بولاية الله ورسوله، أما آية التوبة فلم يذكر فيها ولاية الله ورسوله، فناسب ذلك أن يأتي في سياق التوبة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قبل إقام الصلاة، إذ إنهما من الأهمية بمكان في بناء المجتمع القويم، ولم يذكر ذلك في سورة المائدة؛ لأن التصريح بولاية الله ورسوله وهما مصدر الأمر والنهي جعل المقام لا يحتاج إلى التصريح بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فمن يتولى الله ورسوله فقد حقق ما أمرا بها وانتهى عما نهيا عنه.

الموضع الثاني: قوله تعالى: ﴿ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾ (سورة إبراهيم: ٣١)

الناظر لهذه الآية يجد أنها تتناول طائفة من المؤمنين سماهم النظم الحكيم (عباد) وخَصَّهم بِالإضافَةِ لنفسه تَعالى؛ تعظيما لحالهم، وإجلالا لأفعالهم، "وتَنْبِيهًا عَلى أنَّهُمُ المُقِيمُونَ لِوَظائِفِ العُبُودِيَّةِ المُوفُونَ بِحُقُوقِها"[1]، وفي التعبير عنهم باسم الموصول زيادة في مدحهم، وأتى بجملة الصلة (آمنوا) مصدرة بالفعل الماضي؛ ليدل على أنهم حققوا الإيمان تحقيقا مؤكدا، ومعلوم أن هذا الصنف من العباد يقيمون الصلاة من قبل أن يؤمروا بها لهذا تعين أن يكون المراد بالأمر هنا الاستمرار والمداومة و الاستزادة، لذلك عبر بالفعل المضارع (يقيموا) المقرون بلام الأمر المقدرة؛ " دون صيغة فعل الأمر؛ لأن المضارع دال على التجدد، فهو مع لام الأمر يلاقي حال المتلبس بالفعل الذي يؤمر به بخلاف صيغة (أفعل) فإن أصلها طلب إيجاد الفعل المأمور به من لم يكن ملتبسا به "[2]، ولما كان المقصود الاستزادة من العبادة بشكلها العام وبهيئتها المتكاملة المعروفة التي تناسب منزلة هذا الصنف الذي تتحدث عنه الآية ناسبه إقامة السياق على صورة المعنى الدالة على هذا القصد فقال: (يقيموا الصلاة)، ولو عبر بصورة من الصور الدالة على أحد أجزاء الصلاة؛ لظن أن المقصد هو حثهم على التأكيد على هذا الجزء دون ما عداه، خصوصا وأن الأمر وجه إليهم حال تلبسهم بالعبادة، لكن لما أتى الأمر بالصورة المشتملة على لفظ (الصلاة) توجه المعنى إلى العبادة كلها، بل وشملت كل أنواعها فَرْضًا كانَتْ أوْ تَطَوُّعًا، كما أن الصورة التي استعملها النظم اشتملت على لفظة (يقيمون) والتي تدل بمعناها على التمام وبزمنها على المداومة والاستمرار،

(١) روح المعاني، شهاب الدين محمود بن عبد الله الألوسي (المتوفى: ١٢٧٠هـ) : ٢٠٧/٧،تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ ..

(٢) التحرير والتنوير: ٢٣٣/١٣ .

وفي هذا حث على بذل مزيد من الجهد للاستمرار في إتقان تلك العبادة وأدائها أداء تاما يتناسب مع المنزلة التي صورها النظم لهذه الطائفة التي تحدث عنها.

الموضع الثالث، قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ (سورة إبراهيم: ٣٧)

أتى الحديث عن الصلاة هنا في سياق دعاء سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ لزوجه وابنه عندما تركهما في مكة وكانت يومها صحراء قفرا لا زرع فيها ولا ثمر، قاحلة خاوية من مقومات الحياة، ومن يراجع الموقع الذي أتى فيه الحديث عن فريضة الصلاة وكيف صيغت هنا ينكشف له بعض من أسرار النظم وراء اختصاص الصلاة بالذكر بتلك الصورة التي عبر بها النظم عن المعنى المراد في هذا السياق، وأول ما يلحظه المتأمل أن قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ هو رحى الحديث، ومعقِد معناه، والأصل الذي أقيم عليه الكلام؛ لأن النظم جعل من إقامة الصلاة علة لما قبلها وطلبا لما بعدها؛ أما كون الصلاة علة لما قبلها فيفهم من قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ فقد جعلها سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ الغرض الأسمى الذي من أجله قطع رحلة شاقة طويلة هجر فيها الأحبة والأوطان، وفي ذلك دليل على أهمية تلك العبادة وإظهار لكمال العناية بها، وبيان أنها الشعيرة التي ينبغي أن يؤديها الإنسان ويحافظ على إقامتها بشكل دائم مستمر في كل أحواله حتى وإن ضاقت به كل السبل، وقد أكد النظم تلك الأهمية بإعادة النداء وتوسيطه مع قوله تعالى: (ربنا ليقيموا)؛ " للإشعار بأنها المقصودة بالذات من

إسكانهم ثمة"[1]، وزاد من التأكيد على الاهتمام بالصلاة قوله:(عند بيتك المحرم)؛ لأن السكنى إذا كانت بجوار المسجد تعين على المحافظة على الصلاة فإن السكنى بجوار بيت الله الحرام أشد عونا على إقامة الصلاة والمحافظة عليها؛ لهذا استعمل النظم التركيب الذي يتناسب مع هذه المعاني، فأتى بالفعل (يقيموا) الدال على التجدد والاستمرار بدلالة زمنه، والدال على التمام والكمال بدلالة مادته فمقصد سيدنا إبراهيم هو أن يحافظ أهله على الصلاة بشكل متجدد ومستمر حفاظا تاما سواء أكان في ظاهر أمرها حيث أركانها، أم في باطنها حيث خشوعها، وذلك في كل وقت من أوقاتها، مع المداومة عليها خصوصا وأنهم قد نزلوا ببيت الله الحرام، وأما كون الصلاة طلبا لما بعدها فيفهم من قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ فحينما ذكر سيدنا إبراهيم علة وجودهم هنا بقوله: (ليقيموا الصلاة) طلب لهم ما يعينهم على الحفاظ على تلك العبادة بشكل تام لاعوجاج فيه ولا نقص، ومن الملاحظ أن سيدنا إبراهيم طلب أمرين ؛ الأول: تحقيق الأمن، الثاني: توفير المطعم؛ وهذان الأمران يتناسبان مع التعبير بـ(يقيموا الصلاة)؛ لأن الإنسان إذا تملكه الخوف الشديد، أو وجد في نفسه جوعا يستشعر معه الهلاك، فإنه لن يحقق من العبادة مرادها، وإن فعلها فإنه سيقوم بها وهو شارد الذهن مشغول البال لا يستشعر معها خشوعا ولا قربا من الله؛ لهذا فإن سيدنا إبراهيم – عليه السلام – جعل الغاية المرادة هي إقامة الصلاة، ومن أجل تحقيق تلك الغاية كانت مطالبه : ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله البيضاوي (المتوفى: ٦٨٥هـ):٣/٢٠١ تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤١٨ هـ.

الثَّمَرَاتِ)وعلى هذا فإن (لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ) كانت هي رحى الحديث الذي عنده صب الغرض الرئيس من تلك الرحلة، ومنه كانت البداية في طلب المقومات المعينة على استكمالها.

مما سبق يتضح أن النظم الحكيم يعبر عن عبادة الصلاة بلفظ الصلاة مسبوقا بالفعل المضارع من القيام في المواضع التي يراد فيها التنويه على عبادة الصلاة بشكلها العام بكل تفاصيلها مع التأكيد على معنى المحافظة والإصلاح والملازمة والثبات والتمسك والاستقامة والاعتدال في كيفية أدائها.

مجيء الصلاة مع الفعل الماضي من القيام :

جاءت الصلاة مع الفعل الماضي من القيام على هذا النحو:

م	الصيغة	عدد مرات ورودها
١	**وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ**	٨
٢	**أَقَامُوا الصَّلَاةَ**	١
٣	**وَأَقَامَ الصَّلَاةَ**	٢
٤	**أَقَمْتُمُ**	١
٥	**أقمت**	١

ومن الملاحظ أن عدد مرات ورود الفعل مسندا لضمير الجمع أكثر من وردوه مسندا إلى ضمير المفرد، وفي ذلك دلالة على أن الأصل في الصلاة أن تكون في جماعة .

والنظم الحكيم عبر بفعل القيام مقرونا بالصلاة (أقام الصلاة)؛ ليدل على أدائها أداء كاملا لا يعتريه نقص، وهذا يتناسب مع السياقات التي ورد فيها هذا التعبير كما سيأتي، وهذا لا يختلف عن المواضع السابقة إلا من حيث دلالة الزمن، فالمواضع السابقة كان فعل القيام يأتي بصيغة المضارع، أما هنا فالفعل أتى بصيغة المضي، ومن يراجع تأمل المواضع التي أتى التعبير فيها بصيغة

المضارع يجد أن السياق يتطلب معنى الاستمرار والمداومة، كقوله تعالى: ﴿ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ فالأمر موجه لهم حال تلبسهم بهذه العبادة فكان المعنى الحث على المداومة والاستمرار، وتأمل قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ﴾ لما كان من مقاصد هذا السياق تميز المؤمن الحق المستحق للولاية عن المنافق ناسب ذلك التعبير على ما يدل على المداومة والاستمرار لأن عبادة المنافقين عبادة الكسالى الذين لا يخرجون إلا رياء.

وتجد النظم يعبر بالفعل المضارع في سياق هداية القرآن للمؤمنين المتقين المحسنين؛ للدلالة على أن هديه دائم لا ينقطع، وهذا الهدي يلقي بظلاله على أعمال هؤلاء فتجدها أعمالا دائمة متجددة بتجدد الهداية التي يحصلونها من كتاب ربهم.

أما حينما يكون المعنى المراد إظهاره هو التنبيه على تحقق الوقوع تجد السياق يستدعي الفعل الماضي فهو أقدر على أداء تلك المهمة فإذا عبر النظم بـ(أقام الصلاة) فهو قد جمع بين كمال العبادة حيث أداؤها بأركانها وسننها وهيئاتها في أوقاتها، مع التنبيه على أنها متحققة منهم كتحقق ما حدث وانتهى ،ومن ذلك:

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ ﴾ (سورة البقرة، من الآية :١٧٧) وهذا الآية الكريمة جاءت لتفنيد مزاعم اليهود والنصارى وتحقيقا للحق بعد أن بينت بطلان دعواهم، حيث "زعم كل فريق منهم

أنّ البرّ هو التوجه إلى قبلته"[١] ، فأكد القرآن أن البرّ ليس فيما هم عليه من اختلاف واهن، لكن البرّ الحقيقي الذي يجب أن يصرف الإنسان له همته ويوجه له عنايته هو أن يحقق العبادة تحقيقا مؤكدا؛ لذلك جاء التعبير بالأفعال الماضية(آمن، أتى، أقام)؛ ليعبر بها عن أحداث مازالت قائمة وموجودة، إلا أنه أراد أن يشير إلى أن البر الحقيقي لا يتحقق عند الإنسان إلا إذا تحققت منه هذه الأفعال تحققا يقينيا كتحقق الماضي الذي وقع وانتهى فلا يكون معه مجال للشك، ولاحظ أن النظم الحكيم قد جمع عددا كبيرا من خصال الخير؛ ليدل بذلك على أن البر الحقيقي ليس هو التمسك بسفاسيف الأمور لكن البر الحقيقي هو أن تتلبس بخصال الخير تلبسا يقينيا، والتعبير بـ(أقام الصلاة) يسير وفق هذا المنهج التعبيري حيث دل على التمام في أداء الصلاة بالتعبير بالقيام الدال على التمام ، ودل الزمن الماضي على إثبات الفعل إثباتا لا يعتريه شك، ومن الملاحظ أن النظم الحكيم أسند فعل القيام إلى ضمير المفرد في (أقام) و(أتى) ثم عدل من الإفراد إلى الجمع في (الموفون) و (الصابرون) ولعل السر وراء ذلك هو أن النظم هنا يريد أن يوجه عناية المخاطبين إلى أن تزكية النفس تحتاج إلى أعمال نابعة من داخل الإنسان منفردا، وأخرى تحتاج إلى مقومات جماعية، فجمع لهم الفضائل الفردية والاجتماعية التي هي أساس في صلاح المجتمع وبدأ بما يخص الفرد وعقيدته؛ لأنه إذا صلحت عقيدة الإنسان مع ربه في صلاته، وأتى المال مع شدة حبه له، وتعلق النفس به، ثم يُؤثِرُ به غيره ابتغاء وجه الله تعالى؛ كان ذلك دافعا لصلاح ما اختص بالمجتمع، ثم عدل بعد ذلك

(١) يراجع الكشاف، للزمخشري (المتوفى: ٥٣٨هـ): ١/ ٢١٧، دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤٠٧ هـ .

لصيغة الجمع في (الموفون)، (الصابرون) فمع ما فيهما من فضيلة فردية، إلا أن أثرها لا يظهر إلا إذا أصبحا فضيلة اجتماعية .

ومنه قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (سورة البقرة: ٢٧٧)

جاءت هذه الآية بين آيات الربا التي بيّن النظم فيها إثم الذين يأكلون الربا، وحال من أصر وعاد إليه بعدما جاءته الموعظة، كاشفا عن عظم التهديد لمن يتخذون الربا منهجا ويجعلون منه نظاما، ومن يتأمل موقع هذه الآية يجد لمحات عجيبة حيث تراها تظهر للمخاطبين أن المجتمع مهما استشرى فيه الفساد وساد فيه المنكر فإنك لا تعدم وجود طائفة لا زالت متمسكة بالهدى والإيمان، محققة أركان الدين تحقيقا لا يشوبه شك، وهذا يعطى للمخالفين دافعا قويا نحو الخضوع للأمر الموجه لهم فلا يستشعرون غربة في عودتهم إلى طريق الهدى إذ إن هناك من لزمه وسلك ضروبه وفاز بوعد الله فيه (لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

ولما كان مقصد النظم هو التأكيد على وجود هذه الطائفة والتنبيه على خصائصها والكشف عن منهجها الذي تسير عليه؛ جاء التعبير عنها في قالب بديع صدر بالتأكيد بـ(إنّ) ليقوي المعنى في نفوس المخاطبين، وعبر عنهم باسم الموصول ليجعل النفس متشوقة إلى الصفات التي تتكون منها جملة الصلة فيشحذ بذلك الأسماع ويوقظ الأفهام، ثم تأتي أوصافهم مجملة في قوله:(عملوا الصالحات) ثم يعطف عليها (أقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة) من باب عطف الخاص على العام؛ للتنويه بعظيم شأن هاتين العبادتين، وكأن النظم يريد للمخاطب أن يعرف أن مدار الحديث هنا هو هاتين العبادتين(الصلاة والزكاة) وأنهما إن أتى بهما الإنسان بالكيفية المشروعة كانا كفيلين بإصلاح حال النفس واستقامتها؛ لذلك عبر بلفظ (أقام) الذي يفهم منه التمام والكمال في أداء تلك

الشعيرة، وأتى معها بلفظ الصلاة من أجل تمام الصورة إلى الأفهام، فالإنسان الذي يبحث عن الصلاح لابد أن يعرف أن التمام لابد أن يشمل الصلاة بكل أركانها، وأتى بالأفعال (أقام، وأتى) في صورة المضي على الرغم من أن هذه الطائفة ما زالت لتلك العبادات فاعلة، وعليها محافظة؛ ليتناسب مع سياق التأكيد الذي افتتحت به الآية الكريمة، فالتعبير بالمضي يدل على أن وجود الفعل المذكور في حكم ما وقع يقينا، فالنظم يشير إلى أنهم تلبسوا بهذه العبادات حتى إن أداءهم لها في المستقبل متحقق منهم كتحقق الفعل الذي وقع وانتهى وما هذا إلا لكمال إيمانهم وصلاح أمرهم، ولعل النظم أسند فعل الإقامة لضمير الجمع هنا؛ ليؤكد المعنى المراد ويدل على أن ما يؤمرون به من ترك الربا والعودة إليه هو من خصائص الجماعة المؤمنة التي سلكت طريق النجاة ولزمته، وليس منهجا فرديا، كما أن الحديث هنا يعالج قضية الربا وهي قضية مجتمع، ولما عالجها استبدلها بقضية تكافلية إسلامية مجتمعية أيضا وهي قضية الزكاة فناسب ذلك إسناد الفعل لواو الجماعة.

<u>ومن ذلك قوله تعالى</u>: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسَّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ (سورة الأعراف : ١٧٠)

استعمل النظم الكريم هنا التعبير القرآني المكون من الفعل الماضي (أقام) مقترنا به لفظ (الصلاة) للدلالة على عبادة الصلاة ، ومن يدقق النظر يجد أن هذه الآية أتت في مقابلة الآية التي سبقتها، ألا ترى أن التي قبلها قد بينت أن هناك خلفا ورثوا الكتاب فضيعوه وحرفوه ولم يلتزموا تعاليمه، فأخذوا عرض الأدنى و فرطوا في ميثاق الكتاب، فأتى هنا بالصنف المقابل لهؤلاء، وقد بينت خاتمة الآية أن هذا الصنف المذكور في الآية هم من المصلحين، وذكرت الآية صفتين من صفاتهم وهما (التمسك بالكتاب المنزل من عند ربهم، وإقام الصلاة)، <u>ولكن لماذا اختار النظم الحكيم هاتين الصفتين لهذا الصنف ؟</u>

لعل النظم اختار هذه الأوصاف؛ لأن الآية الكريمة تتحدث عن صفات المصلحين، ولكي يتحقق هذا الوصف ـ أعنى الإصلاح ـ جمع النظم لهم ما يؤهلهم لذلك، وبدأ بـ(يمسكون الكتاب) أي إنهم يحكِّمون الكتاب الذي أنزل إليهم من عند ربهم في كل شئون حياتهم، وكل معاملاتهم بحيث يكون هو شريعتهم ودستورهم ومنهج حياتهم فإذا فعلوا ذلك انصلح مجتمعهم كله؛ لأن التمسك بالكتاب بما يستلزمه من تحكيم شرع الله وتطبيق الحدود والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ... يعود بالنفع على عامة المجتمع، ولما كان المجتمع لا ينصلح إلا بصلاح أفراده، قرن بالتمسك بالكتاب من الأفعال ما يدعو لإصلاح الفرد وتهذيب النفس وهو (إقام الصلاة) فهي عبادة يعود نفعها الأكبر على الفرد فتجعل منه إنسانا صالحا نافعا، وبهذا يكون النظم جمع بين ما فيه صلاح المجتمعات، و صلاح الأفراد.

والملاحظ هنا أن النظم الحكيم قد عطف (أقام الصلاة) على (يمسكون بالكتاب) وبهذا الاستعمال فقد عدل النظم عن توافق الأزمنة ولو راعى النظم الحكيم قانون الجوار وتناسق الصيغ لاستعمل المضارع (يقيمون) بدلا من (أقاموا) مما يدل على أن هذه المغايرة بين الوعاء الزمني للفعلين (يمسكون، و أقام) تحمل أسرارا بلاغية ودلالات مقامية، ولعل السبب في ذلك هو طبيعة كل صفة من الصفتين، فإيثار التعبير بالمضارع مع(يمسكون)؛ لأن التمسك بالكتاب صفة يرجى منها إصلاح المجتمع والحياة وهذه من الأمور المتجددة والمستمرة إذ إن الدعوة إلى إصلاح المجتمعات لا بد أن تكون متجددة مستمرة بسبب تجدد الصراع القائم بين الخير والشر، فإذا كانت دوافع الشر لا تنتهى في كل زمان ومكان كان حتما أن تكون قوى الخير متجددة مستمرة، حتى يتحقق في هذه الحياة مبدأ التدافع بين قوى الخير والشر فجاء المضارع هنا؛ ليشير إلى أن هذه الطائفة آخذون بميثاق الكتاب متمسكون بتعاليمه، لم ينفكوا عنه ولم ينفك عنهم في شتى أمورهم يهرعون إليه كلما عَنَّ لهم أمر من أمور حياتهم ليبحثوا

عنه في كتاب ربهم ومنهجه ويردوه إلى ما فيه من تعاليم، وهذا يناسبه التعبير بصيغة المضارع الدال على الاستمرار والتجدد، ويؤازره التشديد في (سين) يمسّكون الدال على الكثرة ثم أتى بـ(إقامة الصلاة) ؛ معبرا عن إقامتها بالفعل الماضي ؛ للدلالة على ثباتها، حتى صارت إقام الصلاة على وجهها وفي أوقتها صفة لأهلها ونَحِيزَة[١] فيهم"[٢]، و برهانا على التزامهم بما أمروا به، التزاما كليا دون تفريط؛ لهذا عبر بلفظ (أقاموا الصلاة) أي بحدودها، ولم يضيعوا أوقاتها ولا خشوعها ولا أركانها، وعبر بالماضي؛ ليدل على أن التزامهم بذلك إنما هو منذ زمن بعيد، وأن هذا الالتزام متحقق كتحقق الفعل الماضي الذي وقع وانتهى .

وعلى الرغم من أن الصلاة عبادة متجددة ومستمرة إلا أن النظم لم يعبر عنها بصيغة المضارع الدالة على التجدد والاستمرار؛ لأن النظم أراد من خلال هذا البناء التركيبي المعجز أن يشير إلى دلالة أخرى لها أثر في بناء المعنى لا يمكن للمضارع أن يحققها هنا، هذه الدلالة هي أن صلاح النفس المتحقق بإقامة الصلاة لابد وأن يكون مقدما في الزمن على صلاح المجتمع المتحقق بالتمسك بالكتاب، فأتي الحديث عما يخص صلاح الفرد في وعاء زمني متقدم على ما يشير لصلاح المجتمع ؛ ليدل على أن الإنسان لا يستطيع أن يصلح المجتمع قبل أن يصلح هو من نفسه؛ لذلك جاء مع إقام الصلاة بصيغة الماضي، وجاء مع التمسك بالكتاب بصيغة المضارع ؛ لأن الماضي زمنه يسبق زمن المضارع، ومع ذلك فإن السياق لم يسلب الوعاء الزمني الذي أتى فيه (إقامة الصلاة) معنى التجدد والاستمرار بالكلية بل استطاع أن يلقي بظلال التجدد والاستمرار عليه ويظهر ذلك في عطف الماضي على المضارع؛ ليدل

(١)النَّحِيزَةُ : الطبيعة و نَحِيزَةُ الرجل طبيعته. ينظر لسان العرب مادة (نحز) : ٥/ ٤١٤ .

(٢) ينظر التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية ، أحمد سعد محمد : ١٨٤ ، مكتبة الآداب ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٨ م . .

على أن كلا الفعلين استقي من الآخر دلالته الزمنية فالفعل (يُمَسِّكُونَ) وإن دل بصيغته على المضارع إلا أنه دل بسياقه وموقعه على قدوم تلك الصفة ورسوخها في نفوس المسلمين وذلك بما استقاه من دلالة المضي من الفعل (أَقَامُوا) ويؤكد ذلك قراءة أبيّ: «والذين مسكوا بالكتاب»[1] وقراءة ابن مسعود رضي الله عنه : «والذين استمسكوا بالكتاب»[2]، كما أن الفعل وإن دل بصيغته على ثبوتهم على إقامة الصلاة ، فهو أيضا قد اكتسب دلالة الاستمرار والتجدد من عطفه على الفعل (يُمَسِّكُونَ)

ومع أن النظم الحكيم قد أخر التمسك بالكتاب عن إقام الصلاة في البنية الزمنية إلا أنه حرص على أن يقدم (يمسكون بالكتاب)، على (أقاموا الصلاة) في البنية التركيبية؛ ليشير إلى أن منهج القرآن هو الاهتمام بمصلحة الجمع على مصلحة الفرد، لهذا قدم ما فيه مصلحة الجماعة والمجتمع (التمسك بالكتاب) على ما فيه المصلحة الخاصة (إقامة الصلاة)، كما أن هذا النسق التركيبي جعل (وأقاموا الصلاة) معطوف (يمسكون بالكتاب) وهذا من باب ذكر الخاص بعد العام للتأكيد على شأن الصلاة وبيان أنها من أهم الأمور التي ينبغي على من يتمسكون بالكتاب أن يعتنوا بها .

ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (سورة التوبة، الآية: ٥)

---

(١) الحجة في القراءات السبع، للحسين بن أحمد بن خالويه (المتوفى: ٣٧٠هـ):١٦٧، تحقيق: د. عبد العال سالم مكرم، دار الشروق – بيروت، الطبعة: الرابعة، ١٤٠١ هـ .

(٢) كتاب المصاحف، لأبي بكر بن أبي داود الأزدي السجستاني (المتوفى: ٣١٦هـ):١٧٦ تحقيق: محمد بن عبده، الفاروق الحديثة – مصر / القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٢م.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (سورة التوبة، الآية: ١١)

ومن يتأمل هذين الموضوعين يجد أنهما وقعا في سياق الحديث عن فتح باب التوبة أمام المشركين، وتخلية سبيلهم، أو اتخاذهم إخوانا، وقد حرص النظم الحكيم على بيان الشروط التي يجب أن تتحقق للمسلمين قبل تخلية سبيل المشركين أو اتخاذهم إخوانا، وجعل أول هذه الأمور التوبة و قرن بها إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، ولعل السر في ذلك هو توجيه المخاطبين إلى أن قبول التوبة مشروط بوجود علامة تدل على صدق التائبين وإقبالهم بإخلاص على طاعة ربهم، وقد كشف النظم عن هذه العلامة في قوله:(وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ) فجعل صدق توبتهم مرتبطا بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، واختار النظم صورة التعبير عن الصلاة بقوله: (وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ)؛ لينبه جماعة المسلمين إلى ما يجب أن يبحثوا عنه عند هؤلاء وهو كيفية أدائهم للصلاة؛ لأن من صدقت نيته خشع قلبه واستقامت جوارحه فأدى صلاته خاشعا، وحرص على تمام أفعالها وأقوالها، وقد دل على ذلك استعمال مادة (القيام) دون غيرها، كما نبه النظم المخاطبين إلى أن من علامات صدق توبتهم أن يحرصوا على أداء الصلاة في جماعة وهذا يفهم من مجيء الفعل مسندا إلى (واو) الجماعة، وأتى بفعل القيام على صيغة الماضي؛ لينبه جماعة المسلمين إلى أنهم يجب أن يتأكدوا يقينا من تلبس هؤلاء بهذه العبادات تلبسا يدل على تحقيق هذه الأفعال ووقوعها منهم بشكل قاطع لا يقبل العودة والانتكاس بما يتنافى مع التوبة الصادقة، وحتى تتناسب تراكيب الآية ونظمها مع مراد السياق استخدم النظم المصطلح القرآني المكون من القيام المسند للصلاة، ووضعه في قالب شرطي؛ ليجعل تخلية سبيلهم وجعلهم للمؤمنين إخوانا متوقفا على صدق دعواهم التوبة بالبينة العادلة بأن يحافظوا على صلاتهم حفاظا لا يعتريه نقصان، ولا يتخلله اعوجاج، وأتى بأداة

الشرط (إن) وأدلج بعدها فعل الشرط في زمن المضي وذلك على خلاف الأصل؛ لأن الأصل أن يأتي بعدها فعل الشرط في صورة المضارع، إلا أن النظم عدل إلى التعبير بالماضي؛ لينبه المسلمين أنه ليس كل توبة تقبل ولا كل صلاة ترفع، ولا كل نفقة تحمد، فيجب التثبت من هذه الأفعال، فإن تحققتم يقينا من ثبوتها كتحقق المفهوم الثابت من الماضي ففعلوا ما ستؤمرون به .

كما أن مفهوم الدلالة لهذه الأفعال قد اتسع؛ لأنه حمل معنى المضارع الدال على التجدد والاستمرار من الأصل الذي يأتي عليه وهو المضارع، وضم لذلك معنى التوكيد والثبوت المستفاد من زمن الفعل الماضي، وعليه فقد تآزرت الدلالتان في سبيل بيان الواجب على المسلمين تجاه تلك الفئة في هذا الموقف.

ومنه قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ () إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ (سورة التوبة: من الآية ١٧: ١٨)

يتناول السياق هنا الفئة الجديرة بإعمار مساجد الله، فبدأ السياق بنفي إعمار المساجد عن الكافرين، وكان هذا النفي بمثابة تمهيد لبيان أن الأحق بالإعمار هم فريق الإيمان، وأثبت هذا الحق بعبارات محكمة البناء، حيث أتى بأسلوب قصر أداته (إنما)؛ الدالة على أن هذا الحق حقيقة لا مراء فيها ولا جدال، لأن إنما تدخل على الشيء المألوف لدى المخاطبين الذي تطمئن له قلوبهم خصوصا وأن النظم قد مهد له حتى جعل مدخولها مما تتوقعه النفوس قبل سماعه، تلك الحقيقة هي أن من اختص بإعمار مساجد الله صنف من الناس أتوا بأصناف مختلفة من العبادات إتيانا محققا لا يعتريه شك، وهذ التحقق المفهوم من دلالة الماضي الذي بنيت عليه صفات تلك الفئة(أمن، أقام، أتى) يتسق مع ما نشرته (إنما) في السياق، فإذا كان مدخولها وهو إعمار الفئة

المؤمنة للمساجد مما لا تنكره النفس ولا ترفضه الطباع، فما ذلك إلا لأن مقومات هذا الإعمار وهي الإيمان بالله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، قد تحققت تحقق الماضي المنصرم لدى تلك الفئة مما يجعلهم مؤهلين لهذا العمل الجليل دون غيرهم، وإذا كان نفي الإعمار قد ورد صراحة عن المشركين في قوله: (مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ) فإن تصدير الآية بأسلوب قصر حقيقي تحقيقي جعل النفي يتضمن كل ما عدا المؤمنين المتصفين بمجموع تلك الصفات التي أثبتها النظم الحكيم، فيتضمن نفي هذا الأمر عن اليهود والنصارى والمنافقين، ويثبت الإعمار لمن تحققت فيه تلك الصفات تحققا يقينيا لا ينتابه شك ولا يعتريه نقصان؛ وهذا ما أحدثه النظم بسرده أفعال من يعمرون مساجد الله (آمن، أقام، أتى) في صيغة المضي تشبيها لها بالحدث الذي وقع وانتهى فلا مجال للشك في حدوثه، وزاد في الصورة التعبيرية الدالة على الصلاة أنه آثر التعبير بقول (أقام الصلاة) دون غيره من صور التعبير الأخرى؛ وذلك لأن مادة (قام) تدل على التمام والكمال، كما أن التصريح بـ(الصلاة) دل على أن هذا التمام يشمل كافة أركان العبادة ومتعلقاتها، وهذا يتناسب مع السياق إذ إنه لا يعمر مساجد الله إلا من تلبس الإيمان في قلبه حتى شغلت نفسه وجوارحه بالصلاة فأتى بكل أركانها وآدابها ومتعلقاتها على أتم وجه وأحسن حال.

<u>ومن ذلك قوله تعالى</u>: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ (سورة الرعد الآية:٢٢)

وهذا الموضع عبر فيه النظم عن عبادة الصلاة بقوله: (وأقاموا الصلاة) مستعملا الفعل (أقام) في صيغة الماضي متصلا به واو الجماعة، ولفظة (الصلاة)، وهذا التعبير واقع ضمن أوصاف (أُولُو الْأَلْبَابِ) حيث ذكر لهم القرآن الكريم أوصافا عديدة؛ منها ما جات في صيغة المضارعة (يُوفُونَ،

يَصِلُونَ، وَيَخْشَوْنَ، وَيَخَافُونَ)؛ للدلالة على التجدد والاستمرار، ومنها ما وقعت في صورة الماضي (صبروا، أقاموا، أنفقوا)؛ للدلالة على التحقق والقطع بالحدوث وتمكنها بنفوس هؤلاء تمكنا جعلها من الأمور التي تقع منهم بشكل لا يقبل معه شك ولا تردد في ثبوته، والنظم هنا بصياغته الفريدة وترتيبه العجيب لنظم الأفعال وما يحدثه فيها من تحولات بين هاتين الصيغتين ـ أعنى الماضي والمضارع ـ يريد أن يوضح للمتلقي أن هذا الصنف من الناس الذين أعد الله لهم من الأجر أعظمه ومن الثواب أجزله قد جمع في حاله بين أمرين الأول: أمر متجدد يحتاج إلى دافع يبعثه وأمر يحركه ويجدد وصله كلما قطعه قاطع، ويرجعون إليه كلما حادوا عنه أو ألهاهم عنه لاه، فهم يتصفون بهذه الصفات "كلما عرض مقتض لاتصافهم بها بحيث متى وجد هذا المقتضي ولم يعملوا بمقتضاه كانوا غير متصفين بهذه الفضائل"[(١)]، وهذه الأمور عبر عنها النظم بالأفعال المضارعة (يُوفُونَ، يَصِلُونَ، وَيَخْشَوْنَ، وَيَخَافُونَ).

الأمر الثاني : أفعال ثبتت يقينا في نفوسهم و تحقق فعلهم لها وتمكنها من أنفسهم؛ "لأنها أصول لفضائل الأعمال"[(٢)] فوجب أن تتميز عن غيرها فعبر عنها بالماضي بين أفعال مضارعه وكأنه قصد إلى إحداث اليقظة لدى المتلقي عند هذا المقطع المهم من مقاطع المعنى، و يدل على أن هذه الأفعال أصبحت عندهم من الأمور اليقينية المحققة الوقوع المقطوعة بحدوثها، وهذا أيضا يناسبه التعبير بالقيام الدال على التمام، وكذا يناسبه التعبير بالصلاة الدالة على أن المقصود كمال العبادة بكل أجزائها من قيام وركوع وسجود وتلاوة وذكر وتسبيح ودعاء دون توجيه النظر إلى جزء محدد دون غيره

(١) يراجع التحرير والتنوير: ١٣/ ١٢٦ .

(٢) السابق: ١٣/ ١٢٨ .

وعلى نهج الموضع السابق يأتي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ (سورة فاطر من الآية:١٨)

بنيت الآية على استئناف مسوق لبيان صفة الذين هم أهل للانتفاع بدعوة النبي – صلى الله عليه وسلم – والاستجابة لموعظته، وقد استعمل النظم أسلوب القصر وأتى بطريق (إنما) الذي يأتي مع المعاني المأنوسة التي لا ينكرها المخاطب لأنه من المعلوم أن النبي – ﷺ – لا ينكر هذه الحقيقة، وعبر عمن يتأتى منهم الانتفاع بدعوة النبي بالاسم الموصول لتأتي جملة الصلة كاشفة عن صفتهم ومعبرة عن حالهم ومأكدة على أن أهم ما تعرف به هذه الفئة هو أنهم (يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ)، ولكن لما اختص تلك الصفتين في هذا السياق ؟ لعل السبب في ذلك هو أن الصفة المقصورة هي (الإنذار) ومعلوم أن الإنذار إنما يكون في الأمور التي ستحدث في المستقبل إذ إن معناه الإبلاغ ؛ ولا يكاد يكون إلا في التخويف[١]، مما سيقع في المستقبل، فناسب ذلك أن يكون أول صفات المقصور عليهم تصديق النبي في إخباره بالأمور الغيبية هو كونهم: (يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ)، وعطف عليها (أقاموا الصلاة)؛ "لأن الصلاة جامعة لخضوع الظاهر والباطن، فكانت أشرف العبادات"[٢] والمحافظة عليها أدل على تحقيق النفع من دعوة النبي – ﷺ –، "ولما كانت هاتان الصفتان من خصائص المسلمين صار المعنى: إنما تنذر المؤمنين، فعدل عن استحضارهم بأشهر ألقابهم مع ما فيه من الإيجاز إلى استحضارهم بصلتين مع ما فيهما من الإطناب، تذرعا بذكر هاتين الصلتين إلى الثناء عليهم بإخلاص الإيمان في

(١) .التحرير والتنوير:٢٢/٢٩١..

(٢) نظم الدرر: ١٦/٣٥.

الاعتقاد والعمل"[1] ومن الملاحظ أن النظم عطف الصفتين معا، وخالف في البناء الزمني لهما، حيث عطف (أقاموا الصلاة) على (يخشون ربهم) فخشية الله من الأمور التي تتجدد بحسب أحوال الإنسان فتزيد وتنقص فهي حالة تعتري الإنسان ومرتبطة بإيمانه وعلاقته مع ربه فناسبها التعبير بالمضارع، ثم عطف عليها إقام الصلاة واصطفى من الصور الدالة على ذلك قوله:(أقاموا الصلاة) الدالة بمادتها على " حفظ جميع حدودها في كل حال وهذا أدل الطاعات على الإخلاص"[2]وتحقيق الخشية لله، كما دلت بزمانه على تحقق فعلهم ومحافظتهم على صلاتهم كتحقق الماضي في الوقوع، إلا أن عطف الفعلين أتى على خلاف الأصل حيث إن الأصل عطف الأفعال المتوافقة في الزمن بعضها على بعض، وهنا عطف الماضي على المضارع، إلا أن هذه المخالفة أدت إلى اتساع معنى تلك الصورة التي عبر بها النظم، حيث إن فعل القيام اكتسب دلالة التجدد هنا والاستمرار من عطفه على المضارع، ودل على الثبوت والتحقيق بدلالة الزمان الماضي، كما أن التعبير بالماضي دل على أنهم لم يضيعوا شيئا من حدودها بل راعَوها كما ينبغي ودل على تمام أدائها بمادة الفعل، ومن هنا تجد التعبير القرآني هنا جمع بين تحقيق حدوث العبادة، وتجدد حدوثها، وكمال أدائها ليجعل من ذلك كله صفة لمن خصهم الله بالانتفاع بمواعظ نبيه – عليه الصلاة والسلام– وإنذاره لهم دون غيرهم .

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ﴾ (سورة، فاطر: ٢٩)

(١) معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي (المتوفى: ٣٩٥هـ): ٥/ ٤١٤، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، عام النشر: ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م

(٢) نظم الدرر: ٣٣/٧.

صدرت هذه الآية بـ(إن) التي تفيد التوكيد؛ وذلك بغرض تقوية مضمون الكلام الوارد بعدها عند المتلقي، وتقريره في نفسه وإن كان غير منكر له، وعرف المسند إليه بالموصولية؛ ليحصل به الإشارة إلى وجه بناء الخبر، وهذه الإشارة تحمل في طيها إيماء يترك في نفس السامع إشارة إلى تحقيق الخبر، ومن الملاحظ أن النظم بنى جملة الصلة على أفعال متغايرة في دلالتها الزمنية؛ ليكوّن بذلك صورة ذات أطر متكاملة تجمع صفات صنف من عباد الله وعدهم الله بتجارة لن تبور وتوفية في الأجر وزيادة في الفضل، ومن الملاحظ أن هذه الأفعال القرآنية أتت في سياق أسلوبي افتتح بفعل مضارع (يتلون)؛ ليدل على أن هؤلاء اعتادوا تجديد تلاوتهم لكتاب ربهم حتى صار ذلك ديدنهم وشأنهم وسمة لهم، ثم عطف عليه فعلين ماضيين(أقاموا) و (أنفقوا)؛ ليحدثا في السياق تغايرا في الصيغ الزمنية للأفعال المتعاطفة، وهذه المغايرة في السياق القرآني الواحد تحمل أبعادا بلاغية، ومقاصد بيانية يعمد إليها النظم القرآني، كاشفا بها عن وجه من وجوه الإعجاز البياني، والأمر الذي يجب أن يستوقف النظر هو لماذا أتى بالفعل الدال على عبادة الصلاة في الزمن الماضي عادلا به عن النسق الزمني الذي افتتحت به الآية ؟

وللوقوف على سر هذا العدول يجب ربط التركيب اللغوي بالمعنى السياقي للوقوف على دلالات أزمنة الأفعال وحركتها داخل السياق، ومن يتأمل هذه المغايرة الأسلوبية في السياق القرآني لحركة الأفعال ودلالات الأزمنة يجد أنها تحمل إشارات منها: بيان الفروق بين العبادات فمن المعلوم أن أبواب الطاعات في الإسلام كثيرة لكنها تخضع لأحكام متغايرة فمنها الواجب، ومنها السنة، ومنها المندوب و المستحب ... إلى غير ذلك من الأحكام المعلومة، والآية الكريمة اشتملت على عدد من الطاعات (تلاوة القرآن، إقام الصلاة، والإنفاق) ومعلوم أن الصلاة فرض على كل مسلم ومسلمة، وهي الركن الثاني من أركان الإسلام، أما التعبد بتلاوة القرآن فمع علو قدر تلك العبادة ورفعة شأنها إلا أنها ليست

فرضا وإنما هي من الأمور المستحبة فهي تعد من الفضائل والسنن لا من الأركان والواجبات، وهذا الفارق يأخذ بالأفهام إلى دلالة من دلالات المغايرة بين الوعاء الزمني الظاهري للفعلين (يتلون) و(أقاموا)، فتجد النظم يستعمل صيغة المضارع موظفا جانبا من الجوانب الدلالية التي يتضمنها الزمن المضارع وهي عدم ثبوت الفعل ثبوتا قطعيا يلزم معه وجوب الوجود، ولعل في هذه الدلالة ما يشير إلى عدم القطع بوجوب العبادة المعبر عنها بالمضارع، ثم يأتي التعبير عن إقامة الصلاة في زمن المضي الدال على القطع بتحقق الفعل وثبوته كثبوت الشيء الذي تحقق وانتهى، مغايرا بذلك النسق الزمني للسياق وذلك للإشارة إلى ما بين هذه العبادة وما قبلها من مغايرة واختلاف، فإذا كانت الأولى سنة مستحبة، فإن إقام الصلاة ثبت وجوبها بالأدلة القطعية، وهذا معنى كريم يعلم الأمة سلوكا حميدا حيث يأخذ بالأفهام إلى الحرص على ترتيب الأولويات بدقة وعناية.

ولكن لماذا لم تأت الأفعال مرتبة في السياق على ترتيب الأزمنة؟

المتأمل لترتيب الأفعال داخل السياق يجد أن النظم الحكيم قصد من وراء ذلك إثراء السياق بدلالات جديدة، حيث صدر الآية بذكر ما يتجدد فعله بكثرة وهو تلاوة القرآن، فتلاوة القرآن أكثر من الصلاة؛ لأن إقامة الصلاة لا تكون إلا بقراءة القرآن، في حين أن قراءة القرآن تكون في الصلاة وغير الصلاة، وإقامة الصلاة هي أكثر من الإنفاق، إذًا فالأفعال مرتّبة في الآية بحسب الكثرة وبحسب الاستمرار.

ومن يراجع التركيب القرآني يجد أن النظم الحكيم ربط بين الأفعال المتغايرة بالعطف وهذا الرابط ولد في السياق دلالات زائدة أدت إلى اتساع المعنى، إذ إن الأصل في عطف الأفعال هو المطابقة الزمنية بين المتعاطفين واتحاد الأزمنة في الفعلين، إلا أن السياق قد غاير بين المتعاطفين وهذا التغاير جعل كل فعل تتسع دلالته فتشمل الدلالة النحوية للفعل والدلالة السياقية الناتجة

عن العطف، وبهذا تجد أن التعبير بالفعل (أقام الصلاة) اشتمل على دلالة المضي من دلالته النحوية، ودل على الاستمرار الذي يتناسب مع طبيعة الصلاة فهي متجددة في أوقاتها من دلالة ما عطف عليه (يتلون) وبهذا فقد وظف النظم القيمة الزمنية في صياغة الأفعال للحصول على مساحة تتعدد فيها الدلالات وتتسع معها المعاني، وهذا من حسن الاختصار والإيجاز الذي تفرد به البيان القرآني في الدلالة على مقاصده.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ (الشورى، الآية : ٣٨)

عبر النظم هنا بـ(أقاموا الصلاة) معطوفا على (استجابوا لربهم) والاستجابة هنا معناها إطاعة أوامر الله واجتناب نواهيه، فهي جامعة مانعة لكل أبواب الخير المأمور بها وأبواب الشر المنهي عنها، وأتى النظم بـ (أقاموا الصلاة) معطوفا على (استجابوا)؛ لتكون دليلا ملموسا على هذه الاستجابة، فإذا كانت الصلاة داخلة في الاستجابة لأمر الله، فإن عطفها على الاستجابة يعد من باب عطف الخاص على العام؛ وذلك للدلالة على عظمها، والتنويه بشأنها، والتأكيد على أهميتها، ولما كان إقامة الصلاة دليلا ملموسا على استجابة تلك الطائفة لأوامر ربها فقد حرص النظم على أن يصطفى لهذا المعنى صورة تتناسب مع تلك الأهمية فبنى التركيب الدال عليها بعبارة قوية محكمة تكشف عن الكيفية المطلوبة في أداء تلك العبادة معبرا عنها بـ(أقاموا الصلاة) لما يتضمنه هذا التعبير من دلالات تتناسب مع السياق، وأول هذه الدلالات مجيء الفعل على صورة الماضي؛ ليتناغم مع المضي في (استجابوا)، ودلالة الزمن الماضي في كلا الفعلين تدل على أن الطائفة التي يتحدث عنها النظم قد تأصل فيها حب الطاعة واستقر أمرهم على ذلك حتى إنك لتجد أهلها يحققون الاستجابة متى أمروا بها دون تأخر أو تسويف، ويحافظون على صلاتهم دون كسل أو تقصير؛

لأنها استقرت في نفوسهم، أما الدلالة الثانية فهي دلالة الإخلاص في إتمام الصلاة بكل أركانها والمجيء بها على الوجه الذي أمروا به، ويفهم ذلك من التعبير بمادة الإقامة الذي يفيد التمام في أدائها والحفاظ على أركانها، وصرح بلفظ الصلاة حتى لا يتوهم غيرها أو يخيل للمخاطب أنهم يحسنون بعض أركانها أو يحققون عددا من واجباتها، فلما صرح بلفظ الصلاة دل على أنهم لا يغفلون عن أي شيء يتعلق بتلك العبادة، مع استحضارها بكل متطلباتها في ذهن السامع.

ومنه قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ سورة الحج : (٤١)

ورد التعبير بـ(أَقَامُوا الصَّلَاةَ) في سياق حديث القرآن الكريم عن الثناء على المهاجرين، فعن سيدنا عثمان –رضيَ الله عنْهُ– أنه قال: (هذا واللَّهِ ثناءٌ قبل بلاءٍ)، يُريد أنَّه تعالى أثنى على المهاجرين قبلَ أنْ يُحدثوا من الخيرِ ما أحدثوا[1]، وعليه فإن الآية من باب الإخبار عن بعض الأمور الغيبية قبل وجودها، حيث بينت الآيات ما سيقع من هذه الطائفة حال تحقق نصر الله لهم وتمكينهم في الأرض، ومن الملاحظ أن (أقاموا الصلاة) وقعت جوابا في قالب شرطي، أداته (إن) وفعل شرطه (مكناهم) فعل ماضي، وأول ما يرعى الانتباه هو مجيء (إن) في مقام الشرط المقطوع بحدوثه وهو التمكين للمؤمنين في الأرض، وهذا خلاف الأصل في استخدام (إن) حيث إنها تستخدم في غير المقطوع بحدوثه، ومجيء أداة الشرط (إن) في هذا المقام فيه مراعاة للحال التي كان عليها المجتمع حال نزول الآيات، فالمجتمع الإسلامي في هذه الفترة كانت

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، لأبي السعود العمادي (المتوفى: ٩٨٢هـ): ١٠٩/٦، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون تاريخ.

تحيط به عداوات من قوى خطيرة تتربص بالدولة المسلمة، وهذا الوضع جعل من فكرة التمكين والاستخلاف بعيدة شيء ما عن أذهان الصحابة في تلك الفترة، فأتى تعبير النظم جاريا على سنن واعتقاد أهل الزمان، كما أن هناك غاية أخرى وراء استعمال (إن) وهي أن زمن هذا التمكين بالنسبة للمتلقي مجهول فلا يعلم متى هو إلا الله، كما أن هذا التمكين يطرد على كل تمكين يحدثه الله للأمة في كل زمان ومكان فناسبه (إن)، ويأتي فعل الشرط (مكناكم) ماضيا على خلاف الأصل إذ الأصل في فعل الشرط أن يكون مضارعا ولا يخرج عن هذا الأصل إلا لنكتة بلاغية، ولعل السر هنا هو التفاؤل وإنزال السكينة والطمأنينة في قلوب المؤمنين الذين أمروا بالجهاد فأبرز غير الحاصل في معرض الحاصل تأكيدا لحصوله لأن من يعد هو الله سبحانه وتعالى وما وعد الله به عباده محقق لا محالة.

ومن الملاحظ أن السياق يؤسس هنا لقاعدة مهمة وهي أنه متى كتب الله نعمة التمكين للإنسان في الأرض وجب عليه أن يراعي هذه النعمة بأداء شكرها عن طريق الحفاظ على أصول الدين وأسس صلاح المجتمع، كما أن فيه إشارة إلى أن الأمة إذا أرادت التمكين وحرصت على استمراره بعد حدوثه وجب عليها الحفاظ على الصلاة التي هي عماد الدين بحيث تكون هذه العبادة منهم كالشيء المقطوع بحدوثه المتأكد وقوعه؛ لهذا اختار النظم تلك الصورة التي عبر بها عن إقام الصلاة، فأتى بها على صيغة الماضي الدالة على تأكيد الحدوث، وسرعة الاستجابة في إتيان الفعل، فبمجرد أن يكتب الله لهم التمكين أقاموا شعائر الدين وأعلنوها وحافظوا عليها تامة و أسند القيام إلى واو الجماعة؛ لأن التمكين في الأرض يحتاج إلى أن تنتشر تلك الفضائل في عامة المجتمع بحيث تصير سمتا مميزا له، واستعمل الفعل (أقام)؛ لأن شرط التمكين أن تكون العبادة تامة خالصة يأتي بها الإنسان محبا لها طائعا لأمر ربه بحيث يؤديها في مواقيتها بخشوع وإخلاص، وعطف عليها (وَآتَوُا الزَّكَاةَ)؛ لأنها مناط شكر نعمة المال، ولها دور

كبير في حدوث الاستقرار المطلوب بين أفراد تلك الأمة عن طريق ما توفره من تكافل، كما أن فيها بشارة بكثرة الأرزاق ووفرة المال التي يتوجب معها أداء الزكاة، ولاحظ أن العبد إذا مكن الله له في الأرض فرأيته للصلاة من المحافظين، وللزكاة من المؤدين فاعلم أن هذا دليل شكر نعمة الله عليه وأنه لم ينكث عهد الله ولم ينقض ميثاقه .

التعبير بـ(أقمت)

ورد هذا التعبير مرة واحدة في سياق حديث القرآن عن بيان كيفية أداء صلاة الخوف وذلك في قوله تعالى:وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ﴾ (سورة النساء الآية: ١٠٢)

الآية هنا تتحدث عن تشريع صلاة الخوف وبيان كيفيته، وتكشف عن جانب تربوي يتمثل في حرص النظم الحكيم على أداء الصلاة أداء تاما كاملا حتى في أشد اللحظات وأصعبها حيث ساحة المعركة، ولما كانت الانتصارات في المعارك من الأمور التي تحتاج إلى تنظيم الصفوف وتوظيف الأسلحة فقد حرص القرآن الكريم على بيان أهم سلاح يستطيع جيش الإسلام أن يستعين به في الانتصار على أعدائه ألا وهي الصلاة، فعبر بقوله:(فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ)؛ ليوجه النبي أنه يجب أن يصلي بهم صلاة يقيمها ويتم ما يجب فيها ويلزم، فأتى بالفعل (أقمت) في معنى (إرادة الوقوع) من باب المجاز المرسل لكون القيام مسببا عن إرادته، واصطفى النظم (أقمت) دون أردت؛ ليكشف عن منهج إسلامي تربوي من شأنه أن ينبه الأمة على أن الصلاة لا يمكن أن يتهاون في أدائها وتمامها حتى في أشد الأوقاف وأصعب المواقف، فيجب المحافظة عليها والعناية بها والحرص على أدائها أداء تاما في كل وقت وحين، كما أن استعمال أقمت يجعل الإرادة عند المسلم في مقام الفعل بحيث إنه إذا عزم على إقام

الصلاة حرص على تحقيق هذا العزم فلا يحول بين عزمه وبين فعله عائق ولا يشغله شاغل، وشتان بين أن يقول: إذا أردت الصلاة، وبين أقمت الصلاة، فالأولى قد تكون عزيمة بلا فعل أما الثانية فعزيمة اختلطت بنشاط وهمة عالية لم تستطع أقوى شواغل الدنيا أن تكون معطلة لها، وتأمل جمال النظم الحكيم ودقة نسج عباراته وسبك جمله وآياته حيث جعل الخطاب ابتداء موجها للنبي – ﷺ –(أقمت)، دون أن يكون الخطاب موجها لجميع الحاضرين (أقمتم)؛ لأن الآية تعالج واقعة جديدة وموقفا مستحدثا يؤسس النظم له حكما لم يكن معروف الكيفية لدى الصحابة، فكان التوجيه للنبي – ﷺ – بالكيفية المطلوبة التي يحصل بها أداء العبادة على أتم وجه وأكمل حال إذ هو المنوط به أن يتلقى الوحى من ربه ويعلمه لأصحابه الكرام، ولما كان الأمر بهذه الكيفية للرسول – ﷺ – ومن معه أتى بالجار والمجرور بين (أقمت) و(الصلاة) لينثر على خصائص التراكيب معاني واسعة ومقاصد سامية ففرق شاسع بين فأقمت الصلاة، وأقمت لهم الصلاة، فمع دلالة تقديم الجار والمجرور على الاختصاص وجعله هذا الحكم خاصا بأهل ساحات القتال، إلا أن توسطه كان له أثر جليل في تحويل دلالات السياق من خصوصية الحكم بالنبي – ﷺ – ليشمل عموم الحاضرين معه – ﷺ – .

التعبير بـ(أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ)

ورد هذا التعبير مرة واحدة في سياق حديث القرآن عن أخذ العهود والمواثيق على بنى إسرائيل وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ (سورة المائدة الآية: ١٢)

أتى هذا التعبير القرآني في بناء شرطي ليتناسب وطباع بني إسرائيل إذ عرف عنهم واشتهر نقضهم الميثاق حتى صار الغدر والخيانة فيهم طبعا وشنشنة، وجاءت جملة الشرط لتفصل الميثاق حيث أتى فعل الشرط فيها مركبا من خمسة أمور حملت تكليفات واضحة لا مجال فيها لجدل ولا روغان، وسبقت أداة الشرط باللام الموطئة للقسم والتي من شأنها أن تكشف للمخاطبين أهمية تلك الأفعال التي هي عناصر الميثاق، كما أن القسم هنا يؤذن بتمرد تلك الفئة على هذه التكليفات التي كونت القالب الشرطي، فالنظم الحكيم يخاطبهم بما وقر في نفوسهم وصدقت به جوارحهم، فخاطبهم خطاب المنكر المتردد فأتى بالقسم؛ ليكشف عما هم فيه من إنكار وشك ملأ قلوبهم وسيطر على أفعالهم تجاه وعد ربهم، وناسب ذلك التعبير بـ(إن) الدالة على الشك، إذ إن محل الشك هنا ليس تحقق الجزاء حال تحقق الشرط، وإنما الشك في قبولهم تلك التكليفات الربانية، وأول ما أتى من أفعال تكليفية هي (إقام الصلاة)، وتأمل كيف راعى النظم حال المخاطبين بدقة متناهية، فكان من بالغ الحمل على كمال العناية أن استعمل التعبير بـ(أقمتم الصلاة) حيث عبر بالفعل أقام الكاشف عن أن الشرط مبني على تمام الفعل لا مجرد الفعل، فهو يريد منهم أدائها على الوجه الأكمل بخضوع وخشوع، كما أن النظم استخدم صيغة الماضي الدال على تحقق الوقوع بعد (إن) التي تقتضي الشك والأصل أن يأتي فعل الشرط معها مضارعا، ووراء هذا النهج التركيبي دلالات عالية ولون من بديع القول، حيث دل العدول إلى الماضي على أنه لن يتم بنيان هذا الشرط ولن يكتمل بناؤه إلا إذا تحققت منهم الأفعال المطلوبة تحقق الماضي الذي وقع وانقضى وهذا لن يكون إلا إذا وقعت هذه الأفعال في قلوبهم موقع القبول والرضا فيقبلون عليها إقبال المحب المشتاق ليجدوا فيها راحتهم وتكون سبيلا للوصول إلى ربهم؛ ولهذا جمع النظم الحكيم في هذا الميثاق عددا من الأعمال التي إن أتى بها الإنسان فقد استحق الأجر العظيم الذي وعدهم الله به، وقدم الصلاة على غيرها من العبادات لأهميتها

وللعناية بأمرها وبيان منزلتها، ولما لها من أثر على غيرها من العبادات الأخرى، فإذا أتى بها الإنسان على الوجه المطلوب صلح ما بعدها واستقام، وقرن بها إيتاء الزكاة إذ إنها تأتى في المواضع التي يريد النظم من المخاطبين أن يأتوا بجوامع الأعمال وأن يعددوا فيها من أبواب الخير.

ولكن لم أخر النظم ذكر الإيمان بالرسل عن ذكر إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة مع أنه مقدم عليهما؟

ولعل السبب مناسبة حال المخاطبين حيث إن اليهود كانوا مقرين بأنه لا بد في حصول النجاة من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة إلا أنهم مع ذلك كانوا مصرين على تكذيب بعض الرسل ومعاداتهم بل وقتلهم، فذكر بعد إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة أنه لا بد من الإيمان بجميع الرسل حتى يحصل المقصود من عبادتهم، وإلا لم يكن لإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة تأثير في حصول النجاة بدون الإيمان بجميع الرسل [١]؛ لهذا فقد بدأ النظم بما هم مقرون به ولهم به قناعة؛ ليكون وسيلة إلى تحقيق غيره.

١- يراجع مفاتيح الغيب، لأبي عبد الله محمد بن عمر فخر الدين الرازي (المتوفى: ٦٠٦هـ):٣٢٤/١١ ، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤٢٠ هـ

التعبير بفعل الأمر (أقيموا الصلاة، أقم الصلاة)

من صور تعبير الذكر الحكيم عن عبادة الصلاة استعمال لفظ الصلاة مسندا للفعل الأمر من القيام على النحو الآتي:

التعبير	عدد المرات	السورة	الآية
أقم الصلاة	٢	الإسراء	٧٨
		لقمان	١٧
وأقم الصلاة	٣	هود	١١٤
		طه	١٤
		العنكبوت	٤٥
أقيموا الصلاة	١	الأنعام	٧٢
وأقيموا الصلاة	٨	البقرة	٤٣
		البقرة	٨٣
		البقرة	١١٠
		النساء	٧٧
		يونس	٨٧
		النور	٥٦
		الروم	٣١
		المزمل	٢٠
وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ	١	الأحزاب	
فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ		النساء	١٠٣
		الحج	٧٨
		المجادلة	١٣

ومن الملاحظ أن فعل الأمر المتصل به واو الجماعة ورد أكثر من الأمر المسند إلى المفرد؛ وذلك للإشارة إلى أن الأصل في عبادة الصلاة أن تقام في جماعة، وأتى الأمر بها للواحد في المواضع التي وجه فيها الحديث لشخص محدد كلقمان وهو يعلم ابنه، وحديث الله لنبيه محمد ـ ﷺ ـ ، أو لموسى ـ عليه السلام ـ ، وإن كان أمر الله لنبيه بالصلاة يدخل فيه الأمر لأمته بالتبعية لكن السياق يكون فيه مزيد عناية بخصوصية للنبي ﷺ.

وجاء الحديث عن عبادة الصلاة بفعل الأمر (أَقِيمُوا الصَّلَاةَ) موجها إما لأهل الكتاب، وإما للمؤمنين، وفي حال توجيهه لأهل الكتاب يكون المقصد منه حصول ما ليس بحاصل وقت الأمر، فيكون القصد هنا وجوب أدائها لعدم تلبسهم بها حال أمرهم بها، فقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ جاء الأمر هنا في سياق الحديث عن اليهود حيث أمروا بفعل شعائر الإسلام عقب الأمر باعتقاده والدخول فيه.

وإذا جاء الأمر بالقيام للمؤمنين فإنه يكون بقصد دوام ما هو حاصل والثبات على العبادة والازدياد منها والاستمرار على أدائها وهنا يكون الأمر مستعملا في طلب الدوام.

التعبير بفعل الأمر مسندا لواو الجماعة.

أولا التعبير به في جانب المؤمنين.

ومن يراجع الآيات التي جاء فيها الأمر بإقامة الصلاة لجماعة المؤمنين يجد أن منها ما أتى معه الأمر بإيتاء الزكاة، وبعضها لم يرد معه الأمر بإيتاء الزكاة.

ما جاء الأمر بإقامة الصلاة مقرونا بإيتاء الزكاة وقد ورد ذلك في سياقات متعددة منها:

- سياق إرشاد جماعة المؤمنين لما يجب أن يتحصنوا به من حسد أهل الكتاب، وذلك في قوله تعالى:﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾،(سورة البقرة: ١١٠)، وهذه الآية جاءت بعد قوله تعالى: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (البقرة: ١٠٩)

بين النظم الحكيم في هذا السياق أن من أماني أهل الكتاب أن يعود المؤمنون كفارا بعد إيمانهم وما هذا إلا حسد منهم، ومن هنا كان من كمال النظم القرآني أن يبين لعبادة كيف يقابلون هذا الأمر بما يرد حسد أهل الكتاب ويحفظ على المؤمنين دينهم، فأرشدهم إلى أن السبيل إلى ذلك هو الثبات على طاعة الله والتمسك بعبادته والإقبال على ما يأمرهم به والمداومة على طاعته والاستزادة من كل مواطنها، حتى يجعلوا منها حصنا قويا منيعا ضد أي مؤامرة تحاك لهم، وهذا الأمر ناسبه التعبير بفعل الأمر الدال هنا على الاستمرار في الطاعة؛ لأن المخاطبين متلبسون بالطاعة وقت الأمر بها، إلا أن أسلوب الأمر يحدث في نفوس السامعين إلهابا وتهييجا حتى يزدادوا تمسكا بما هم عليه من طاعة، كما أن فعل الأمر مع كل تلك الدلالات تجد له جرسا عاليا ونبرا قويا يوقع في النفس تنبيها على ضرورة الالتزام بهذا النهج في مقابلة تلك الشراك التي ينصبها هؤلاء للمؤمنين.

واستعمل في ذلك التعبير القرآني المكون من فعل القيام المسند إلى الصلاة دون غيره من التعبيرات الأخرى الدالة على الصلاة؛ وذلك لأن المقام هنا يعتني بالعبادة بشكلها الكامل ومضمونها التام فأتى بالفعل من القيام؛ ليبين لهم

أن ما يجب أن يتسلحوا به ليس مجرد أداء الصلاة فحسب بل أدائها أداء كاملا يتحقق معه الخشوع والمناجاة وكمال الأركان والآداب بحيث يستشعر الإنسان قربا من الله وتزداد ثقته به، فيكون أقوى نفاذا في الحق، وأشد بعدا عن المكائد، فلا تزلزله شبهات المتربصين، ولا تؤثر فيه محاولاتهم للخروج عن دين الله.

واقترن الأمر بإيتاء الزكاة مع إقام الصلاة هنا؛ لأن السياق يدعو المؤمنين للتحصن بكل ما يمكنهم أن يتحصنوا به من أفعال الخير لمواجهة الخطر الذي يحاك لهم من أعدائهم، لذلك جاء مع الصلاة والزكاة بدعوة للاستزادة من جميع أنواع الخير فقال –سبحانه وتعالى –: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾، وأسند فعل القيام (أقيموا) لضمير الجمع؛ لأن الموقف هنا من المواقف التي تحتاج إلى إيقاظ وعي جماعة المسلمين وحشد عزائمهم لينتبهوا إلى مصدر الخطر الذي يحاك لهم، ومكمن الدسيسة التي يعدها أعداؤهم فيكونوا على علم بنوايا تلك الفئة ويأخذوا حذرهم مما تضمره لهم من كيد لئيم وحسد ذميم.

ومن السياقات التي أتى فيها <u>الأمر بإقام الصلاة، سياق نهي المؤمنين عن القتال في مرحلة الدعوة المكية والانشغال بالطاعة، وذلك في قوله تعالى:</u>

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ سورة النساء:(٧٧)

هذه الآية تحكي موقف الإسلام من القتال في مرحلة الدعوة الأولى، وحال جماعة من المؤمنين تجاه هذا الموقف، حيث إن هذه الجماعة طلبوا من الرسول – ﷺ – أن يأذن لهم في قتال المشركين وهم في مكة بل منهم من هم على فعل ذلك بدليل قوله: (قيل لهم كفوا) والكف لا يكون إلا مع الفعل أو الهم به، إلا أن القرآن الكريم نزل آمرا المسلمين بالكف عن القتال وأمرهم بإقامة

الصلاة وإيتاء الزكاة، والسؤال هنا لماذا جاء النهي عن القتال في مرحلة الدعوة المكية؟ ولماذا تلاه الأمر بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة؟

من المعلوم أن الفترة المكية كان المسلمون قلة مستضعفة، وكانت الأسباب تقتضي أن الوقت غير مناسب للقتال، فاتسمت هذه المرحلة بالحسنى، والصبر على الأذى واللين وضبط النفس، وركزت على ترسيخ مبادئ الإيمان في النفوس، والاهتمام بالجانب التشريعي، وأسس بناء الدولة المسلمة، وتعليم أحكام العبادات، لهذا لم يكن من المناسب أن يقحم المسلمون أنفسهم في حروب غير متكافئة؛ لذا كان الأمر بالكف عن القتال، وصاحبه الأمر بما يضمن وجود عوامل بناء تتناسب مع هذه الفترة، فأتى الأمر بإقامة الصلاة مع أنهم كانوا لها مقيمين إلا أن النظم الحكيم يريد من المسلمين في هذه الفترة الاستزادة من تلك العبادات، التي سيجد معها المجتمع عوامل القوة والبناء والتي بها تغرس أصول العقيدة، وتقوي لدى المجتمع مبادئ التوحيد، وفي خطاب المؤمنين بأسلوب الأمر دليل على أن صلاح أمرهم هو بالنزول على ما أمرهم به الله لا ما أرادوه؛ لذا استعمل فعل الأمر بما يحمله من صفات جزم وشدة؛ لأن إقدامهم على قتال المشركين قد شغل بالهم حتى أخذ نصيبا من المطلوب منهم، فأتى الأمر لينبه هؤلاء ويثير وجدانهم إلى ما يجب أن يلتزموا به، ويحثهم ويرغبهم فيه، ويطلب منهم الاستزادة منه، وعطف إيتاء الزكاة على إقام الصلاة هنا؛ ليرشد جماعة المؤمنين إلى العبادات التي يجب أن يلتزموا بها في تلك الفترة لأهميتها ومناسبتها لحالهم، فإذا كانت الصلاة تقوي علاقة الإنسان بربه، فإن الزكاة مع الصلاة تبني مجتمعا قويما قويا ذا أسس داعمة لتلك المرحلة المهمة في الدعوة، بل إن العبادات المالية كانت ذات أهمية كبيرة في تلك المرحلة لما أحدثته من تكافل اجتماعي جعل فقراء المسلمين في مأمن من خطر الجوع الذي أنزله بهم كفار قريش ليردوهم عن دينهم.

مجيء الأمر بإقام الصلاة في سياق بيان اجتباء الله لهذه الشريعة السمحاء وتلك الأمة المباركة .

وذلك في قول الله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ سورة الحج: (٧٨)

ولعل من أبرز ما يطالعنا في ثنايا هذه الآيات اشتمالها على لوحة تشريفية للأمة المحمدية، امتزجت فيها عناصر التكليف بعناصر التشريف، فبدأت بأسلوب أمر (جاهدوا) والذي له وقع قوي على الآذان بما يحمله من دلالات الوجوب التي لا تنفك عن كل معنى يخرج الأمر إليه، ويأتي الأمر هنا مقيدا بقوله: (في الله حق جهاده)؛ ليزيل من أذهان المخاطبين محدودية الأمر ويوجهه إلى بذل الطاقة واستفراغ الجهد في الجهاد بكل أنواعه، وهذا من شأنه أن يوقع في النفس أثرًا وجدانيًّا خاصًّا تحتاج النفس معه إلى تعبئة من عتاد وزاد حتى تتمكن من تنفيذ هذا الأمر، وينتقل النظم من الأمر إلى الخبر في قوله: (هو اجتباكم) حاملا تشريفا بعد تكليف حيث يوجه الخطاب لأهل تلك الأمة معلنا لهم أن الله اصطفاهم واخْتَارَهم دون غيرهم للذب عن دينه وشريعته، وهذا التشريف يتكاتف مع ما سبقه من تكليف في بيان ضرورة التسلح بما يعين على أداء ما أمر به الله ويجعل المخاطبين أهلا لما اختيروا له، وبتآلف عجيب ونسق بديع يمنح النظم الأمة مزيد قدر فيجعلهم (شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ) وهذا من شأنه أيضا أن يزيد من التكليف الذي وضع على عاتق تلك الأمة، وهذا كله يستدعي بيان ما يجب على جماعة المؤمنين تجاه هذا التشريف من مزيد شكر، كما يستدعي بيان العدة التي يمكن للأمة التسلح بها لأداء ما كلفت به على أتم وجه وأحسن حال، وكان بيان ذلك قوله تعالى: ﴿ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ

وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ ﴾ أي إذا أردتم أداء شكر هذا التشريف وجب عليكم المداومة على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والاعتصام بالله، وإذا أردتم أداء ما كلفتم به وجب عليكم التسلح بهذه الأوامر الربانية بالوجه الوارد في هذه الآية، واستعمل النظم الحكيم فعل الأمر (أقيموا)؛ للدلالة على وجوب الاستمرار، وللحث على أدائها والمداومة عليها بأتم وجه وأحسن حال، إذ إن شكر المنعم يقتضي إخلاص العبادة له وإتيانها على وجهها الذي أمر به، والله يريد من عبادة أن يأتوا بصلاتهم تامة في أركانها وسننها وآدابها وخشوعها ويحافظوا على أوقاتها، كما أن الصلاة هي من أهم العتاد النفسي الذي يتسلح به الإنسان المؤمن بشرط أن يؤدها الإنسان أداء يستحضر فيه عظمة ربه، وهذا لا يكون إلا بأدائها أداء تاما، وهذا يتناسب مع التعبير القرآني (أقيموا الصلاة) ، وعطف على إقام الصلاة الأمر بإيتاء الزكاة، حتى يؤدي الإنسان شكر نعم الله عليه بكل وجه، لذا كان من تمام الشكر أن يؤدي الإنسان زكاة ماله، وبهذا يتحقق الشكر على الجانب البدني بإقام الصلاة، وعلى الجانب المادي بأداء الزكاة، كما أن إخراج الزكاة يعد من أهم العوامل التي يقوى بها نسيج المجتمع وبنيانه، فيكون أهلا لأداء أي تكليف يسند إليه، وبهذا يكون الأمر بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة أتى متناغما مع سياق تشريف الأمة وما أسند إليها من تكليف.

مجيء الأمر بإقام الصلاة في سياق الوعد بالاستخلاف والتمكين في الأرض، وذلك في قوله تعالى:﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (سورة النور: ٥٦) حيث أتى بعد قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (سورة النور:٥٥)، ولاحظ ما في الآية من وعد للمؤمنين بالاستخلاف في الأرض والتمكين لدينهم، وتبديل خوفهم

أمنا، ولكن كيف لهذه الأمور أن تتحقق؟ إنّ تحقق هذه الأمور يتوقف على إعداد العدة والأخذ بالأسباب؛ لذلك حرص النظم على بيان الوسائل التي يجب أن توفر للمسلمين منهج حياة كاملة، تتوفر فيها أسباب الاستخلاف، وعدة التمكين، والتي أولها ما تتصلح به علاقة الإنسان مع ربه، وهذا يتحقق بالصلاة، بشرط أن تكون خالصة لله مستكملة لكل شروطها وآدابها وأركانها، وهذا يظهر وجها من إيثار التعبير بـ (وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ) فالقرآن يريد منهم المداومة على فعلها في أوقاتها بخشوعها وكامل أركانها وسننها وآدابها، فأتى بصيغة الأمر التي يستشعر من دلالتها معنى الحث على الاستمرار والمواظبة على ما هم عليه، وأسند إلى الفعل ضمير الجمع؛ لأن الاستخلاف لن يكون إلا إذا أصبحت العبادة منهجا للأمة لا لأفراد دون غيرهم .

وأتى مع الأمر بالصلاة الأمر بإيتاء الزكاة؛ لأن من شأنها أن تقيم مجتمعا متماسكا قويا مبنيا على التكافل، وهذه الأمور لا يمكن أن يحدث التمكين للمسلمين وينتشر الأمن إلا بها، لهذا حسن الجمع بين إقام الصلاة وإيتاء الزكاة هنا في هذا السياق .

مجيء الأمر بإقام الصلاة في سياق التخفيف والتسامح عن تفريط وقع من المؤمنين في بعض ما أمروا به، وذلك في قوله تعالى: ﴿أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (سورة المجادلة: ١٣)

أتى التعبير القرآني هنا عن إقام الصلاة بصيغة الأمر من القيام المسند لواو الجماعة، واقترن بها الأمر بإيتاء الزكاة، وقدما على الأمر بطاعة الله ورسوله، ولمعرفة أسرار التعبير القرآني في هذا البناء التركيبي المعجز يجب الوقوف مع سياق تلك الآيات، وأول ما يعير الانتباه هو سبب نزول تلك الآيات وهو أن جماعة من المسلمين أكثروا المسائل على سيدنا رسول الله – صلى الله

عليه و سلم – حتى شقوا عليه فأراد الله أن يخفف عن الرسول – ﷺ – فأنزل قوله تعالى: ﴿ إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً﴾ (سورة المجادلة: من الآية: ١٢)، فلما نزل هذا الأمر كف كثير من الناس عن المسألة؛ فأنزل الله – تعالى –بعد ذلك ﴿أَأَشْفَقْتُمْ﴾ [١] تخفيفا عنهم ، وصدرت الآية بأسلوب استفهام خرج من معناه الحقيقي إلى معنى التوبيخ ليحمل اللوم والعتاب للمخاطبين بسبب عدم فعلهم ما أمروا به في قوله:﴿ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ﴾، وتأمل الأداء الصوتي الناتج عن التقاء همزتين محققتين تستشعر منهما نبرة قوية وهذا الأداء يدعم اللوم والعتاب فيستشعر المخاطب بأنه قد وقع منهم تفريط وأن هذا الترك كان بمثابة الذنب، لهذا قال سبحانه: ﴿وَتَابَ اللهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي أنه تجاوز عما صدر منكم وعفا عنكم، وحتى لا يكون هذا العفو مدعاة لانتهاك حرمات الله فقد حرص النظم على أن يرشد المجتمع الإسلامي إلى أنه ليس كل تقصير منهم معفوا عنه، وليس كل ما سيثقل عليهم من طاعات أمروا بها سيصحبها عفو مطلق، بل إنه إذا كان قد عفا عنهم هنا في تكليف، فمن الواجب عليهم أن يحافظوا على التكاليف الأخرى والتي على رأسها (إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الله ورسوله)، ولكن لماذا خص النظم الأمر بإقام الصلاة؟ ولماذا اقترن بها إيتاء الزكاة؟، ولماذا قدما على الأمر بطاعة الله؟

لعل النظم الحكيم خص الصلاة هنا؛ ليؤكد لهم أن مثل هذه العبادة إن وقع منهم تقصير فيها فإنها لن يكون هناك تسامح، أوليس هي أول ما يحاسب عنه العبد يوم القيامة؛ لهذا وجب عليهم أن يثابروا على إقامتها وأن يأتوا بها

(١) أسباب نزول القرآن للنيسابوري، (المتوفى: ٤٦٨هـ):٤١٣، تحقيق: عصام بن عبد المحسن الحميدان، دار الإصلاح – الدمام، الطبعة: الثانية، ١٤١٢ هـ – ١٩٩٢ م.

على أتم وجه وأحسن حال حتى تجبر ما وقع منهم من تفريط؛ لهذا حرص النظم على أن يستعمل فعل الأمر ذا النبرة القوية التي قصدها النظم هنا حتى تحدث لدى لمخاطب تنبيها إلى مكانة تلك العبادة وما لها من أثر كبير في سد الخلل الواقع في غيرها، وهذا يتناسب مع السياق، ومعلوم أن الموجه لهم الخطاب هم جماعة المؤمنين ومما لا شك فيه أنهم حال توجيه الأمر كانوا يصلون، إلا أن الخطاب أتى بصيغة الأمر حتى ينزل بأسماعهم منزلة الأمر الخطير الذي لا تهاون فيه، و يفيد وجوب الاستمرار، واستعمل النظم الفعل (أقيموا) حتى لا يعتقد أن الأمر موجه لتأدية العبادة فحسب بل مراد منه تأديتها أداء مشروطا بالكمال والتمام والخشوع، وأتى هنا بالأمر بإيتاء الزكاة، لبيان أنه إذا كان قد عفا عنهم في أمر الصدقة التي أمروا بها، فإنه لا تجاوز في إخراج الزكاة؛ لهذا استعمل فعل الأمر أيضا.

وتقديم (أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ) على (أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ) من عطف العام على الخاص، وذلك لمزيد عناية واهتمام بالخاص، كما أن ذكره الصلاة والزكاة دل على أن هذه العبادات مما لا يتسامح فيها، ثم أتى بالأمر بطاعة الله ورسوله، وكأنه تذكير للمخاطبين بأن يمتثلوا لأمر الله ورسوله في كل ما يوجه إليهم، وحتى لا يقع منهم تكاسل فيما أمروا به من الحفاظ على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة.

مجيء الأمر بإقام الصلاة في سياق التخفيف عن رسول الله– صلى الله عليه وسلم– والمؤمنين من قيام الليل، وذلك في قوله تعالي: ﴿... فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ (المزمل: من الآية: ٢٠)

أتى الأمر بإقام الصلاة في سياق حديث القرآن الكريم عن التخفيف الذي امتن به الله سبحانه وتعالى على الحبيب محمد – ﷺ –وأمته حيث كانوا مأمورين بقيام جزء كبير من الليل على سبيل الوجوب، فجاء الأمر الرباني بالتخفيف مراعاة لأحوال قد تطرأ على المسلمين فتحدث لهم المشقة إذا ما بقي الأمر الوجوبي بقيام وقت طويل من الليل.

ومجيء الأمر بقيام الصلاة (وأقيموا الصلاة) بعد هذا التخفيف يعد من كمال التشريع؛ لأن هذا الأمر القرآني خط حدا فاصلا بين ما يكون فيه الترخص وما لا يكون، حتى لا يقع المؤمن فريسة لسوء فهم قد تقوده إلى تقصير في أمر واجب، فإذا كان الترخص قد ورد في قيام الليل فحري بالمؤمن أن يحافظ على الصلوات المكتوبة والسنن؛ لهذا عبر النظم بفعل الأمر الذي يحمل معنى الوجوب، وإن كان الوجوب هنا ليس وجوب تشريع ولا تأسيس فالمؤمنون أمروا بذلك وهم متلبسون بفرضية الصلاة، وإنما الوجوب المقصود هنا هو وجوب الاستمرار والمحافظة والمداومة، وآثر النظم التعبير بالقيام بعد الترخص حتى يعلم المخاطبين أن الترخص في قيام الليل ليست مدعاة للتكاسل عن أداء غيرها من العبادات أو إتيانها بشكل ناقص بل يجب عليهم أن يحافظوا على الصلاة في وقتها ويؤدوها كاملة الأركان والخشوع والسنن.

ومن الملاحظ أن النظم هنا قرن إيتاء الزكاة بإقام الصلاة مع العلم أن المقام هنا يتحدث عن قيام الليل وما تضمنه من تخفيف عن رسول الله – ﷺ – وأمته، فما السر من مجيء الأمر بإيتاء الزكاة؟

لعل السر هنا هو أن النظم الحكيم أراد أن يبين للمخاطبين أنه متى وقع التخفيف في عبادة من العبادات وجب على المؤمن أن يجتهد في غيرها، فإذا خففت المشقة من قيام الليل، وجب على المسلم أن يجتهد في كل أبواب الخير الأخرى حتى يعوض ما فاته من الباب الذي دخل فيه التخفيف، ولما كان ثواب

قيام الليل كبير، حرص النظم على أن ينبه على أبواب خير متعددة كالحفاظ على الصلاة، والحرص على إيتاء الزكاة، والإكثار من الصدقات.

ومن الملاحظ هنا أن هذا الموضع اتفق مع الموضع السابق في أن كليهما قد اشتملا على جانب من جوانب الرحمة الربانية المتمثلة في التخفيف عن الأمة المحمدية، إلا أن بينهما اختلافا حيث إن الموضع السابق فيه لوم للمخاطبين على تقصيرهم في أداء بعض ما أمروا به في جانب من جوانب المعاملات المالية، أما الثاني ففيه ثناء ومدح بدليل قول الله تعالى: إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ.. وهذا يشعر بالثناء والمدح عليه – ﷺ – وفيه تلطف في الخطاب؛ وذلك لأن النبي –صلى الله عليه وسلم– لم يقصر فيما أمر به، بل ظل مواظبا على قيام الليل قدر استطاعته وفق ما أمر به من عند ربه، دون تقصير أو فتور، والاختلاف الثاني أن التخفيف في الموضع الأول تخفيف في معاملات مالية حيث نسخ أمر الصدقات، أما التخفيف في الآية الثانية فهو تخفيف في عبادة الصلاة ومع ذلك تجد أن الموضعين قد جاء فيهما الأمر بإقام الصلاة مقرونا بها إيتاء الزكاة بعد بيان أمر التخفيف، وهذا يدل على أنه متى صدر تشريع بالتخفيف في جانب من جوانب الطاعة، وجب أن يقترن به بيان بما يجب في غيرها من الجوانب الأخرى حتى لا يحمل الحكم على غير المقصود.

مجيء الأمر بإقام الصلاة مسندا لنون النسوة في سياق الحديث عن فضل أمهات المؤمنين

وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ (سورة الأحزاب، الآية:٣٣)

ورد الأمر بإقام الصلاة في سياق حديث القرآن عن منزلة زوجات النبي – ﷺ – حيث يرشدهن النظم الحكيم إلى ما يجب أن يكون منهن من أفعال تتناسب مع هذا الفضل، فجمع لهن من الأعمال ما يجعلهن أهلا لهذه

المنزلة التي اختارها الله لهن، وإن كانت زوجات النبي متلبسات بعبادة الصلاة إلا أن النظم الحكيم آثر التعبير عن عبادة بصورة اشتملت على فعل أمر؛ وذلك لقصد وجوب المداومة على تلك العبادة، والحث على سرعة الامتثال للخطاب الموجه لهن، وسرعة أداء تلك العبادة في أوقاتها؛ لأن من الدلالات التي ينثرها فعل الأمر على السياق دلالة الفور خصوصا حينما يستعمل في التكاليف الشرعية المقيدة بوقت يفوت أداؤها بفوات وقتها، كما أن فعل الأمر هنا يلمح منه ملمحا تربويا موجها للأمة عامة وهو أن زوجات النبي على الرغم من بلوغهن مبلغا عظيما ومنزلة عالية فإن ذلك لم يكن مانعا من توجيه التكليف لهن، والتنبيه عليهن بنبر قوي؛ ليحافظن على تلك العبادات وهذه التكاليف، وعليه فإن الأولى على عامة الأمة الذين لم يبلغوا منزلة أمهات المؤمنين أن يكونوا على حرص دائم على الحفاظ على هذه المأمورات، بل إنك لتلحظ أن النظم وظف الدلالة المعجمية للفعل (قم)؛ ليدل على أن الأمر الموجه لهن ليس المراد منه مجرد أداء العبادة فحسب، بل دل أيضا على أنهن مأمورات بالمداومة على إقامة الصلاة في أوقاتها بتمامها وخشوعها، ومعلوم أن أمهات المؤمنين كن للصلاة حافظات؛ لأنهن في كنف النبي– ﷺ – يؤدين الطاعات تحت ناظريه، وعليه تستشعر أن النظم يريد من المسلمين ألا يركنوا إلى منزلة أو فضل بل يريد منهم مزيدا من الإخلاص ومزيدا من المداومة حتى يرتقي الإنسان في مراتب العبودية.

ولما كان المقصد هنا هو إرشاد أمهات المؤمنين إلى الطريق الموصل إلى المنزلة المنشودة لهن فقد جمع الله بين العبادات البدنية في (أقمن الصلاة)، والعبادات المالية في و(وآتين الزكاة)، فمن حقق هاتين العبادتين فقد حقق من الدين أعظمه ومن التكاليف أكثرها، كما أن الإنسان إذا حافظ على هاتين العبادتين وداوم على فعلهما واعتنى بهما حق العناية وأتى بهما على الوجه الذي يرضى الله سبحانه وتعالى كانتا دافعا لطاعات أخرى، لهذا أتى بعدهما بقوله:

(وأطعن الله ورسوله) والأمر بالطاعة بعد الأمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة من باب عطف العام على الخاص؛ وذلك للدلالة على مكانة هذه العبادات التي خصت بالذكر، ثم أعاد ذكرها مجملة في الأمر بطاعة الله، كما أن فيه بيان على أن الإنسان الذي يريد الوصول إلى منزلة عالية ومرتبة خاصة يجب ألا يقتصر على نوع معين من الطاعات بل يجب عليه أن يكون حريصا على الإتيان بكل ما أمر الله به .

ويلمح الإمام البقاعي ملمحا آخر في مجيء الأمر بالزكاة مع الأمر بإقامة الصلاة وهو أن هذه الآيات نزلت في وقت كان فيه القوت قليلا والعيش ضيقا وهذا مما لا تجب معه الزكاة فكان الأمر بإيتاء الزكاة فيه بشارة بالفتوح وتوسيع الدنيا عليهن [١]، ويلمح الشيخ الشعراوي أيضا ملمحا تربويا في مجيء الأمر بإيتاء الزكاة هنا وهو الإقرار بأن للمرأة في الإسلام ذمتها المالية الخاصة المستقلة عن ذمة غيرها، بدليل أن الله كلفها هنا بإيتاء الزكاة وهذا لا يكون إلا إذا كان للمرأة ذمة مالية مستقلة[٢].

<u>ما أتى فيه الأمر بإقام الصلاة غير مقرون بإيتاء الزكاة.</u>

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ (سورة النساء: ١٠٣).

(١) يراجع نظم الدرر: ١٥/ ٣٤٥.

(٢) يراجع تفسير الشعراوي، للشيخ محمد متولي الشعراوي (المتوفى: ١٤١٨هـ) : ١٢٠٢٣/١٩، مطابع أخبار اليوم، ١٩٩٧م

وهذه الآية واقعة في سياق قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ سورة النساء: ١٠١

حيث أباح الله للمؤمنين المجاهدين أن يقصروا في الصلاة بشرط أن يكون هناك خوف من أذى قد ينزل بهم من قبل أعدائهم، ويبطل عليهم صلاتهم، فطالما أن الخوف قائم والتربص موجود فإباحة القصر مشروعة؛ لهذا لا تجد النظم الحكيم هنا يقول: (أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ إقامة الصَّلَاةِ) حيث لم يأت للإقامة ذكر؛ لأن الإقامة تقتضي التمام والمقام هنا مقام خوف أوجد رخصة القصر، كما أن الخوف قد يسلب المصلي شيئا من خشوعه بسبب قرب الأعداء وتربصهم بهم، وهذا يتنافى مع معنى التمام والكمال المفهوم من الإقامة .

ثم يأتي قوله تعالى: ﴿فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾؛ ليبين أنه متى تحقق الأمن وسكنت القلوب وزال عنها الخوف والقلق ووضعت الحرب أوزارها، وجب على المؤمن أن يتم صلاته، وتأمل كيف أتى هذا الحكم القرآني في قالب لغوي محكم البناء حيث وضع الحكم في قالب شرطي أداته إذا التي تدل على تحقق وقوع الشرط، أي أن حالة الخوف هذه لن تدوم، وسرعان ما سيعود الأمن لتلك الطائفة المؤمنة، وأتى بفعل الشرط في صورة الماضي مع أن الأصل في استعمال (إذا) أن تكون لزمان من أزمنة المستقبل "[1]، إلا أنه استعمل الماضي لتشبيه الفعل المؤكد حصوله في المستقبل بما وقع في الماضي، وهذا الأمر يتناغم مع دلالة القطع التي أوجدتها أداة الشرط (إذا) فتناغما معا في التأكيد على أنهم عما قريب سيكونون في أمان، فجعل ما سيقع في المستقبل في حكم ما وقع في الماضي، وهذا من شأنه أن يلقي السكينة في قلوب المؤمنين، ويأتي

١- المقتضب : ٢/٥٥ .

جواب الشرط (فَأَقِيمُوا) على صورة فعل الأمر الدال على الوجوب؛ ليدل على أنه متى تحقق الأمن وجب عليهم العدول في أداء صلاتهم من القصر إلى تمام أدائها بتعديل أركانِها ومراعاةِ شرائطِها، فاستخدم فعل الأمر الدال على طلب الفعل على سبيل الوجوب، والحامل في طياته الزمن الحاضر والمستقبل؛ ليحدث لدى المتلقين العناية بحدوث الفعل وتوكيده فيستشعروا أن إقامة الصلاة بتمامها أصبح أمرا واجبا لا يمكن العدول عنه فلا يقع منهم تراخ ولا كسل في تمامها، ومجيء جواب الشرط على صيغة الأمر أوجب اقترانه بـ"الفاء" التي تدل على السرعة والتعقيب مما يدل على أن التحول للتمام أصبح على السرعة لا على التراخي متى زال الخوف وحل الأمن، وهذا المعنى يتناغم مع التعبير بالفعل (أقيموا) الدال بمادته على معنى التمام والكمال، وأتى معه بكلمة (الصلاة)؛ ليكون الحكم الفقهي واضح لا لبس فيه فيقع في الأفهام موقعه المراد دون خلاف، ومن الواضح أن النظم لم يعطف الزكاة على الصلاة هنا لأن السياق يتحدث عن حكم فقه خاص بالصلاة وأحكامها وطرق أدائها .

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ (سورة الأنعام: ٧٢)، عدل النظم الحكيم عن الظاهر في هذا السياق إذ حق ظاهره أن يعبر عن إقامة الصلاة بأسلوب الخبر لأنه معطوف على خبر في قوله تعالى: ﴿ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ " وهذا العدول يحمل بين طياته دلالات تشير إلى تفخيم أمر الصلاة وعظمة شأنها، لأن العدول في حد ذاته يجعل النفس تتوقف عند المخالفة وتتفكر في أسبابها وتتأمل موقعها، بخلاف لو أتى الكلام على ما هو متوقع ذكره فإنه يمر على الأذهان مرورا عاديا فلا يجلب الإيقاظ الذي يحدثه العدول، لهذا فقد جاء البناء التركيبي للصورة التي اصطفاها النظم للتعبير عن عبادة الصلاة محكم الرصف؛ حيث استعمل الدلالة الزمنية لفعل الأمر في قوله: (أقيموا) للحث على الاستمرار والمحافظة على تلك

العبادة، وإثارة النفوس وإلهابها للاستزادة من هذا الفعل والجد فيه، واستكمالا لروعة البناء فقد وظف النظم المستوى الدلالي للفعل الوارد في البناء التركيبي للتعبير القرآني (قم)؛ للدلالة على أن مراد النظم هو الحث على إيجاد العبادة على وجه الكمال في الأداء بما يستدعيه استحضار القلب والخشوع التام، والإخلاص في كل أجزائها، والتعبير بلفظ الصلاة يدل على أن المقصد هنا موجه للعبادة كلها لا لخصوصية فيها كركوع أو سجود، كما أن السياق اشتمل على عدول آخر حيث خالف في التعبير بين "مطلب الإسلام لله والإيمان به، ومطلب إقامة الصلاة وتقوى الله، إذ جاء المطلب الأول بصيغة المتكلم، على حين جاء المطلب الثاني في صيغة المخاطب – ولعل الحكمة في هذا العدول هي أن الإيمان بالله مطلوب من الإنسان أولا أن يبحث عنه بنفسه، وأن يهتدى إليه بعقله، فإذا هو أصبح في المؤمنين، كان مهيأ لأن يتلقى شريعة هذا الدين الذي آمن به، وأن يتعرف على ما ينبغي أن يؤديه لله الذي عرفه، وأسلم له من عبادات، وطاعات، فكانت الصلاة بعينها، هي المطلوب الأول من المؤمن أن يؤديه لله، ويتصل به عن طريقه"[١].

وقيل إن الحكمة من العدول هي" أن الكافر ما دام باقيا على كفره، كان كالغائب فلا جرم بأن يخاطب بخطاب الغائبين، فيقال له: (وأمرنا لنسلم لرب العالمين)، وإذا أسلم وآمن ودخل في الإيمان صار كالقريب الحاضر، فلا جرم يخاطب بخطاب الحاضرين، ويقال له: (وأن أقيموا الصلاة ...) فالمقصود من ذكر هذين النوعين من الخطاب التنبيه على الفرق بين حالتي الكفر والإيمان، وتقريره أن الكافر بعيد غائب والمؤمن قريب حاضر". [٢]

١ – التفسير القرآني للقرآن: عبد الكريم يونس الخطيب (المتوفى: بعد ١٣٩٠هـ): ٤/ ٢١٧، دار الفكر العربي ، القاهرة، بدون تاريخ.

٢ – مفاتيح الغيب:٢٦/١٣ ، ٢٧.

ولكن لماذا آثر النظم إسناد فعل القيام إلى ضمير الجماعة؟

لما كان السياق هنا قد أتي للرد على عبدة الأصنام الذين يحاولون جاهدين ارتداد بعض قرابتهم أو من لهم به صلة إلى ما كانوا عليه في الجاهلية، جاء النظم الحكيم بحملة شديدة ضد الشرك والمشركين فأتى السياق موجها جماعة المؤمنين إلى ما يجب أن يكون منهم تجاه تلك الدعوات، فطلب منهم أن يتبنوا موقفا موحدا يصدر عن جماعتهم حتى يحدث يأسا لأهل الكفر فلا يجدون إلى حيلتهم طريقا ولا سبيلا، فأتى بالرد في صيغة الجماعة.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (سورة الروم، الآية : ٣١)

في هذه الآية الكريمة جاء الحديث عن إقامة الصلاة بصيغة الأمر المسند لواو الجماعة، وقد وقعت معطوفة على (اتقوه)، فما سر مجيئها بلفظ القيام؟ ولماذا أتى الفعل بصيغة الأمر المسند لواو الجماعة؟ ولماذا لم يقترن بها الزكاة؟ ولماذا أتى الأمر بالتقوى مقدما على الأمر بإقام الصلاة؟

ولمعرفة أسرار النظم الحكيم لهذا التعبير القرآني يجب إمعان النظر في السياق، وبالرجوع إلى سياق الآيات تجد أن هذه التعبير القرآني ورد في سياق حديث مطول للقرآن الكريم عن وحدانية الله ودلائل قدرته ونفي الشرك، وقد ساق النظم الأدلة الواضحة والآيات البينة المدعومة بدلائل من آيات الله في كونه والحجج والبراهين خلال هذا السياق، مما يدل على أن هذا السياق إنما أتى ليعالج قضية كبرى وأمر جلل؛ لهذا تلاه ما يجب أن يكون عليه حال الإنسان المؤمن تجاه تلك القضية و بيان الطريق الذي يحب على الإنسان أن يلزمه ويتمسك به والكشف عن الأعمال التي تعين الإنسان على السير في هذا الطريق، وابتدأ ذلك بتوجيه الحديث للنبي – ﷺ – في قوله تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾ (سورة الروم: ٣٠)، والخطاب هنا وإن كان موجها إلى

النبي – ﷺ – إلا أن المؤمنين يدخلون معه ضمنا، لكن القرآن الكريم آثر توجيه الحديث ابتداء إلى النبي محمد – ﷺ – حتى يكون قدوة لأتباعه يحتذون بفعله ويسيرون على هديه؛ لهذا عدل عن خطاب النبي – ﷺ – إلى خطاب الأمة فقال: {منيبين...}؛ فالعدول إلى خطاب الأمة بعد خطاب نبيها فيه مزيد حث على أن يأتوا بما أمروا به، ولما كان السياق قد اشتمل على تحذير شديد من الشرك وأهله، جاء الهدي القرآني بما يجب أن يتسلح به المسلم لينجو من شَرَك الكفر، فشيد حصنا محكما ذا أعمدة قوية بدأها بـ(منيبين) أي أن أول ما يجب أن يتحصن به المسلم هو ملازمة الطاعة وتكرار التوبة مرة بعد مرة والرجوع بلا ملل، فالإنسان قد ينيب لربه ثم ينتكس على عقبه كما بين ذلك سبحانه في قوله: ﴿ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ (سورة الروم : ٣٣)، فكان لزاما أن يرشد النظم الحكيم المؤمنين إلى إكمال حصنهم وتشيد بنائهم، فأتى بما يحصنهم من الانتكاس والرجوع إلى الضلال، فقال: ﴿وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ والأمر هنا مستعمل في طلب المداومة والاستمرار؛ لأنه موجه إلى من تلبسوا به إلا أنه يحثهم بصيغة الأمر على مزيد من الملازمة حتى يشيدوا حصونهم ضد عوامل الكفر تحصينا لا يصحبه خوف من الرجوع إلى الوراء والسقوط في هاوية الظلام، فقال: (واتقوه) أي في إقبالكم على ربكم يجب عليكم أن تستحضروا عظمته، وأن يملأ قلوبكم خشيته والخوف من عقابه، فالإنسان إذا استحضر تلك الخشية في قلبه كانت له بمثابة الرادع من الانقياد لهوى النفس والتلبس بمطاوي التيه، لذلك قدمها هنا على الأمر بإقامة الصلاة، بل إن تقديم الأمر بها يعد من باب التمهيد إلى الأمر بإقام الصلاة؛ فالإنسان إذا استشعر تقوى الله في قلبه دفعه ذلك نحو باب الطاعات والاستزادة من العبادات، فأتى الأمر (وأقيموا الصلاة)؛ ليصف للمخاطبين الدعائم التي يمكنهم التحصن بها، وأول هذه

الدعائم هي (إقامة الصلاة)، لأن الحفاظ عليها يعد من دلالات الإيمان أما تركها فهو باب من أبواب الولوج إلى الشرك مصداقا لقول النبي – ﷺ – " إِنَّ بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ تَرْكُ الصَّلَاةِ "[١]، ولما كان رحى المعنى يدور حول قضية الشرك؛ ناسبه أن يأتي بالحث على المواظبة على تلك العبادة، ولم يقرن بها إيتاء الزكاة لأنها مع أهميتها إلا أنها لا تعد من الحصون التي يمكن لكل مسلم أن يشيدها لنفسه ليحمي نفسه بها من أغطية الغفلة وغواة الشرك، فإذا كانت الصلاة حصن للغنى والفقير لا تسقط في حل ولا ترحال وهي سلاح دائم وحصن مشيد للجميع فإن الزكاة ليست كذلك؛ لهذا فقد آثر القرآن الكريم التعبير هنا بصيغة الأمر الدالة على الحث على الاستمرار والمداومة وطلب المزيد، ثم تراه يأتي بالفعل (أقيموا) الدال على أن المطلوب هو أدائها على الوجه الأكمل التام الذي لا يعتريه نقص ولا رياء والذي به يتم التحصن من كل شيطان رجيم، ويأتي الأمر موجها لجميع المؤمنين بدلالة (واو) الجماعة؛ لأن الشرك قضية عامة وخطرها يداهم كل الأمة فناسب الخطاب معها أن يوجه النصح والإرشاد لجماعة المؤمنين، ثم تأتي خاتمة الآية ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾؛ لتكمل البناء وتؤكد المعنى، فإن قوله: (ولا تكونوا من المشركين) إخراج العبد عن الشرك الخفي[٢]، وهو الرياء أي أنه يجب على من تتأتى منهم تلك الأعمال (الإنابة، والتقوى، وإقام الصلاة) أن يخلصوا النية لله ولا يشركوا مع الله في أعمالهم أحدا، وبهذا يكتمل الحصن الذي شيده النظم الحكيم بأسلوب محكم بليغ ليكون السبيل الذي يحمى الإنسان المسلم نفسه من مهاوي الشرك.

---

(١) صحيح الإمام مسلم ، للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١ هـ):٦١/١ كتاب الإيمان، دار الجيل ببيروت ، وطبعتها مصورة من الطبعة التركية المطبوعة سنة ١٣٣٤ هـ.

(٢) مفاتيح الغيب: ٩٩/٢٥ .

ثانيا: مجيء التعبير بـ(وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ) في جانب غير المؤمنين.

أتى التعبير بـ(وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ) مع غير المسلمين وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ (سورة البقرة: الاية:٤٣)

فالمأمور هنا يختلف عن المأمور في المواضع السابقة حيث إن المخاطبين هناك كانوا مؤمنين متلبسين بتلك العبادة فكان الأمر في جانبهم للحث على الاستمرار والمواظبة، أما هنا فغير متلبسين بها، فأتى الأمر للدلالة على الوجوب والحث على الشروع في أدائها، ومن الملاحظ أن المخاطبين هنا هم اليهود وقد بدأ السياق بتذكيرهم بنعم الله عليهم، ثم أمرهم بالتلبس بشعائر الإسلام التي هي أمارة على صدق إيمانهم، ومن المعلوم عن هؤلاء المماطلة في الاستجابة لأوامر الله؛ لأنهم مجبولون على المراوغة ومشهور عنهم أداء المأمورات الشرعية على غير وجهها، وإلباس الحق بالباطل عن عمد، وقد بين النظم الحكيم مسلكهم في الغواية والإغواء قبل أن يوجه لهم الأمر بإقام الصلاة وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (سورة البقرة: ٤٢)؛ لذا لما أمرهم النظم بإقام شعائر الإسلام اختار من صور التعبير ما يلائم حالهم فأتى التعبير القرآني معهم محكما حتى لا يجدوا من عدم الوقوف عند مراده سبيلا، ومن ذلك مجيء التعبير في صورة الأمر (أقيموا)؛ للدلالة على الإلزام والوجوب، وأسند الفعل إلى واو الجماعة؛ ليدل على أن الأمر موجه إليهم جميعا فلا فرق في هذا بين أحد منهم فكلهم مأمورون بعد إسلامهم بتلك العبادة، وذلك باعتبار أنهم أمة واحدة متضامنة الأجيال، متحدة الجبلة صفاتهم ومواقفهم واحدة عبر كل العصور.

كما بين لهم ابتداء أن المطلوب منهم ليس مجرد أدائها بل هم مطالبون بأن يأتوا بالصلاة على الوجه الأكمل لها الذي لا يعتريه نقص ولا تفريط، فإذا اعتاد أكثرهم قبل الإسلام أن يؤدي صلاته على غير مرادها فكانت صلاتهم

لا تتجاوز جوارحهم، فما كانوا يقيمون لها خشوعا ولا إخلاصا؛ فأتى إليهم الأمر هنا بالكيفية الصحيحة والوجه المطلوب وناسب ذلك التعبير بـ(القيام) لا مجرد الأداء، وصرح بكلمة (الصلاة) دون ما عداها حتى لا يقع في الأفهام غيرها أو يجدون لأنفسهم حجة يماطلون بها تنفيذ أمر ربهم ولو كانت حجة باطلة.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ﴾ (سورة البقرة : ٨٣)

أتى الأمر بإقام الصلاة هنا واقعا ضمن بنود الميثاق الذي أخذه الله على بني إسرائيل، وقد اشتمل الميثاق على عدد من البنود التي تنظيم العلاقة بينهم وبين خالقهم، وقد راعت الآية حال بني إسرائيل في ترتيب بنود هذا الميثاق فبدأت بالتوحيد وهو أعلى الحقوق وأجلها، وهو الأصل الأعظم الذي عليه تبنى الأعمال وتقام، ثم عددت بعضا من حقوق الناس مبتدئة بحقوق الأقرب فالأقرب حتى شملت كافة الناس، ثم انتقلت إلى الحديث عن العبادات، ولكن لماذا أخر الأمر بإقام الصلاة في بنود هذا الميثاق؟

لعل تأخير ذكر الصلاة عن التوحيد معلوم سره إذ إنه لا يصلح أي عمل مع الإشراك بالله، أما عن تأخير الحديث عن الصلاة هنا عن معاملات الناس فلعل مرجع ذلك إلى طبيعة بني إسرائيل الذين وجدوا في تأدية العبادات الجسدية سهولة ويسرا عن إصلاح معاملتهم بالناس، إذ إنهم قد جبلوا على الجحود المطلق وتقطيع الأرحام وأكل حقوق الناس والسطو على الضعفاء وهتك الصلات حتى قتل بعضهم بعضا وخربوا البيوت وأنزلوا النكاية ببعضهم، ثم إنك تجدهم بعد ذلك يلبسون ثوب النُساك العابدين، لذا قدم الميثاق الحديث عن تلك العلاقات التي بتروها حتى انتشرت في حياتهم القطيعة وضياع الحقوق انتشار الهشيم في النيران.

ولما تحدث النظم الحكيم عن الصلاة مع بني إسرائيل استعمل فعل الأمر الدال على الوجوب والإلزام والمناسب لحالهم في الإعراض والامتناع عن الإتيان بما فرض الله عليهم، واستخدم مع فعل الأمر من الألفاظ ما يدل على المراد دون حاجة إلى تأويل فأتى بالإقامة الدالة على أن المأمور به لا بد أن يأتي على الوجه الأكمل؛ لأنهم أهل جدل وعناد يحرفون الكلم عن مواضعه ويتمردون على الطاعة ويأتون بالأمر على غير وجهه، فقد جبلوا على الالتواء والانحراف والنكول عن العهد والميثاق؛ لذلك عبر هنا عن العبادة بمسماها الأشهر الدال على كمالها دون أن يعبر بجزء منها أو متعلق من متعلقاتها ليغلق الباب أمامهم في التحايل على تنفيذ أمر ربهم على الوجه المراد.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (سورة: يونس: ٨٧) .

في الآية أمر من الله لموسى، وهارون- عليهما السلام – أن يتخذا بيوتا لقومهما، و اختلف في المقصود باتخاذ البيوت هنا فقيل: إن المقصود هو اتخاذ بيوت للعبادة؛ لأن موسى عليه السلام ومن آمن معه كانوا في أول أمرهم مأمورين بأن يصلوا في بيوتهم خفية حتى لا يظهر الكفار عليهم فيؤذوهم ويفتنوهم عن دينهم(١)، وكما مر فإن الصلاة التي يؤديها الإنسان تحت وطأة الخوف يقل فيها الخشوع، فلما أذن الله لهم ببناء المساجد أمرهم أن يؤدوا صلاتهم أداء تاما، وأتى بفعل الأمر (أقيموا) حتى يحدث بجرسه تنبيها على ما يجب أن يكون منهم في تلك المرحلة الجديدة، فمادام أنهم أمروا ببناء بيوت العبادة فهذا دليل على تحقق الأمن الذي يكفل للإنسان أن يؤدي صلاته على أتم وجه وأحسن حال.

(١) مفاتيح الغيب: ٢٩١/١٧.

ويرى الإمام الطاهر ابن عاشور أن المقصود بالبيوت في الآية خيام أو أخصاص أمر الله بني إسرائيل باتخاذها لعلمه أنهم مفارقون مصر قريبا فأمرهم باتخاذها تهيئة للارتحال وهي غير الديار التي كانوا يسكنونها(١)، وعلى هذا يكون قد وجه لهم الأمر بإقامة الصلاة وهم متلبسون بها، فيخرج الأمر هنا إلى طلب المداومة والاستمرار؛ ليوجههم إلى الاستعانة بعبادة الصلاة للتغلب على هجر الأوطان ومقابلة المحن، وفيه أيضا تحذير لمن يتهاونون في أمر الصلاة بحجة انشغالهم بإعداد العدة للخروج من مصر أو أثناء رحلتهم وخروجهم، فأتى الخطاب لهم في صورة الأمر ليدحض أي حجة لهم يقدمونها للتقصير في صلاتهم؛ لهذا فإن النظم الحكيم سد عليهم الذرائع فاستعمل صيغة الأمر ذات النبرة الشديدة والحدة القوية، وصاغ من مادة القيام هذا الفعل؛ ليدل على أن الواجب عليهم المحافظة التامة على الصلاة دون تقصير أو تفريط، ولم يقرن مع إقام الصلاة إيتاء الزكاة نظرا لأن القوم سيخرجون ويتركون بيوتهم وأوطانهم وسيقل مع هذا الأمر مالهم وهذه الحالة لا تتناسب معها الأمر بإخراج الزكاة.

<u>إسناد فعل الأمر لضمير المفرد.</u>

جاء الأمر بالفعل (أقم) موجها للنبي – ﷺ –، ولسيدنا موسى –عليه السلام–، كما أتى على لسان لقمان وهو يعلم ابنه.

<u>ما أتي فيه الأمر موجها للنبي - ﷺ -</u>

ورد الأمر للنبي ﷺ بـ(أقم الصلاة) في ثلاثة مواضع كلها تقع في سياق إرشاد النبي - صلى الله عليه وسلم - بم يجب أن يفعله تجاه ما يجده من عنت وعناد عند تبليغه رسالة ربه، فيأتي الأمر من الله – تعالى – بما يجب أن يكون

(١) التحرير والتنوير: ٢٦٥/١١.

عليه النبي ـ ﷺ ـ في مثل هذه المواقف ويحمل الأمر بالتبعية على أمته فهم مأمورون بما يأمر به ما لم يرد شيء يجعل ذلك الأمر من خصوصياته ـ ﷺ ـ، ومما أتى الأمر فيه موجها للنبي ـ ﷺ ـ قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ ﴾ (سورة هود، الآية: ١١٤) وهذه الآية جاءت في سياق قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَـؤُلَاءِ ...﴾ (سورة هود، الآية: ١٠٩) وهو سياق تسلية للنبي – ﷺ – وتثبيتا له على ما يلقاه من قومه من التصلب في الشرك، وأتى بعد التسلية بأوامر ثلاثة موجهة للنبي ـ ﷺ ـ؛ ليمر بها من تلك المحنة التي نزلت به و تكون له عونا على ما أهمه، وهذه الأوامر وإن كانت موجهة إلى شخص النبي ـ ﷺ ـ إلا أن أمته مأمورة بها أيضا، فالخطاب له لفظًا وللعموم حكمًا، بدليل أن الآية التي بدأت بـ(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ) اشتملت على قرينة تدل على العموم وهي أنها ذيلت بصيغة الجمع (ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ) والآية التي بعدها بدأت أيضا بخطاب النبي(وَاصْبِرْ) وذيلت أيضا بصيغة الجمع :(فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ) وهذا العدول من خطاب المفرد إلى أسلوب الجمع يدل على أن الأمر مخاطب به الأمة كلها في شخص النبي ـ ﷺ ـ، إلا أن القرآن الكريم هنا أتى بالأمر للنبي ابتداء؛ لأن الآيات أتت في سياق تسلية النبي – ﷺ –، كما أنه أراد أن يكون النبي قدوة للأمة بالمداومة على تلك الأفعال والمواظبة عليها، فهي أمور صعاب تحتاج إلى عزيمة قوية فإذا فعلها النبي – ﷺ – اقتدى به أتباعه فيكون حث الأمه على فعلها أشد وأقوى؛ لأنه أتى من طريقين الأول أنهم مأمورون بها مع النبي ـ ﷺ ـ ، الطريق الثاني: أنهم يفعلونها من باب اتباع هدي النبي ـ ﷺ ـ في أفعاله.

ولقد جمع القرآن للنبي – ﷺ – أمورا عظاما؛ لتكون له عونا في أداء دعوته وما يلاقيه من عنت قومه؛ لذا عبر النظم الحكيم هنا بـ(أقم الصلاة)

وتأمل ما في هذا التعبير من اقتدار على دقة بيان المعنى المراد، وما لمفرداته من دور في تشييد بناء متكامل يشد بعضه بعضا، حيث جمع بين فعل الأمر الدال على التنبيه بأهمية هذا الفعل مما يجعل السامع حريصا على الإتيان به على الوجه المطلوب، والمواظبة على فعله، وفي التعبير بالأمر ما يدل على المسارعة في الفعل بحيث يقر في قلب المخاطب، ويترسخ في ذهنه أن الملاذ الأول له عند وقوع الملمات أو نزول الشدائد هو الصلاة، وكأن النظم يوظف دلالة الأمر ليخرج المخاطب من دائرة الحيرة والتفكير المشوش الناتج عن صعوبة اتخاذ القرار نتيجة ما ألم به من عوارض الحياة، إلى دائرة التكليف والوجوب الصادر من العليم الخبير، وفي هذا إرشاد إلى للنبي وأمته أنه متى نزل بهم ما أهمهم هرولوا إلى لقاء ربهم، لهذا « كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ، صَلَّى»[1]، وفي التعبير بـ(أقم) الدالة على أن إقامة الصلاة إنما تكون عونا لصاحبها إذا أتى بها على الوجه التام لها الذي يكون القلب فيه حاضرا مع خشوع الجوارح وتمام الأفعال، ثم صرح بلفظ (الصلاة) دون أن يخص جزءا معينا منها؛ ليستحضر العبادة بشكلها التام في ذهن المخاطب دون تخصيص لجزء منها بالذكر؛ لأن المقصد الأعظم هنا هو العبادة بشكلها التام، وبهذا يكون النظم الحكيم قد جمع في هذا التعبير ما يجب أن يتسلح به الإنسان في مواجهة مثل هذه الأمور العظام التي يتعرض لها الإنسان فيحتاج إلى ما يستعين به من أفعال تعينه على أن يواجه هذه الصعاب، كما بين للرسول الكريم كيف يواجه ما ألم به من قومه، وبهذا فإن هذه الصورة التي عبر بها النظم الحكيم عن عبادة الصلاة في هذا السياق تحمل فيضا من اللطائف والدلالات النفسية التي تحمل

١ – سنن أبي داود، لأبي داود سليمان بن الأشعث (المتوفى: ٢٧٥هـ):٢/٣٥، حديث رقم: (١٣١٩) تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت، بدون تاريخ.

للمتلقي نوعا من العلاج النفسي الذي يحتاجه الإنسان في كثير من مواقف حياته ومواجهة كثير من تحدياتها، حيث كشفت أن الصلاة إذا أتى بها المؤمن على الوجه المطلوب فإنها تمنحه قدرا من الطاقة الروحية تؤدي إلى اطمئنان القلب وهدوء النفس وزوال القلق وصفاء الذهن، مما يجعل الإنسان المؤمن قادرا على التأمل والتركيز مما يمكنه من معالجة التوتر العصبي ومواجهة تحديات الحياة بالشكل الأمثل.

ومثل ذلك في قوله تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ (سورة الإسراء، الآية:٤٨)، فهذه الآية الكريمة وقعت في سياق قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا (٧٣) وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (٧٤) إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا (٧٥) وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ﴾ (سورة الإسراء الآيات من ٧٣: ٧٦) فهذا السياق أيضا فيه تسلية للنبي ـ ﷺ ـ وبيان لما يجب أن يكون منه تجاه ما أراده قومه له من أذى وكيد، فأرشده ربه بعدم الالتفات إليهم وأمره بالاشتغال بعبادته والمداومة على أداء الصلوات فإن ذلك عون له على دفع مكرهم وشرهم، ولما كان مكرهم ذا وقع شديد على النبي ـ ﷺ ـ فقد عبر عنه القرآن بألفاظ موحية بهذه الشدة وهي (يَفْتِنُونَكَ، يسْتَفِزُّونَكَ) ولشدة هذا الوقع كان لزاما أن يتسلح النبي ـ ﷺ ـ لهذا الكيد بعتاد قوي هذا العتاد تمثل في عدد من الأوامر التي ساقها القرآن للنبي ـ ﷺ ـ (أقم الصلاة، فتهجد، وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي، وقل جاء الحق)؛ لتكون حصنا منيعا للنبي – ﷺ – وقوة رادعة لما دبره له قومه واعتزموا أن ينزلوه به، وكان في مقدمة هذه الأوامر إقام الصلاة، وجاء بها هنا في صيغة الأمر حتى ينبه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى ضرورة المداومة على فعلها والمواظبة على الإتيان بها خصوصا في مثل هذه المواجهات العاتية واستخدم التعبير

(أقم الصلاة)؛ ليدل على أن الصلاة لا تكون عونا في الملمات و ناصرا على الأعداء، ودافعا للمضرات إلا إذا تحققت بجميع شرائطها وأركانها ومبادئها وغاياتها، وأن الدعم النفسي الذي تحدثه لصاحبها إنما هو من مجموع أركانها لا من بعضها؛ لهذا عبر بـ(الصلاة) دون غيرها.

ما أتي فيه الأمر موجها لموسى – عليه السلام –

ورد الأمر بإقام الصلاة لنبي الله موسى –عليه السلام – وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ (سورة طه، الآية:١٤) فهذه الآية بدل من (لما يوحى) في قوله تعالى: ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾ (سورة طه، الآية:١٤) والوحي هنا لموسى عليه السلام فأتى الأمر له بصيغة الإفراد في قوله (اعبدني، وأقم الصلاة) لكن لماذا خَصَّ الصلاة دون سائر العبادات؟

معلوم أن هذا هو اللقاء الأول لموسى عليه السلام مع ربه قبل تكليفه بتبليغ الرسالة، فكان لقاء جامعا اشتمل على بيان أمر التوحيد، ثم تلاه الأمر بالعبادة بشكلها العام ثم خصص الأمر بالصلاة؛ ولعل هذا التخصيص قصد به بيان أهمية تلك العبادة من أول وهلة، والتأكيد على أنها أعلى العبادات قدرا وأجلها منزلة، وفيه " إشارة إلى أنها المقصود بالذات من الدين؛ لأنها أعلى شرائعه فهي حاملة على المراقبة، بما فيها من دوام الذكر والإعراض عن كل سوء"[١]، كما أن فيها إشارة إلى أن الصلاة من الركائز التي سيعتمد عليها في مواجهة المصاعب التي تنتظره خلال دعوته لقومه، لهذا خُصت الصلاةُ بالذكر وأُفردت بالأمر فأتت معطوفة على قوله: (فاعبدني) على الرغم من أن الصلاة داخلة في العبادة وهذا من باب عطف الخاص على العام؛ للتأكيد على فضل

١ – نظم الدرر: ٢٧٧/١٢

الصلاة وعلو شأنها على سائر العبادات، واستعمل النظم الحكيم أسلوب الأمر الدال على الوجوب؛ لأن هذه الأمور لم تكن واجبة على موسى قبل هذا اللقاء وأصبحت الآن من الواجبات فناسبها صيغة الأمر، ولما كان السياق هنا سياق تكليف ناسبه التعبير بفعل الأمر الذي أضفى على السياق صورة صوتية اشتملت على جرس قوي جعل تأثير التكليف أقوى وأعمق بما دل عليه من جزم وشدة، كما أوجد في نفس المتلقي استشعارا بأهمية تلك العبادة ومكانتها، ونبهه إلى ضرورة الاهتمام بأمرها والحفاظ على أدائها، ومن يتأمل النظم الحكيم يجد أنه بين لموسى ـ عليه السلام ـ ابتداء حقيقة المأمور به فعبر بـ (أقم الصلاة)؛ ليدل على أن الأمر الموجه إليه هنا ليس موقوفا على مجرد المعنى العقلي المراد منه أداء الصلاة على أي نحو يؤتى به، وإنما فيه إشارة إلى معنى نفسي قصد النظم إيصاله إلى قلب المتلقي للتنبيه على أن يكون أداء الصلاة أداء تاما كاملا يجمع بين حضور القلب وخشوع الجوارح، وهذا يناسب مقام المأمور والمأمور به؛ لهذا كان للتعبير بـ(أقم الصلاة) هنا وقع لا تجده مع غيره من التعبيرات الدالة على تلك الفريضة المباركة.

<u>مجيء (أقم الصلاة) في سياق وصية لقمان لابنه :</u>

يقول تعالى: ﴿يَابُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ سورة

من المعلوم أن لقمان هنا يوجه ابنه ويرشده إلى أعظم الأعمال أجرا وأجلها قدرا؛ فأتى السياق معبرا عن تلك الحالة بأسلوب بديع يظهر جليا في التوظيف الدقيق لتراكيب اللغة ومفرداتها، مع حسن التناسب والتلاؤم، ولحرص لقمان على نجاح نصحه ورغبة منه في امتثال ابنه للموعظة فقد بدأ كلامه بالنداء في (يا بني) وهو نداء خرج عن معناه الحقيقي إلى الاستعمال المجازي وهو طلب حضور الذهن؛ ليوكد له أنه لا يطلب منه مجرد الحضور

البدني بل هو يطلب منه حضورا كاملا بكل ملكاته العقلية والنفسية يطمح في الوصول إلى النفس مباشرة عن طريق الوجدان فيحدث أثرا بالغا في النفس، لهذا استعمل (بني) بما تتضمنه من معنى البنوة ومبنى التصغير بما فيه من تنزيل المخاطب البالغ منزلة الصغير وهذا الأمر يحمل في مضمونه معنى الشفقة به والتحبب إليه، والاهتمام بأمره، ويلقي بظلال الحنان وخفض الجناح؛ ليتخذ من هذا مسلكا تربويا سهلا لإقناع من يخاطبه، وإحداث أثر بالغ في نفسه فيثير لديه دافع التعلم ويستدعي الانتباه إلى تتبع الأحداث التي تروى عليه وتسرد، ومن الملاحظ أن هذا النداء هو الثاني في هذا السياق حيث صدر به النظم وصية لقمان ثم كرر النداء هنا مرة ثانية وتكرار النداء ليس لمجرد تجديد نشاط المخاطب فحسب، بل قصد به تنبيها جديدا؛ ليكشف للسامع أن ما سيأتي بعد هذا النداء يعد محورا رئيسا وأمرا جليلا يحتاج إلى مزيد عناية فإذا كان ما تلى النداء الأول قصد به تصحيح العقيدة وترسيخ أصولها فإن ما تلى النداء الثاني هو بيان أهمية الصلاة التي هي عماد هذا الدين و الحفاظ عليها دليل على العمل وفق مقتضى الإيمان الحاصل بصحيح العقيدة ، ولما كان الأمر بهذا القدر من الأهمية صاغ النظم الحكيم النصح بأسلوب يكشف عن قدر الموصي به وقدر الموصي له في نفس الموصي، فمن المعلوم أن الأب الحكيم هو من ينصح ويوصي فإذا نصح فإنه يريد لابنه الخير الوفير وإذا أرشده كان غايته الكمال والوصل إلى قمة الشيء ومبتغاه، فأتى بالتعبير القرآني: (أقم الصلاة) مصورا لهذه الحالة فعبر بفعل الأمر بما يتضمنه من دلالات قوية تقرع الآذان وتثير الأذهان وتجعل المتلقي يستقبل الخطاب بعناية شديدة وهذا من شأنه أيضا أن ينبه المتلقي ابتداء إلى أهمية ما يلقى إليه، واستعمل صيغة القيام؛ للإشارة إلى أن المقصود من الأمر هنا هو أن يحقق المأمور به وهي الصلاة على الوجه الأكمل ويأتي بها على النحو المرضي مع العناية والرعاية بكل مقتضياتها

أركانا وواجبات، سننا وآدابا والمحافظة على أدائها في أوقاتها حتى يمكنه أن يحقق الغاية التربوية المرجوة منها ويجد في نفسه أثرها ويستشعر لذة ثمارها.

الصورة الثانية:. مجيء الصلاة مقترنة بالصيغة الاسمية للقيام :

ورد لفظ الصلاة مقرونا بالصيغة الاسمية من القيام، حيث جاءت مع اسم الفاعل، والمصدر

ومن مجيئها مع اسم الفاعل قوله تعالى:

قوله تعالى: ﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (سورة النساء : ١٦٢)

من الملاحظ هنا أن النظم الحكيم استعمل صيغة اسم الفاعل من القيام دون التعبير بالصيغة الفعلية، ومعلوم أن اسم الفاعل يدل على الحدث ومن قام به، وزمان الحدث فيه يحتمل الماضي والحاضر والمستقبل، بالإضافة إلى إفادته الثبوت، لهذا كان التعبير باسم الفاعل هنا له دلالات بلاغية ناسبت المقام، حيث إن السياق هنا يعدد أصنافا من عباد الله الذين امتن عليهم بواسع فضله وأعد لهم من عظيم أجره، ووصف هؤلاء بأنهم راسخون في العلم" ثم شرح ذلك فبين أولا: كونهم عالمين بأحكام الله تعالى وعاملين بتلك الأحكام، فأما علمهم بأحكام الله فهو المراد من قوله والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وأما عملهم بتلك الأحكام فهو المراد بقوله والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة وخصهما بالذكر لكونهما أشرف الطاعات؛ لأن الصلاة أشرف الطاعات البدنية، والزكاة أشرف الطاعات المالية، ...، وإذا حصلت هذه العلوم والمعارف ظهر كونهم راسخين في العلم[1]"، والراسخ أي الثابت يقال: "رَسَخَ الشيءُ يَرْسَخُ رُسُوخاً ثبت

١ – مفاتيح الغيب: ٢٦٥/١١.

في موضعه والراسخ في العلم الذي دخل فيه دخولاً ثابتاً وكل ثابت راسخ"[١]، " واستعير للتمكن من الوصف مثل العلم بحيث لا تغره الشبه"[٢] وعليه يكون هذا الوصف قد دل على أن هؤلاء قد رسخوا في دينهم علما وعملا؛ لذلك عبر عنهم بما يدل على إثبات الحكم على وجه الإطلاق؛ ليخرجه مخرج الأمر الثابت دون قصد إلى التقييد بزمان، وهذا الأمر مطرد في السياق كله إذ عبر بـ(راسخون، مؤمنون، مقيمين، مؤتون)؛ ليدل على أن كل وصف من هذه الأوصاف إنما هو وصف ثابت لفئته مستقر فيها غير طارئ عليها فاستحقت كل فئة الأجر العظيم بما ثبت لها من أوصاف، ومن الملاحظ أن اسم الفاعل هنا أتى عاملا، حيث نصب ما بعده(الصلاة) على المفعولية، وعمله بسبب أنه قد اقترن بـ(أل) وهنا يعمل بلا شروط ويحتمل جميع الأزمنة وبهذا فقد أثبت لهؤلاء حفاظهم على أداء صلاتهم والإتيان بها بكل شروطها وحدودها في كل زمان، وعليه تكون صيغة اسم الفاعل قد جمعت لهم المداومة على الفعل مع الرسوخ والثبات وعدم التحول أو التذبذب في جميع أحوالهم، وهذه المقصد لم يكن يتحقق بالتعبير بالفعل وحده أو الاسم الخالي من دلالة الزمن وحده.

وزاد النظم للصلاة في هذا السياق ظاهرة أسلوبية ذات تعبير بليغ موجز تستدعي استحضار الذهن لمعرفة أثر تلك الظاهرة في عطاء النص القرآني المعجز، هذه الظاهرة هي كسر النمط الإعرابي وهذه الظاهرة لا تأتي في الكلام البليغ إلا لنكتة، فمجيء التعبير الدال على عبادة الصلاة على هذا النسق من العدول عمل على فتح فضائها الدلالي مما جعل المتلقي بحاجة إلى مزيد تأمل وتدبر في أسباب هذا العدول؛ لأن الكلام إذا أتى على نسق واحد فإن

١ – لسان العرب مادة: (ر س خ)

٢ – التحرير والتنوير: ٢٨/٦.

السامع ينسجم معه ولا يكون هناك ما يستدعي وقوفه، لكن إذا اختلف النسق عن المتوقع راع انتباه السامع فتوقف متسائلا عن سبب مجيء هذا التعبير على هذا الوجه وأخذ ينقب عن الإشارات والدلائل التي انطوت عليها تلك البنى التركيبية في عدولها عن قواعدها وأنظمتها النحوية، كما أن هذا العدول يجعل التعبير يحتمل أوجها متعددة على المستوى النحوي، مما يحدو بالمتلقي أن يراجع إشارات القرائن والمساقات ليصل إلى المعاني المتولدة من تعدد تلك المستويات، واقفا عند أحق المعاني وأليقها بالمراد، وهذا الأمر يلفت انتباه المتلقي إلى وجود أهمية خاصة عند هذا المقطع من المعنى، فيكشف اللثام له عن أهمية هذه العبادة ومكانتها وكون إقامتها دليل على كمال الإيمان والرسوخ في العلم بحيث لا يتأتى إيمان ولا يحدث رسوخ إلا بها خصوصا إذا ما استوفى المؤمن كل أركانها وآدابها وخشوعها وأتى بها على وجهها المطلوب، فعمد النظم إلى الإبانة عن قدر هذه العبادة بالكيفية المذكورة مادحا إياها وذلك عن طريق مغايرة حكمها الإعرابي عما جاورها؛ ليدل بتلك المغايرة اللفظية على المغايرة المعنوية حيث العناية بإقام الصلاة، وهذا باب شريف جليل يكشف لك عن وجه من جلال عطاءات البلاغة القرآنية.

ومنه قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ (سورة الحج الآية:٣٥)

هذه الآية الكريمة وردت في سياق الحديث عن شعيرة الحج، وقد اشتملت على بيان صفات المخبتين أي المتواضعين ومن صفاتهم أنهم (مقيمي الصلاة) وقد صاغ النظم الحكيم هذا الوصف في أسلوب معجز اشتمل بناؤه على بلاغة متناهية وقيم جمالية حيث قال سبحانه: ﴿ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ﴾ والناظر إلى هذا التعبير القرآني داخل هذا السياق يجده يفيض بمعان لا منتهى لها ويشير إلى دلالات لا تدخل في مُنن البشر، حيث عبر النظم بلفظ الإقامة؛ تنبيها على أن

مناط المدح هنا هو التوفية بحقوق الصلاة وشرائطها، لا مجرد الإتيان بهيئتها فقط، وأضاف القيام للصلاة بلفظها المشهور؛ ليدل على أنهم قد أتموا الصلاة بكل أركانها وواجباتها ولم يقتصر خشوعهم على بعض أفعالها، ولا أركانها، وعبر النظم الحكيم بالوصف (اسم الفاعل) دون الفعل؛ لأن التعبير بالوصف الدال على ثبوت الصفة وحصولها من غير أن يكون بها مزاولة يدل على رسوخ حب تلك العبادة في قلوبهم حتى إنهم يحافظون عليها في كل أوقاتهم، لا يفترون عنها ولا يتكاسلون مهما تغيرت أحوالهم، وهذا التعبير يتناسب مع السياق فهؤلاء يؤدون شعيرة الحج التي تستلزم سفرا ومشقة وشغلا دائما كل هذا قد يسوق بعض المتلبسين بهذه المشقة إلى التقصير في الصلاة، فأتى النظم الكريم مبينا أن هؤلاء المخبتين لم تشغلهم مشاق رحلتهم وأعمال فريضتهم عن إقام الصلاة، ولو قال: (يقيمون الصلاة) لكان المعنى أنهم يقيمونها في أوقات ويشتغلون عنها في أوقات أخرى، فالإقامة تتجدد منهم شيئا فشيئا؛ لأن الفعل يقتضي مزاولة وتجدد الصفة في الوقت، وليس هذا هو مراد السياق ولا يؤدي الغرض المطلوب وإنما المراد هو تمكن الصلاة منهم ورسوخها في نفوسهم حتى أتوا بها على الوجه المطلوب دون أي خلل أو تقصير في كل وقت وحين، "لذلك عبر بالوصف دون الفعل إشارة إلى أنه لا يقيمها على الوجه المشروع مع ذلك المشاق والشواغل إلا الأراسخ في حبها، فهم – لما تمكن من حبها في قلوبهم والخوف من الغفلة عنها – كأنهم دائماً في صلاة"[١].

ومن يتأمل السياق يجد أن إقام الصلاة سبقها الوصف بالصبر الذي أتى به في صورة الاسم؛ لأن السياق هنا أتى في الحديث عن فريضة الحج، وهذا الموقف" مظنة لكثرة الخلطة الموجبة لكثرة الأنكاد ولا سيما وقد كان أكثر

١ – نظم الدرر: ٤٨/١٣

المخالطين مشركين، لأن السورة مكية، قال عاطفاً غير مُتبع، إيذاناً بالرسوخ في الأوصاف: {والصابرين} الذين صار الصبر عادتهم {على ما أصابهم} كائناً ما كان"[1] وكان تقديم هذه الصفة على غيرها أنسب إذ بتحققها تتحقق غيرها خصوصا في هذا الموقف وتلك الشعيرة، وأتى بعدها بصفة الإنفاق لأنه يتحدث عن صفات المخبتين فجمع لهم أشرف عبادة بدنية، ومالية، إلا أنه عبر عن الإنفاق بصيغة المضارعة؛ لأن الإنفاق متغير من حال إلى حال فالغني ليس كالفقير، والإنسان الواحد تتغير حالته من ساعة إلى ساعة، فالمعنى أنه كلما تيسر لهم أنفقوا وهذا يناسبه التعبير بالمضارع الدال على التجدد والاستمرار.

ومن الملاحظ هنا أن التعبير القرآني اتفق مع التعبير في سورة النساء حيث أتى باسم الفاعل بدلا من الفعل وذلك إثباتا للحكم وتحديدا للذات، إلا أنهما اختلفا في إثبات النون وحذفها ففي الحج حذفت النون من أجل الإضافة، وإضافة اسم الفاعل لما بعده تدل على وقوع الحدث في الحال مما يعني أن الحاج على الرغم من كثرة أعمال الحج عنده إلا أنه محافظ على الصلاة في وقتها أثناء تلك الرحلة الشاقة وهذا هو مناط المدح والثناء عليهم، أما في النساء فأتى اسم الفاعل مقطوعا من الإضافة، والقطع من الإضافة يعني وقوع الحدث على الدوام دون التقيد بزمن وهذا يتناسب مع سياق سورة النساء حيث إن المدح هناك مدح عام غير مرتبط بزمن محدد ولا حدث مخصوص .

ومنه قوله تعالى: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴾ (سورة إبراهيم: ٤٠)

١ – السابق: ٤٩/١٣.

من المعلوم أن هذه الآية تحكي دعاء ورد على لسان سيدنا إبراهيم – عليه السلام – يدعو فيه لنفسه ولذريته من بعده، وقد ألح إبراهيم – عليه السلام – في دعائه حيث صدره بأسلوب نداء حذفت منه الأداة وياء المتكلم وذلك استشعارا بقرب ربه و إظهارا لرغبته في تحقق دعائه وإسراعا للوصول إلى بغيته، واستعمل فعل الأمر (اجعل) الذي خرج من معناه الحقيقي إلى الدعاء فجعل فعل الأمر يحمل معاني التضرع، والابتهال، والرجاء، والاستكانة من إبراهيم – عليه السلام – لربه – عز وجل– ولما كان الأمر حقه الفور استعمله النظم على لسان خليل الرحمن إبراهيم – عليه السلام–؛ ليكشف عن شدة شغفه وتعلقه بهذا الطلب وتلك العبادة وأنها هي همه الأكبر، وهذا ظاهر جلي في مواقف مختلفة لإبراهيم – عليه السلام–، إذ يكشف النظم الحكيم أن قضية الصلاة دائما ما كانت حاضرة في باله فتراه يرددها في مواقف مختلفة ويطلب التوفيق إلى أدائها في مقامات متعددة، تأكيدا ورغبة في استدامته عليها؛ ولشدة تعلقه بهذا الأمر خص نفسه بالدعاء أولا ثم لذريته ثانيا، إذ إنه المقتدى به في ذلك فإن وفق لذلك اقتدت به ذريته من بعده، واستعمل فعل (الجعل) الذي تستشعر معه إلحاحا على الملازمة والتوفيق خصوصا حينما أتى في قالب الأمر، كما أن فيه امتثالا بالخضوع والتسليم بأن هذا الطلب لن يكون إلا بتوفيق الله ومعونته، وعبر عن طلبة بقوله:(مقيم الصلاة)؛ لأنه لا يطلب العبادة بشكلها العادي وإنما يطلبها في إطار من الكمال الذي يقتضي توفية حقوقها وشرائطها، لا الإتيان بهيئتها فقط إذ إنه لا يسأل ربه إلا أكمل ما يحبه لنفسه ولذريته، فعبر بصيغة القيام الدالة على التمام، ودعاء إبراهيم – عليه السلام – لنفسه بأن يجعله ربه مقيم الصلاة وهو مقيمها فيه دلالة على طلب الديمومة والتوفيق إلى الثبات والاستزادة في الطاعات، ودعاؤه لبعض من ذريته فيه طلب بالحدوث في المستقبل وكلا الجانبين فيهما رجاء بالثبات على الطاعة وتمام الأداء، وعدل عن التعبير بصيغة الفعل إلى اسم الفاعل؛ للدلالة على المداومة والاستمرار حتى يصير هذا

الأمر وصفاً ثابتاً فيه وفي ذريته وهذا يتناسب مع تطلعه إلى أعلى الغايات وأرفع المراتب، كما أنه يتناسب مع رغبته في بقاء تلك الصفة ودوامها في ذريته، ولشدة تعلقه بتحقق هذا الطلب تجده يؤكد الدعاء رغبة في الاستجابة فيختم النظم حديثه بقوله: (رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ).

التعبير بالمصدر:

يقول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ (سورة الأنبياء، آية:٧٣)

أتى التعبير هنا عن عبادة الصلاة بالمصدر المضاف إلى الصلاة(إقام الصلاة) ولم يرد هذا التعبير إلا في موضعين، أتى فيهما المصدر متمكنا في نظمه بديعا في سبكه، ومعلوم أن التعبير بالمصدر له أسرار ودلالات يتطلبها مقتضى الحال ولا يؤديها أي تعبير آخر، وللوقوف على بعض هذه الأسرار وجب تأمل السياق ومراجعته، ومن الملاحظ هنا أن الآية جاءت في سياق حديث القرآن الكريم عن عدد من أنبياء الله وهم إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام، وقد مدحهم الذكر الحكيم فقال عنهم :﴿ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ (٧٢) وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا...﴾ (سورة الأنبياء: ٧٢-٧٣) ومن الملاحظ هنا أن النظم اعتنى اعتناء كبيرا بذكر فضائل هؤلاء الأنبياء في هذا المقام، حيث صرح بما تفضل الله عليهم به فجعلهم صالحين، وفي التعبير باسم الفاعل (صالحين) ما يدل على أن هذا الوصف صار سمتا ثابتا فيهم لا ينفك عنهم، وفي إسناد الجعل لضمير العظمة في قوله: (جعلنا) ما يوحي بقدر المنحة المهداة وعظمتها، ثم أعاد التفضل فكرر فعل الجعل في قوله :(وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً) وكأنه يوضح أن هذا الجعل مختلف عن سابقة فكلا الجعلين له خصوصيته وعنايته الخاصة، ففي الأول منحهم رتبة الصلاح في أنفسهم، ثم تفضل عليهم بالثاني فأعطاهم رتبة الإصلاح لغيرهم، ومعلوم أنه ليس كل من صلح أصبح للناس

إماما، وفي قوله: (يهدون بأمرنا) دلالة على أن فعلهم متجدد ومستمر وأن هدايتهم إنما مصدرها أمر الله تعالى، ولما أراد الله أن يجمع لهم قدوة العمل مع العلم أوحى إليهم (فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ)، ولما كان الأمر هنا لجماعة من الأنبياء جعلهم الله قدوة لغيرهم وأئمة لمن دونهم و كان الأمر موجها إليهم عن طريق الوحي عبر عن ذلك بأسلوب قوي وعبارة محكمة تدل على أهمية الموحى به وقدر الموحى إليهم فأتي بقوله: (فِعْلَ الْخَيْرَاتِ) معبرا بالمصدر (فِعْلَ) دون غيره؛ ليكون أبلغ في التشريع وأعم في التنفيذ بحيث لا يحده زمان ولا يختص به إنسان، واستعمل صيغة الجمع (الخيرات)؛ ليتناسب مع شمولية الرسالة السماوية التي أوحى الله بها لأنبيائه والتي اشتملت على كل أبواب الخيرات، وعطف علي (فِعْلَ الْخَيْرَاتِ) (إِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ) وهذا من باب عطف الخاصِّ على العام، إذ إن فعل الخيرات يشمل كل أبواب الخير والتي منها إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وتخصيص إقام الصلاة وإيتاء الزكاة بالذكر تنويها بشأنهما واهتماما بأمرهما، خصوصا وأن إقام الصلاة خير الأعمال كما ورد في قول النبي – ﷺ: «خير أعمالكم الصلاة»[1]، وقد آثر النظم التعبير بالمصدر (إقام) دون غيره؛ ليتناسب مع دلالات السياق وخصوصيته إذ إن الحديث عن الصلاة هنا يختلف عن المواضع الأخرى، فليس المقام هنا مقام أمر بالعبادة أو وصفها أو وصف من يقوم بها وإنما هو تشريع ووحى من رب العالمين إلى أنبيائه الذين هم قدوة لغيرهم، وهذا التشريع لا يقف عند وقت ولا يختص بفرد بل هو لكل أفراد أمم هؤلاء الأنبياء؛ لأن الموحى به ليس من الأحكام التي يختص بها الموحى إليهم بل هم وغيرهم مشتركون في هذه الأمور،

١ – مسند الإمام أحمد بن حنبل، لأبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل (المتوفى: ٢٤١هـ) حديث رقم(٢٢٣٧٨) : ٣٧/ ٦٠، تحقيق: شعيب الأرنؤوط – عادل مرشد، وآخرون، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ – ٢٠٠١ م.

فوظف النظم المستوى المعجمي لمادة (ق و م)؛ للدالة على الكمال والعزم والثبات، وهذه الدلالة اللغوية تتسق مع الموحِي والموحَى إليهم، كما وظف النظم المستوى الصرفي فعبر بالمصدر الصريح (إقام) الدال على الحدث مُجرَّدًا؛ ليتناسب مع مقام الوحي لأنبياء الله، هؤلاء الذين امتازوا عن غيرهم بملازمتهم عبادة ربهم، فأتى التعبير معهم بالمصدر الذي ورد بديعا في سبكه، متمكنا في نظمه، حبيكا في نسجه؛ لأن مقصد النظم هو توجه العناية إلى المبالغة في تحقيق هذه العبادة على أتم وجه وأحسن حال بشكل دائم لا ينقطع دون التعلق بذات، ولابزمان ولا بمكان، وهذا يتناسب مع طبيعة المقام حيث إن المقام هنا مقام حف بمظاهر الوحي والتشريع، ومعلوم أن مقام التشريع يختلف عن المقامات الأخرى كالتعليم والمدح ونحوها، وعطف على إقام الصلاة إيتاء الزكاة لأن الموقف فيه حث على الولوج في كل أبواب الخير والتي على رأسها الصلاة والزكاة، وبهذا تكون الصورة التعبيرية التي استخدمها النظم للدلالة على عبادة الصلاة ذات دلالات فائقة في كشف المعنى السياقي الذي أراد النظم أن يرسخه في آياته.

ومن التعبير بالمصدر قوله تعالى: ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴾ (سورة النور: ٣٧)

والمقام هنا أيضا مقام مدح موجه إلى جماعة من المؤمنين سماهم الذكر الحكيم بقوله: (رجال) وأتى باللفظة نكرة منونة للتفخيم والتعظيم ، ووصفهم بأنهم (لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ)؛ للمبالغة في مدحهم حيث عطف البيع على التجارة، وظاهرها أنها من ذكر الخاص بعد العام، إلا أن حقيقتها التغاير، فقد يبيع الإنسان أشياء يملكها بثمنها أو أقل من ثمنها لحاجته للمال دون قصد إلى التجارة، أما التجارة فهي عملية مقننة ذات أبعاد محددة تشتمل على شراء سلع

وبيعها لتحقيق ربح، وقيل: إن النظم قد خص البيع بالذكر بعد التجارة؛ لأن البيع في الإلهاء أدخل، من قبل أن التاجر إذا اتجهت له بيعة رابحة وهي طلبته الكلية من صناعته: ألهته ما لا يلهيه شراء شيء يتوقع فيه الربح في الوقت الثاني، لأن هذا يقين وذاك مظنون(١)، وقد جمع النظم الحكيم بين الأمرين قصدا للاستغراق في مدحهم والثناء على حالهم، فهؤلاء لا تجد ما يثنيهم عن العبادة حتى وإن كان أقوى الأسباب؛ لهذا فقد خص الذكر الحكيم التِّجارة والبيع بالذكر؛ لكونهما من أقوى ما قد يصرف ويشغل الإنسان عن عبادته، وأتى بهما نكرة؛ ليدل على التنوع أي لا يشغلهم أي نوع من أنواع التجارة والبيوع قل أم كثر، عظم أم حقر ، وقد يفيد التنكير التعظيم؛ فيكون المعنى لا تلهيهم التجارة وإن عظم أمرها، و لا يلهيهم البيع وإن عظم شأنه وكثر ربحه، ثم يذكر القرآن الكريم ما شغل عقولهم وسيطر على قلوبهم فلم تستطع أقوى الشواغل أن تصرفهم عنها فقال: ﴿ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ﴾ وبدأ بـ (ذكر الله) إذ إنه أكثر ما يتعبد به الإنسان المؤمن ويتقرب به إلى ربه، كما أنه يشمل كل أنواع العبادات من صلاة، وزكاة، وصيام، وحج، وقراءة قرآن، وثناء، ودعاء، وتسبيح، وتحميد،... وغير ذلك من أنواع الطاعات؛ وعطف على (ذِكْرِ اللَّهِ)(إِقَامِ الصَّلَاةِ)؛ تأكيدا على أهميتها فهي وإن كانت داخلة ضمنا في ذكر الله إلا أن النظم خصها بالذكر؛ ليظهر حرص هذه الفئة على الحفاظ على تلك العبادة، في كل أوقاتهم حتى إنه لا يثنيهم عنها أي شيء مهما كانت أهميته، ويأتي التعبير بالمصدر(إقام) متناغما مع دلالات السياق وما اشتملت عليه من مقاصد مدح وثناء، فأتى التعبير بالمصدر؛ ليحدث إيغالا في مدحهم، وإظهارا على شدة حرصهم، وبيانا لما رسخ في نفوسهم تجاه صلاتهم، فترى النظم

(١) يراجع الكشاف: ٢٤٣/٣ (بتصرف).

لم ينف عنهم الانشغال عن الصلاة فحسب، بل بين أنهم يحافظون على أوقتها وحدودها، أركانها وسننها، آدابها و خشوعها...، ولما كان كثير من الناس تشغلهم تجارتهم عن الصلاة وإقامتها كما بين ذلك القرآن فيما حكاية في خواتيم سورة الجمعة، إلا أن هؤلاء كان لديهم من الحرص والشغف على الحفاظ على صلاتهم ما جعل النظم يستخدم صيغة المصدر(إقام) في التعبير عنهم للمبالغة في بيان المعنى المراد، وكأن حرصهم على تلك العبادة غير مرتبط بزمان ولا مكان ولا أشخاص، فعبادة الصلاة حاضرة بالكلية في أذهانهم بكل أركانها وآدابها وخشوعها، وليس مجرد أنهم يؤدونها في أوقاتها ثم تنقطع صلتهم عنها، بل يتعلق أثرها بهم فلا تنفك عنهم فتجدهم يستحضرون عظمتها في قلوبهم ويستشعرون أنوارها طوال يومهم، دون أن يتسلل إيهام إلى نفس المخاطب إلى أن هؤلاء قد ينتابهم لهو عارض عن صلاتهم، وبهذا يتحقق لهم من المدح أعظمه ومن الثناء أجله وأكرمه، ولما كان المقام مقام مدح وثناء لتلك الفئة جمع لهم من الأفعال أعلاها فعطف على (إقام الصلاة) (إيتاء الزكاة)؛ ليتحقق لهم السبق في كل أبواب الخير .

المبحث الثاني

التعبير بالصلاة غير مقرونة بالقيام صوره وأسراره البلاغية

أولا : مجيء (الصلاة) بصيغة المفرد

استعمل النظم الحكيم التعبير بـ(الصلاة) بصيغة المفرد غير مقترنة بالقيام في مواضع كثيرة وسياقات عديدة منها: قوله تعالى: ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾ سورة البقرة، الآية : ٤٥)

فقد جاءت الآية الكريمة في سياق الحديث عن بني إسرائيل حيث أمروا بعدد من الطاعات ونهوا عن عدد من الضلالات، وهذا من شأنه أن يحدث المشقة في نفوسهم لما في ذلك من خروج عما ألفوه وترك لما اعتادوه، فأرشدهم النظم إلى ما يصلح حالهم ويخفف وطأة جزعهم، فقال ناصحا لهم: ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ﴾ وقدم الصبر إذ إنه أنسب لحالهم فهم مأمورون بفعل ما تكرهه نفوسهم ويخالف هواهم، ولحبس النفس على ما تكره وتخليصها من أشراك الهوى، وجب أن يتحلى الإنسان بالصبر، وأمرهم بالاستعانة بالصَّلاةِ؛ لأنها عبادة جامعةٌ لأنواع العبادات النفسية والبدنية، مانعة من الاستمرار في ركوب الباطل والتمادي فيه، فحرص النظم على أن يأمر بني إسرائيل عامة بالاستعانة بتلك العبادة التي إن التمسوا فيها العون وجدوا لأنفسهم حظا فيما يأمرون به الناس من بر وطاعات، فكانت عونا لإصلاح ذواتهم، والخضوع لأمر ربهم، وأتى طلب العون في صيغة الأمر المباشر؛ ليحدث في أسماعهم جلجلة قوية تتهدم أمامها كل حججهم الباطلة التي اعتادوا على نسجها، وحرص النظم على أن يأتي الأمر مسندا لـ(واو) الجماعة حتى يشمل الأمر كل واحد منهم فلا يجدون ما يركنون إليه في عدم النزول لأمر الله، ولما كان المقام مقام نصح وإرشاد وتعليم استعمل معه (استعين) لما فيه من إشارة إلى تقديم العون لهم حتى يجدوا السبيل إلى ما يعينهم على التلبس بما أمروا به أو نهوا عنه، وهنا لم

يأمر بإقام الصلاة بل أمر بالاستعانة بها فحسب، والاستعانة هنا أنسب للمقام وأليق بحال المخاطبين إذ إن الموقف هنا ليس المقصد منه الإرشاد إلى كيفية معينة تؤدى بها العبادة، بل المقصد هو تقديم الدعم لهم ليتمكنوا من الوصول إلى ما أمروا به والبعد عما نهوا عنه، فكان الأمر بالاستعانة بعبادة الصلاة التي يجد كل واحد منهم فيها مبتغاه، و يستشعر فيها كل فرد العون بحسب اشتغاله بتلك العبادة وتعلق قلبه بها، فلو أن النظم قال: (واستعينوا بالصبر وأقيموا الصلاة) لخرج السياق عن مراده ولتحول من إرشادهم وتوجيههم إلى كيفية تحقيق ما أمروا به ونهوا عنه، إلى تكليف جديد، وما كانت الصلاة هنا إلا عبادة مطالبون بالإتيان بها بكيفية محددة، لكن لما قال (واستعينوا بالصبر والصلاة) إذا بالنظم وقد فتح أفاقًا جديدة واسعة للصلاة حيث جعلها وسيلة يتقوى بها الإنسان على كل ما يعترضه في حياته، وجعلها عونا له لإصلاح نفسه وتقويم ذاته والوصول إلى فعل المأمورات، والامتناع عن فعل المنكرات، فأصبحت معينا خصبا يلجأ إليه الإنسان مستعينا بها للوصول إلى بغيته؛ لهذا لم يذكر النظم ما يستعان عليه بالصبر والصلاة؛ ليشمل هذا الإطلاق وهذا الإجمال كلَّ أمر من أمور الدنيا والآخرة صغيرها وكبيرها، ولعل في ذلك إشارة إلى أن الصلاة هي الطريق الذي يجب أن يسلكه الإنسان في كل حالة من حالته، وعلى قدر تمسكه بها وإخلاصه في أدائها سيجد ببركتها عونا لما أصابه وألمه، وهذا المعنى لا يتحقق مع التعبير بالأمر ابتداءً بإقامتها لأنك قد تجد حديث عهد أراد أن يسلك دروبها ويستعين بها إلا أنه ما زال يقوم نفسه ويقاومها حتى يستقيم في أدائها، فيتلبس بها على أية حال حتى تأخذه إلى مسالك الخاشعين المقيمين لها، وهذا أنسب للمقام .

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (سورة البقرة، الآية : ١٥٣)

وقعت هذه الآية بعد قصة تحويل القبلة وما لاقاه المؤمنون فيها من استهزاء شديد وطعن في أصول الدين الأمر الذي كان له وقع شديد على نفوسهم، وسبقت أيضا بتكليف من رب العالمين حيث أمر الله المؤمنين بقوله: ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾(سورة البقرة، الآية : ١٥٢) حيث أمرهم بشكره وذكره، ونهاهم عن أن يكفروا به شيئا، كل هذا جعل المؤمنين في حالة يفتقرون معها إلى ما يعينهم على مواجهة تلك التحديات والإتيان بهذه المأمورات، فأردف النظم الحكيم ما يعينهم على تلك الحالة فقال: (اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ) وبدأ بالاستعانة بالصبر لما فيهما من المعونة على تحمل ما ألم بهم من أعدائهم في حادثة تحويل القبلة فهم لما يسمعون من هؤلاء كارهون، إلا أنهم مأمورون بتحمل تلك المكاره وتوطين نفوسهم على المشاق وعدم الجزع، فوجب التسلح بالصبر، ثم وجههم إلى الاستعانة بالصلاة التي بها يحصل الثبات والعون، وعبر بالصلاة دون غيرها من التعبيرات الدالة عليها؛ لما في الكلمة من اقتدار على بيان المعنى المراد، فالسياق يريد أن يوجه المؤمنين إلى كيفية الخروج من مثل هذه المحن فدلهم على الوسائل المعينة والتي منها عبادة الصلاة، حيث وظف الدلالة القصدية للكلمة بكل ما تحمله من دلالات نفسية، وما تتضمنه من قيم روحانية في كل أركانها وحركاتها؛ لهذا كان التعبير بأشهر الألفاظ الدالة على هذه العبادة والتي يعبر بها عن العبادة بشكلها التام دون تخصيص ركن منها، ومعلوم أن تعريف الصلاة "أقوال وأفعال مفتتحة بالتكبير ومختتمة بالتسليم"[١]، بل إنه ليسبقها استعداد نفسي وطهارة جسدية، كل هذا له

١ – الإقناع في حل ألفاظ أبي شجاع، محمد الشربيني الخطيب: ١/ ١٠٦، تحقيق مكتب البحوث والدراسات – دار الفكر ، ١٤١٥هـ، بيروت.

دور واضح في المعنى المراد من السياق القرآني، إذ الاستعانة المأمور بها تتحقق مع كل هذه الأفعال والأقوال، ولو عبر الذكر الحكيم ببعض أركانها الدالة عليها كالركوع أو السجود أو القيام؛ لظن المتلقي أن العون لا يأتي إلا مع هذا الركن دون ما عداه وهذا غير مراد، كما أن النظم أطلق الصلاة دون أن يقيدها بالقيام لأنه لو قيدها بالقيام لدل على أن هذا النصح والإرشاد لن يؤتى ثماره إلا مع من صلح حالهم واستقام أمرهم مع صلاتهم، أما من شط الطريق ثم طلب الرجوع ووقف على أعتاب أبواب الهداية، ولا يزال بينه وبين إتقان صلاته درجات، فإنه لن يجد في الصلاة عونا، وهذا المعنى غير مراد ولا مقصود؛ لأن الهدف الأسمى هنا هو توجيه الأمة في محنها إلى الاستعانة بالصلاة للخروج من تلك المحن، و الخطاب لجميع الأمة مع اختلاف أحوالها مع صلاتها؛ فمنهم محافظ ومنهم مضيع، وما بين الحالين أحوال متباينة، وهنا إشارة تربوية عالية وهي أنه إذا اختلفت أحوال المخاطبين في أمر وجب إطلاق الأمر على سعته والتعبير عنه بما يشمل كل أحواله حتى يدخل كل إنسان للأمر حسب طاقته، وبما يتناسب مع ما هو عليه، فإذا كان البلاء ينزل بالناس جميعا على مختلف حالهم مع الإيمان، فالعلاج هو أن يطلب الإنسان العون من ربه بالصبر والصلاة، فيلجأ المؤمن لربه، ويبادر إلى صلاته يتلمس فيها أبواب العون قدر طاقته، مهما كان حاله مع صلاته، وعليه أن يحمل نفسه على مزيد إحسان وخشوع في أدائها، وهنا يظهر سر من أسرار اقتران الصبر بالصلاة وتقدمه عليها وهو أنه يجب على الإنسان مهما كان حاله مع صلاته فعليه أن يدرب نفسه على الخشوع في صلاته والحفاظ على أدائها وإقامتها بكافة شروطها وأركانها وهذا لا يحصل إلا بمزيد صبر؛ لذا تجد أن الأمر جاء للنبي صلى الله عليه وسلم من ربه عز وجل قائلا:﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ (سورة طه : ١٣٢)، فاستعمل (اصطبر) مع الصلاة؛ لأنها عبادة مستمرة كل يوم

وليلة، وتأديتها في أوقاتها أداء تاما كاملا يحتاج إلى زيادة في الصبر ومعلوم أن زيادة المبنى في اصطبر دلت على زيادة في المعنى.

ومن الملاحظ أن هذا الموضع والذي سبقه كلاهما اشتملا على الاستعانة بخلق الصبر وعبادة الصلاة إلا أنه قد وقع اختلاف بين الفاصلتين فختمت الأولى بقوله: ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾، وختمت الثانية بقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ ولعل السبب في ذلك هو اختلاف حال المخاطبين في الموضعين ففي الأولى يخاطب اليهود الذين عرف من حالهم أنهم أهل غدر ومكر، وجبلوا على المخالفة ونقض العهود وعدم طاعة الأوامر الربانية، وقد اشتمل السياق على حشد من التعريض بهم والتوبيخ لهم، فلما أمرهم الله بالاستعانة بالصبر والصلاة و علم بحالهم وما سيكون منهم من تثاقل وتكاسل ختم الآية بقوله: ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾؛ ليكمل سلسلة التوبيخ ويعرض بهم ويبين أنهم ليسوا من أهل هذه الطاعات، أما الموضع الثاني فالخطاب للمؤمنين، يحمل في طيه النصح والإرشاد فناسب ذلك وجود ترغيب وحث على الإتيان بهذه الأمور كسبيل للخروج من المحن، وبين لهم أن من يسلك هذه الطرق سيجد نفسه في معية الله يسدده نحو الخروج من مصابه والوصول لمراده؛ لذا ختمت بقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾، ولهذه الفاصلة دلالات تتسق مع الدلالة التي رصدها البحث عند الحديث عن التعبير بالصلاة، حيث إن الدعوة شملت كافة المؤمنين على مختلف أحوالهم مع صلاتهم وأرشدتهم إلى التحلي بالصبر للوصول إلى الثمرة المرجوة، وأتت الفاصلة متسقة مع هذا الأمر موضحة أن من جبل نفسه على الصبر وجد نفسه في معية الله فلن يضره ما نزل به من أذى .

وعليه فإن كلمة الصلاة في سياقها هنا كانت بمثابة ركيزة أساسية شيد النظم المعنى من خلالها وبنى عليها التركيب فكان لها دور في تشييد بناء متكامل يشد بعضه بعضا ويهدي بعضه إلى بعض.

استخدام النظم كلمة (الصلاة) في سياق تحريم الخمر وذلك في قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ **من الآية: ٤٤ سورة النساء**

استعمل النظم الحكيم هنا من الكلمات الدالة على عبادة الصلاة كلمة (الصلاة) دون ما عداها؛ ليناسب السياق؛ فمراد النظم هنا إيجاد وحشة في قلوب المخاطبين للخمر، وقد عالج النظم هذه القضية في بناء تركيبي بليغ حيث صدر الآية بالنداء؛ لينبه المخاطبين إلى أهمية ما بعد النداء؛ فيفرغوا جهدهم لتحقيقه، كما أن فيه إشارة إلى أن المخاطب في غفلة عن حقيقة الأمر المراد التنبيه عليه أو جانب منه، فأتى النداء ليوقظ النفس ويعدها لتلقي إدراك حقيقة هذا الأمر، ثم أتى بالأمر المراد التنبيه عليه في صورة النهي (لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى) إشارة إلى " وجوب استفراغ الجهد في طاعة هذا النهي، حيث لا تفاوت في طاعة النهي، بل التفاوت في طاعة الأمر"[1]، وأتى النهي عن الاقتراب من الفريضة بالكلية، أقوالا وأفعالا ومقدمات كوضوء وطهارة، كما اشتمل النهي موضع الصلاة، فأتى التعبير بكلمة تدل على المعنى الواسع للفريضة؛ لأن الخمر تذهب العقل فلن تجد من صاحبها إتماما لوضوء أو إدراكا لقبلة، أو قدرة على قول أو فعل، بل إنه يفقد سيطرته على أفعاله حتى إنه قد يتغوَّطَ في مكان الصلاة فيحدث بها نجاسة؛ لهذا استعمل من الكلمات أوسعها دلالة وأشهرها

١ – دلالة الألفاظ على المعاني عند الأصوليين دراسة منهجية تحليلية ، د/ محمود توفيق سعد: ٣١٠، مكتبة وهبة الطبعة الأولى ، ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م .

بيانا تعظيما لشأن هذه العبادة وحتى لا يظن أن النهي متوجه لجانب دون غيره، وهذا من شأنه أن ينفر المؤمنين من شرب الخمر، حيث أصبحت مانعا بينهم وبين لقاء ربهم، ومن هنا تجد أن القرآن عالج قضية منع الخمر بأسلوب تربوي عجيب اتسم بالرفق والقناعة، حيث جعل التحريم ينبع من إرادتهم ليمحو عادة أصيلة تعلقوا بها، وقد كان لهذا التحريم وقع قوي في نفوسهم، حيث أدركوا ما يجنيه عليهم شرب الخمر من مضار وقطيعة صلة بينهم وبين خالقهم، فيسارعون إلى الامتناع عنها؛ وبهذا فإن التعبير بالصلاة كان له أثر شديد ووقع قوي على نفوس المخاطبين لأنه جعل ضمير المسلم يقف بين فريضة الصلاة وبين لذة الشراب، ولما كان ضمير المسلمين المخاطبين في هذا الوقت بلغ مبلغا جعل الصلاة عندهم هي عماد الحياة، فقد كان لهذا المنهج القرآني أعظم الأثر حيث نجح في إيجاد مانع حصين بين المسلمين وشرب الخمر وفرض على المخاطبين سلطانه دون أن يستخدم السلطان، ولو أتى التعبير القرآني بصورة من التعبير على معاني الصلاة متضمنة إقام الصلاة؛ لاختزل المعنى في أن الخمر يحول فقط بين جانب واحد وهو جانب الكمال والتمام، ولكان الوقع أقل على النفوس والفائدة محدودة، لكنه لما اختص بيان المعنى بالتعبير بـ(الصلاة) اتسع المعنى وارتفع وقع التحريم في نفوس المخاطبين وزادت الفائدة .

ورد التعبير القرآني عن عبادة الصلاة بلفظ (الصلاة) في سياق الحديث عن بعض أحكام قصر الصلاة، حيث يقول تعالى: ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ ﴾ (سورة النساء: ١٠١)

من يتأمل هذه الآية يجد أنها تؤكد على أهمية الصلاة وتبين أنها لا تسقط عن المكلف بحال من الأحوال، ولما كان الإنسان معرضا لأن تعتريه مواقف شديدة جاء النظم الحكيم بتشريع من شأنه أن ييسر على المكلف أداء هذه العبادة، وأتى التعبير القرآني (أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ)؛ ليتناسب مع بيان

الأهمية ومقام التخفيف الذي يأصل له الذكر الحكيم، أما تناسبه مع بيان الأهمية فيظهر في تعبير القرآن بأشهر الألفاظ الدالة على تلك العبادة بحيث لا يذهب العقل دونها أي مذهب ولا يقع في الذهن غيرها، إذ قد يظن البعض أن موقف الحرب والخوف يجوز معه ترك تلك الفريضة فأتى التعبير القرآني ليبدد تلك الظنون مستخدما لغة التقرير والإخبار دون لغة الإيحاء والإيماء التي تتعدد معها الدلالات، وفي هذا تعظيم لشأن الصلاة، أما تناسب التعبير مع مقام التخفيف فيظهر في اتساع المعنى الذي أحدثه التعبير بأعم الألفاظ دلالة على تلك العبادة إذ إن الصلاة تتسع لتضم العدد والكيفية؛ لذلك تجد أن العلماء هنا اختلفوا في المراد بقصر الصلاة، أهو في كمية الركعات وعددها أم في كيفية أدائها ؟، إلا أنهم اتفقوا على أن المراد من القصر هو التخفيف، ومعلوم أن "التخفيف كما يحصل بحذف بعض الركعات فكذلك يحصل بأن يجعل الإيماء والإشارة قائما مقام الركوع والسجود"(١).

وجمع ابن القيم في الهدي النبوي بين الأقوال فقال في فصل صلاة الخوف: " وكان من هديه – صلى الله عليه وسلم – في صلاة الخوف أن أباح الله – سبحانه وتعالى – قصر أركان الصلاة وعددها إذا اجتمع الخوف والسفر، وقصر العدد وحده إذا كان سفر لا خوف معه، وقصر الأركان وحدها إذا كان خوف لا سفر معه"(٢)، وهذه السعة في الحكم التي اقتضاها التخفيف لم تكن تتحقق بغير التعبير القرآني الذي آثر كلمة (الصلاة) على غيرها مما يدل عليها؛ لأنها أكثر الألفاظ اتساعا في الدلالة؛ ليتناسب مع القصر في العدد والهيئة.

---

(١) مفاتيح الغيب ٢٠٠/١١.

(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد، : محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ): ٥١٠/١، : مؤسسة الرسالة، بيروت – مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، الطبعة: السابعة والعشرون ، ١٤١٥هـ /١٩٩٤م

ورد استعمال كلمة (الصلاة) في حديث القرآن الكريم عن المنافقين وذلك في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ ﴾ (سورة النساء، الآية: ١٤٢)

يصور النظم الحكيم حال المنافقين مع عبادة الصلاة، ويكشف عن مدى تثاقلهم عنها فلا تجد لديهم رغبة تبعثهم ولا نشاط يدفعهم؛ لأنهم لا يرجون فيها نفعا دنيويا ولا ثوابا أخرويا، ولا يخافون بتركها عقابا، ويكشف القرآن الكريم أمرهم ويفضح فعلهم بأوجز عبارة وأبلغ بيان، فاستخدم كلمة الصلاة التي تحمل بين طياتها الدلالة الواسعة للعبادة؛ ليبين أن هذا هو حالهم في كل مرة يقومون فيها إلى صلاتهم، ومع كل ركن من أركانها، وحركة من حركاتها، بل أيضا تجد الفتور في كل ما يتعلق بالصلاة من وضوء وخشوع وذكر، ولا تجد من صور التعبير المتعددة الدالة على تلك العبادة ما يدل على أن هذا الفتور شمل كل صغيرة وكبيرة مثل التي عبر بها القرآن، وهذه أبلغ في ذمهم، كما أن فيه دلالة أخرى وهي أن المؤمن قد يقع منه كسلا في عبادة الصلاة؛ لكن كسله ليس ككسل المنافق فكسل المنافق دائم لا ينقطع في كل وقت وحال، ومع كل ركن من أركان الصلاة، أما المؤمن فقد يعتريه أمر عارض فيكسل عن الوضوء فإذا توضأ وجدت منه نشاطا وإقبالا، وقد يعتريه فتور عند القيام فإذا ركع أو سجد ذاق لذة العبادة فخشعت جوارحه، وكلما همت نفسه اللوامة بالكسل، سرعان ما يتداركها التوفيق بالخلاص من نفث الشيطان ، فتصبح نفسه مطمئنة نشيطة، وبهذا يكون التعبير بالصلاة في سياق بيان كسل المنافقين يحمل إشارة تدل على تغاير الحال بين المؤمن والمنافق.

وتأمل صياغة التركيب في قالب شرطي أداته إذا وفعل الشرط أتى على صيغة الماضي، وهذا يدل على تحقق وقوع الفعل منهم فقيامهم للصلاة متحقق لحرصهم على الرياء الذي حرصوا عليه واشتهروا به، واستعمل صيغة قام دون

أقام؛ ليدل على أن فعلهم ليس فيه إخلاص ولا خشوع، وإنما هو فعل لا يتعدى حركة القيام الجسدية التي هي نقيض الجلوس، وأتى الجواب بنفس صيغة الشرط؛ ليهدم أي وهم قد يتعلق بالذهن من قيامهم إلى الصلاة، وكأنه يقول ما كان قيامهم الذي حرصوا على فعله سمعة ورياء في كل ما يتعلق بأمور الصلاة إلا كسلا وكرها، فإذا كان هذا حالهم مع ما حرصوا على فعله فما بالك فيما لم ينكشف فيه أمرهم واستتروا فيه عن أعين الناس، وهذا من تمام القدرة على الإفصاح وكشف الأحوال في أوجز قول وأتم بيان.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾، (سورة التوبة ٥٤:)

ولما كان المراد هنا هو ذم المنافقين فقد حرص النظم الحكيم على أن يأتي بصور من التعبير توصّف فعلهم توصيفا دقيقا، حتى لا يغتر المؤمنون بفعلهم، ولا يقع في نفوسهم العجب من ذمهم؛ لذا تجد أن القرآن صرح ابتداء بأن كفرهم هو سبب عدم قبول صدقاتهم وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ﴾(سورة التوبة :٥٤)، وإن كان هذا التصريح لا يحتاج إلى مزيد تعليل حيث صرح بأنه لا مؤثر في منع قبول أعمالهم إلا كفرهم، إلا أن النظم الحكيم حرص على أن يشخص حالهم ويفضح أمرهم، ويقدح فيما يظهرونه من خصال الإيمان، فكشف عن خبايا نفوسهم مع عبادة الصلاة والزكاة، واستعمل في ذمهم وبيان موقفهم من الصلاة كلمة (الصلاة) بما تحمله من دلالة واسعة تشمل الجانب النفسي والجانب الحركي والجانب الروحي، والمنافقون في كل هذه الأمور لا يقبلون عليها إلا بضيق نفس وفتور عزم وتثاقل في الفعل، وناسب ذلك الإطلاق في جانب النفقة فقال: (ولا ينفقون) دون أن يقيد الإنفاق بزكاة أو صدقة مما يدل على أن هذا من عموم أمرهم في كل ما ينفقونه، وبهذا فإن الآية الكريمة تحمل آدابا تربوية في إصدار

الأحكام، فعندما يصدر الحاكم حكما له دلالات خفية تتعارض مع بعض الأفعال الظاهرة وجب تمحيص تلك الأفعال الظاهرة بالأدلة المقنعة التي لا تجعل في نفس المخاطب شبهة أو حيرة .

وقد غاير النظم الحكيم في الأفعال بين الموضعين فاستخدم (قاموا إلى الصلاة) و(يأتون الصلاة) وهذه المغايرة في وصف حال فئة واحدة من باب التكامل في بيان المعنى المراد، حيث كشف أن الكسل والفتور أمور ملازمة لهم منذ قيامهم، وتستمر معهم في ذهابهم وإيابهم وفي كل أوقاتهم وأحوالهم.

واستعمل في موضع النساء قام لأن القيام يسبق الإتيان فأتى في السورة المتقدمة نزولا وتلاوة بالفعل المتقدم، وخص التوبة وهي متأخرة نزولا وتلاوة بالفعل المتأخر وهو الإتيان، كما أن الفعل (قام) ومجيئه في صيغة الشرط المؤكد يتناسب مع الداعي إلى الفعل في سياق سورة النساء وهو حرصهم الشديد على المراءاة وكسب ود الناس وخداعهم، فلا يكون منهم إلا فعل جوارح ووقوف بين الناس حتى يرونهم فيعتقدون أنهم حريصون على الصلاة، إلا أن القرآن فضحهم فلم يقل في حقهم أقاموا الصلاة إذ إن إقامة الصلاة لا تكون إلا بدافع الحب والإخلاص بل استعمل معهم (قام) ثم كشف عن حقيقة هذا القيام فمع أنه مجرد حركة جوارح يتغير معها وضع الإنسان من جلوس لوقوف إلا أنه أيضا صدر منهم بكره وفتور وهذا إيغال في ذمهم.

أما في موضع سورة التوبة فقد أعلن القرآن كفرهم، فأتي بتعبير يتناسب مع هذا الإعلان، فتجده يقول: ولا يأتون الصلاة وكأنه يقرع الآذان بأصل حالهم وما عليه نياتهم فهم وإن ساروا بأبدانهم فإن عقيدتهم لا تتحرك معهم تجاه تلك العبادة، لأن الكفر قد تغلل في قلوبهم وصار لهم دَيْدَن، ثم يأتي الاستثناء ليحطم كل ظن دار في أذهان من رأى منهم ما يعتقد فيه الصلاح ويوضح أن كل ما صدر منهم إنما هو من نفس خبيثة وقلوب مريضة .

واستعمل النظم (الصلاة) في حديثه عن صد الشيطان للإنسان فقال سبحانه: ﴿ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ (سورة المائدة، ٩١)

من يتأمل الآية يجد أن الذكر الحكيم قد صاغ تحذيره للمخاطبين من الشيطان الرجيم في عبارة موجزة وحكمة بالغة، حيث عبر بالفعل المضارع (يصدكم) الدال على التجدد والاستمرار؛ ليوضح أن غارات الشيطان على الإنسان مستمرة ومتجددة حينا بعد حين في دأَبٍ لا ينقطع، وعزمٍ لا يخمُد كلما انهزم في جولة بحث عن أخرى، كما أن البناء التركيبي للفعل فيه دلالة على قوة الغارات التي يوجهها إبليس للأمة، وبينت الآية أن إبليس يهدف إلى التخريب الشديد وهدم الأساس فتجده يوجه الصد نحو ذكر الله والصلاة، وتأمل كيف بالغ القرآن في التحذير من تلك المصائد التي ينصبها الشيطان لصد الإنسان عن صلاته، فخص الصلاة بالعطف على الذكر على الرغم من دخولها فيه وهذا من باب ذكر الخاص بعد العام تعظيما لهذه العبادة وإشعارا بأن الصاد عنها كالصاد عن الإيمان؛ لأنها عماده وهي من أعظم شعائره، فإذا نجح الشيطان في صد الإنسان عنها فما بعدها كان هينا يسيرا، كما أن في اختصاص الذكر والصلاة بالصد بيان إلى أن الشيطان يصد الإنسان عن كل أبواب الخير لكنه مع الذكر والصلاة يفرط علي العبد بكيدِه، ويزيد عليه بغاراته، وكرر حرف الجر(عن) مع الصلاة؛ تأكيدا للتنبيه وتغليظا في التحذير، وتأمل توجيهه الصد إلى الصلاة دون ما عداها من الصور الدالة على تلك العبادة؛ وذلك لأن المؤمن قد يظن أن الشيطان لا يعترض المصلي إلا إذا تلبس في صلاته، فيدب النسيان في قلبه فيقع فريسة في شباك هذا العدو الغاشم، فيأتي النظم الحكيم ليفسد على الشيطان الرجيم مكائده، مستخدما في ذلك كلمة الصلاة بما تشتمل عليه من دلالات واسعة ليحذر المخاطبين ويعلمهم بأن صد الشيطان عن

الصلاة ليس في أدائها فحسب، بل إنه يشحذ همته ويسلط أسلحته على الإنسان قبل أن يتلبس بالصلاة فيقعد له بكل صراط ليصده عن عبادته، فتراه يحاول أن يترصده عند عزمه لأداء الفريضة ابتداءً فيصدّ الإنسان عن فعلها بتثقيلها عليه وصَرْفه عنها بصوارفِ اللَّهو والمعصية، ثم تراه يثبِّطَ من عزمَ المؤمنَ عن المبادرة إلي الصلاة في أول وقتها، ويزيِّنَ له التَّراخي عن صلاته وتأخيرَها، ويمنِّيَه بانفساحِ الوقت واتِّساع المُهْلة؛ خداعًا وتلبيسًا، فإن قاومه الإنسان نصب شباكه ليفسد عليه طهارته، فإن عجَز عن غوايته، نسج له شراكه عند ذهابه للصلاة وقيامه، فإن هزمه الإنسان تجده يعيد كرته ليفسد عليه خشوعها وتمامها، فيجتهد في إيقاع الوساوِس فيها وتلبيس أمرِها عليه كي يَسلُب منه الخشوع الذي هو روحُها ولُبُّها وأعزُّ ما فيها، لهذا كان أنسب تعبيرا لبيان تلك المعركة الطويلة هو ما جاء به الذكر الحكيم.

ومما ورد فيه التعبير بالصلاة قوله تعالى: ﴿وَهَـٰذَا كِتَـابٌ أَنزَلْنَـاهُ مُبَـارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِـهِ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ سورة الأنعام: (٩٢)

وردت هذه الآية في معرض الرد على أهل الكتاب الذين أنكروا أن القرآن الكريم كتاب منزل من عند الله، وذلك فيما حكاه الله من قولهم: ﴿إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّنْ شَيْءٍ﴾ (سورة الأنعام : ٩١)، فأتى الرد عليهم بالدليل العقلي وذلك في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ﴾، ثم أمر النبي أن يعرض عن إنكارهم ولا يشغل نفسه بغيهم وأن يتركهم في خوضهم يلعبون؛ لأن إنكارهم ليس إلا حقدا عليه، فهم أعلم بصدقه، وصدق ما نزل عليه، لهذا صدر الآية باسم الإشارة (هذا)؛ ليدل على تعظيم القرآن ورفعة شأنه، وأنه معروف لمن أنكروا كونه من عند الله ومعلوم في كتبهم، وهذا أقوى في إقامة الحجة عليهم، ثم سرّى النظم عن نفس المصطفى –صلى الله عليه وسلم– مبينا

له أنه إذا كان هناك من أنكر نبوتك وجحد صدق ما أنزل إليك على بينة من الكذب، فإن هناك من اصطفاهم الله وآمنوا بما نزّل عليك إيمانا لا يعتريه شك، ثم كشف القرآن نعوتهم في ثناء جميل، ووصف بليغ استعمل فيه عبارات موجزة حملت بحرا خضما من المعاني، وأول هذه الصفات إيمانهم بالأخرة، وقد أوقع تلك الصفة في صورة جملة الصلة، في قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾؛ إيذانا بأنهم عرفوا بتلك الصفة وتميزوا بها عن غيرهم فصارت كاللقب لهم، ثم أخبر عنهم "بأنهم يؤمنون بالقرآن تعريضا بأنهم غير مقصودين بالإنذار فيعلم أنهم أحقاء بضده وهو البشارة"[1]، وختم الآية بقوله: ﴿وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾؛ ليسوق الدليل على كمال إيمانهم، إذ لا يحافظ عليها إلا المؤمن، وفيه بيان "أن الإيمان بالآخرة كما يحمل الرجل على الإيمان بالنبوة، فكذلك يحمله على المحافظة على الصلوات"[2]، وإذا كان الإيمان بالآخرة يحمل الإنسان على الإتيان بكل الطاعات، خصوصا إذا آمن بالقرآن وما أتى فيه من تشريعات وأحكام، إلا أن النظم خص الصلاة بالذكر هنا من بين سائر الطاعات والعبادات التي يجب على المؤمن أدائها ؛ للتنبيه" على أن الصلاة أشرف العبادات بعد الإيمان بالله وأعظمها خطرا، ألا ترى أنه لم يقع اسم الإيمان على شيء من العبادات الظاهرة إلا على الصلاة كما قال تعالى: (وما كان الله ليضيع إيمانكم)، أي صلاتكم، ولم يقع اسم الكفر على شيء من المعاصي إلا على ترك الصلاة... فلما اختصت الصلاة بهذا النوع من التشريف لا جرم خصها الله بالذكر في هذا المقام. "[3]، والصلاة عماد الدين وأول ما يحاسب عنها الإنسان

١ – التحرير والتنوير : ٧/ ٣٧٣.

٢– مفاتيح الغيب : ٦٦/١٣

٣ – السابق : ٦٦/١٣

المؤمن فمن حافظ عليها وأتمها كان الإتيان بغيرها من العبادات أيسر، وذكر الإمام الشعراوي أن الصلاة قد اندمج فيها كل أركان الإسلام وجماع كل فضائل الدين وفيها كل الفضائل للمجتمع[١]؛ وبهذا يكون النظم قد عبر بالصلاة لفظا، وأشار إلى سائر العبادات فحوى، وقد ألمح لذلك الإمام الألوسي في قوله:" وَهُمْ عَلى صَلاتِهِمْ يُحافِظُونَ يحتمل أن يراد بالصلاة مطلق الطاعة مجازا أو اكتفى ببعضها الذي هو عماد الدين وعلم الإيمان ولذا أطلق على ذلك الإيمان مجازا"[٢]وهذا باب عجيب من أبواب الإعجاز القرآني في التعبير عن المعاني، ومن يتأمل الآية وترتيبها العجيب ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ يجد أن هذا الجزء من الآية مكون من ثلاثة أصناف الأول (الذين يؤمنون بالأخرة) وهذا الصنف أخرج من الناس المشركين، وأبقى ما عداهم من أهل الكتاب، والمؤمنين)، ثم يأتي القسم الثاني (يُؤْمِنُونَ بِهِ) أي يؤمنون بالقرآن ومن أنزل عليه، وهذا القسم أخرج أهل الكتاب، وأبقى المؤمنين، وأتي القسم الثالث ﴿وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾؛ ليمحص تلك الفئة المؤمنة فيخرج منهم المنافقين ويبقى المؤمنين حقا، وقد ألمح الإمام البقاعي لهذا الأمر من بعيد حيث يقول: "ولما تكرر وصف المنافقين بالتكاسل عن الصلاة جعل المحافظة عليها علماً على الإيمان فقال: ﴿ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ أي يحفظونها غاية الحفظ"[٣].

ولكن لماذا آثر النظم الحكيم استخدام تلك الصورة التعبيرية الدالة على عبادة الصلاة دون ما عداها؟

١ – يراجع تفسير الشعراوي :١٧/ ١٠٣٢٦

٢ – روح المعاني : ٤/ ٢١٠.

٣ – نظم الدرر: ٧/ ١٨٨.

لعل النظم الحكيم عبر بـ(الصلاة) لأنه أراد المعنى الواسع المقصود من هذه العبادة، فهذه الفئة التي يمدحها النظم ويثني عليها من صفتهم أنه يقع منهم المحافظة في كل ما يتعلق بعبادة الصلاة بشكل متجدد ومستمر دون كلل أو ملل، أو كسل أو فتور، فهذا التعبير يرسم لك لوحة كبيرة ترى من خلالها حرصهم على المحافظة على الطهارة والوضوء، وحرصهم على أوقاتها، ثم أركانها وخشوعها...، فالتعبير بالصلاة جعل صفة الاستمرار والتجدد المستفاد من التعبير بالفعل المضارع (يحافظون) تشمل كل عبادة الصلاة من أمور سابقة عليها كالوضوء والطهارة وستر العورة، وأمور لاحقة بها كالخشوع وإتمام القراءة والأركان والسنن، وأمور متراخية عنها كتحقق المرجو منها من الانتهاء عن الفحشاء والمنكر، وهذا المعنى لم يكن يتحقق بدون هذا التعبير القرآني، وهذا يتناسب مع أن هذا المقطع من المعنى كان من مقاصده إخراج طائفة المنافقين من مراد النص لأن المنافق يصلى وتجد منه خشوعا في بعض حالاتها خصوصا تلك الأمور التي يؤديها أمام أعين الناس، لكنه إذا ما خلا وجدت منه نفورا وكسلا وتضيعا فهو إن حافظ على شيء في الصلاة فإنه ضيع الكثير، وإن أقام ركنا ضيع أركانا، لهذا ناسب التعبير بقوله: ﴿ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ كما أن مجيء هذا الوصف بعد وصفهم بإيمانهم بالأخرة وما يتطلبه هذا الإيمان من إتيان بأعمال صالحة، ووصفهم بأنهم آمنوا بالقرآن وانتفعوا ببركته والتزموا بما تضمنه من أوامر ونواهي، كل ذلك كان داعيا إلى أن تقع العبادة منهم على أتم وجه وأحسن حال في منهجها وأفعالها وفي كل أجزائها وما يتعلق بها، وهذا أيضا يتناسب مع التعبير القرآني في هذا السياق.

ورد التعبير بالصلاة في حق المضيعين لها والمقصرين في حقها فقال سبحانه: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾ (سورة مريم: الآية: ٥٩)

ذكر النظم الحكيم الصلاة هنا بمعناه الرحب الواسع لتشخص حال هؤلاء المضيعين للصلاة تشخيصا دقيقا، فقد وقع منهم التفريط في الصلاة كلها بتركها أو تأخيرها عن وقتها والإخلال بحدودها فلم يحافظوا على إقامتها في أوقاتها، وضيعوا أركانها ولم يقوموا بِحُقُوقِهَا وخشوعها، ولم يتموا وضوءها، وركوعها وسجودها، وأخلوا بحدودها فوقع منهم التفريط في الصلاة وما يتعلق بها فضيعوها بالكلية، ولما كان هذا هو حالهم وعدهم الله بالعاقبة السيئة التي سيؤول إليها أمرهم جزاء لفعلهم فقال: ﴿فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾ وقد تعددت الأقوال في معنى الغي إلا أن جميعها يدل على سوء العاقبة فقيل : إنه واد في جهنم يستعيذ منه أوديتها[١]، وقيل الغي الشر فإن كلَّ شر عند العرب غيٌّ[٢]، ولعل النظم استعمل هذا اللفظ؛ ليحدث توسعة في المعنى ينتج عنها تخويفا شديدا ورهبة كبيرة تتناسب مع ما وقع من هؤلاء من أفعال، وناسب ذلك أيضا أن يأتي اللفظ نكرة، ومعلوم أن النكرة بناء يدل على التهويل وهذا يتناسب مع مقام التخويف، ولو خص النظم هذا السياق بفعل محدد من أفعال الصلاة فقال: (فخلف من عدهم خلف أضاعوا إقام الصلاة)، أو سماها بأحد أركانها كأن قال (أضاعوا قيامها، أو ركوعها ...) لفهم منه أنهم مضيعون لشيء دون ما عداه، إلا أن هؤلاء وقع منهم التفريط في كل ما يخص الصلاة فناسب ذلك التعبير بصورة تدل على اتساع جرمهم، وفرط تضيعهم .

١ – تفسير الكشاف: ٣/٢٦

٢ – إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم:٥/٢٧٢.

وورد التعبير بلفظ الصلاة في مقام حث النبي على أمر أهله بالصلاة، فقال سبحانه: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْئَلُكَ رِزْقاً نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعاقِبَةُ لِلتَّقْوىٰ﴾ (سورة طه الآية:١٣٢)

فالأمر هنا موجه للحث على فريضة الصلاة بكل ما يتعلق بها، فالنبي – ﷺ – طلب منه أن يأمر أهله بالمحافظة على الصلاة بمضمونها التام وتكوينها الكامل وذلك بأن يحسنوا طهورها، وأن يحافظوا على أوقاتها، وأن يستحضروا مكانتها وأن يتموا أركانها، وخشوعها وكل ما يتعلق بها، بل ويتعدى كل ذلك إلى التأكيد على تحقيق آثارها الطيبة في نفوسهم، وهذا ناسبه أن يعبر عن تلك العبادة في هذا السياق بـ(الصلاة)، ولما كان الأمر هنا للحث على المواظبة والاستمرار على هذا البناء المتكامل لتلك العبادة، صاحبه مشقة تحتاج إلى صبر من الداعي إليها و من المدعو؛ لهذا أتى بقوله: ﴿ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾ أي وداوم عليها "فالصبر مجاز مرسل عن المداومة لأنها لازم معناه"[1]، وهذا يتناسب مع التعبير بالصلاة التي كشفت عن أعباء هذا الطلب، ولو خصص النظم الأمر بالسجود أو الركوع، لانتهى المعنى عند ذلك بما يحمله من دلالات لفظية وسياقية، ولو أتى بإقام الصلاة، لتوهم أن الأمر يدور حول الحث على كيفية الأداء فحسب، لكن لما عبر بالصلاة اتسعت الدلالة، حتى شملت الصلاة وما يتعلق بها قبل الأداء، وما يتعلق بها بعد الأداء.

ورد التعبير بلفظ الصلاة في مقام التنويه بالصلاة وبيان مزيتها وما تحدثه من صلاح نفسي، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ (سورة العنكبوت الآية:٤٥)

١ – روح المعاني:٨/ ٥٩٢

يوضح النظم هنا ما للصلاة من أثر على الفرد والمجتمع، وبتأمل البناء التركيبي لهذا التعبير القرآني تجد أنه بدأ بالتأكيد بـ(إن) وإسمية الجملة، وهذا التأكيد يدل على فخامة أمر الصلاة وعظيم شأنها، كما أن التوكيد أوقع المعنى المراد مؤكدا في نفس المخاطبين؛ لأن كثيرا من الناس يغفلون عن تلك الحقيقة أو يجهلون مهيتها؛ لذا شخصها البيان القرآني وجعل الألفاظ تنطق بالمراد منها حيث جعل الصلاة كواعظ ينهى عن الفحشاء والمنكر وذلك عن طريق الاستعارة المكنية التي أحدثت ثراء في الدلالة الناتجة من هذا التعبير، وجعلت من الصلاة مصب المعنى ورأسه، لهذا استعمل النظم من الألفاظ الدالة على عبادة الصلاة أوسعها دلالة، حتى تصف المعنى بدقة وتدل على المراد بعناية، فدلت على أن المراد هنا يشمل كل الأقوال والأعمال القلبية والحسية، بل وأعمال الصلاة القبلية كالطهارة والاستعداد للوقوف بين يدي الله...، كل هذه الأعمال من شأنها أن تصد عن الفحشاء والمنكر، فليس الصد مقصورا على أمر محدد في الصلاة، بل إن الصلاة بكل ما تشتمله تحجب الإنسان عن الوقوع في الفحشاء والمنكر، فإذا أتى الأنسان بمجموع أعمالها وحافظ عليها واستوفى شروطها كانت له كالواعظ الناهي ووجد فيها المسلم درعا حصينا يحميه، والناس في هذا الأمر متفاوتون فإذا حافظ الإنسان على صلاته بمعناها الكامل وبكل مقتضياتها ضاقت لديه المنافذ المفتوحة للنفس وللشيطان، وإذا لم يبلغوا في صلاتهم هذا القدر، فلا مناص من وقوعهم في الأخطاء والمنكرات، فعلى قدر ما يبلغه الإنسان مع صلاته من درجات التمام يكون بعيدا عن المنكرات. وبقدر جهاده لنفسه لتمام تلك الفريضة تصبح هذه الصلاة بأبعادها العميقة عاملاً مهمًا في توجيه سلوك صاحبها، وتسديد خطاه، وضبط توجيهاته وصده عن كل منكر؛ لهذا تجد التعبير بالفعل (تنهى) وقد انسجم مع المعنى حيث أتى على صورة المضارع الدال على التجدد والاستمرار؛ ليدل على أن هذه الخصيصة لها مع صاحبها لهذا كان التعبير بـ(الصلاة) هنا مناسبا للسياق والمقام.

وورد التعبير بلفظ الصلاة في حديث القرآن عن صلاة الجمعة، حيث يقول تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (سورة الجمعة: ١٠)

من المعلوم أن هذه الآية وردت في سياق علاج حادثة قد وقعت في صلاة الجمعة حيث انفض جماعة من المسلمين من حول رسول الله –صلى الله عليه وسلم – وهو قائم يخطب يوم الجمعة؛ فنزلت تلك الآيات تلومهم على ما صدر منهم وتبين لهم ما يجب عليهم فعله؛ لهذا سبقت هذه الآية بنداء (يا أيها الذين آمنوا) تلاه أمر (فاسعوا، وذروا ...) وهذا التركيب الأسلوبي غالبا ما يستخدم في الأمور المهمة إذ إنه يعطي الأسلوب قوة، من حيث إن النداء يوقظ العقل ويلفت الذهن فيحدث تهيئة للأمر المراد حتى إذا سمع المخاطب الأمر تلقاه بحسه الواعي ونفسه المهيأة، ومن الواضح هنا أن الناس كانوا قد شغلت نفوسهم بالتجارة والبيع حتى كادت تلههم عن أداء صلاة الجمعة، فأراد النظم الحكيم أن يصحح وجهتهم، وحتى لا يقع من جماعة المؤمنين تفريط في أي جزء من أجزاء الجمعة جاء البناء التركيبي في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ في صورة محكمة؛ ليدفع به توهم غير المراد عند المخاطبين لما وجد في نفوسهم من حب للتجارة وانشغال بالبيع مما قد يجعلهم يتركون شيئا من متعلقات صلاة الجمعة ظنا منهم أنها ليست من الأمور المطلوبة، لهذا جاء البناء في صورة الشرط المصدر بـ (إذا) الدالة على تحقق الوقوع؛ ليؤكد على أن فعل الشرط لا بد أن يكون منهم متحققا، وأتى بفعل الشرط متناغما مع دلالة التحقيق زمنا وبنية حيث أتى في صورة الماضي الدال على التحقيق؛ ليتناغم مع (إذا) في الدلالة على القطع بالحدوث، واستعمل الفعل

(قضى) وهو ذو بنية معجمية تحمل دلالات تتناسب مع المعنى المراد، إذ إن معناها: إحكام أمر وإتقانه وإنفاذه لجهته[١]، وورد في لسان العرب أن قَضى في اللغة على ضُروب كلُّها ترجع إلى معنى انْقِطاعِ الشيء وتَمامِه [٢]؛ وعلى هذا فإن الدلالة المعجمية قد أكدت المعنى المراد ودلت على أن المطلوب هو إتمام المأمور به إتماما متقنا كاملا، وما زال الفعل يدلي بعطاءاته فتراه قد أتى على صيغة المبنى لما لم يسم فاعله؛ فقال (فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ) وهذا هو الموضع الوحيد الذي بني فيه فعل القضاء لما لم يسم فاعلة مع العبادة فلم يقل: فإذا قضيتم الصلاة، وكأن النظم أتى به على تلك الحالة؛ ليحمل بين طياته معان نفسية مكنونة داخل التعبير القرآني ممتزجة بالمعاني المستنبطة من دلالة اللفظ، ومن تلك المعاني حرص النظم على بيان خصوصية لتلك الصلاة تمتاز بها عن غيرها من الصلوات وهي أن الانتهاء التام من صلاة الجمعة ليس مقصورا على ما يقوم به الفرد فحسب بل إنه موقوف على ما يقوم به وغيره، وكأنه ينبههم إلى خطبة الجمعة وأنها جزء لا يتجزأ من صلاة الجمعة والتمام لا يتحقق إلا بالخطبة والصلاة معا، وهذا الاتساع في المعنى ناسبه التعبير بكلمة (الصلاة) لما تدل عليه من دلالة تتسع لأركانها وسننها وواجباتها وخشوعها بل ومقدماتها بما يدخل فيه الطهارة والخطبة، فإذا تحقق مجموع هذه الأمور أبيح لهم الانتشار في الأرض والسعي على الرزق .

ومن مواضع التعبير عن عبادة الصلاة بـ(الصلاة) قوله تعالى:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (٢٢) الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ (٢٣) وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ

(١) معجم مقاييس اللغة، مادة (ق ض و)

(٢) لسان العرب: (قضى)

حَقٌّ مَعْلُومٌ (٢٤) لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (٢٥) وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (٢٦) وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (٢٧) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (٢٨) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٢٩) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٣٠) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٣١) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٣٢) وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ (٣٣) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٣٤) ﴾ (سورة من الآية ١٩ : ٣٤)

وهذا الموضع تكرر فيه التعبير عن عبادة الصلاة مرتين وفي كلا المرتين استعمل النظم (الصلاة) إلا أنه في الموضع الأول وصفهم بأنهم على صلاتهم دائمون، وفي الثانية ذكر أنهم على صلاتهم يحافظون، وهذا التنوع في التعبير وراءه أسرار بلاغية، وللوقوف على هذا الأسرار يجب إمعان النظر في السياق الذي يتناول حالة من أحوال الإنسان وهي (الهلع) أي الحرص وقيل: الجزع وقلة الصبر، وقيل: هو أسوأ الجزع وأفحشه... يقال: رجل هلوع إذا كان لا يصبر على خير ولا شر حتى يفعل في كل واحد منهما غير الحق[١]، لهذا فصل حاله وذكر صفاته في قوله: ﴿ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾ فالجزوع "ضد الصبور، والجزع نقيض الصبر"[٢]، وتأمل الأسلوب القرآني ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ وكيف أوجد في النفسي شعورا بأن هذه الصفات قد عمت كل إنسان فلا يخلو منها أحد ، وهذا يحدث جزعا في النفوس، فإذا سمعت الآذن الاستثناء تشوقت النفس لما بعده، فإذا ما سمعته ووجدت فيه طريق الخلاص تمسكت به وحرصت على العمل بما ورد فيه، وكان أول ما أتى بعد أداة الاستثناء (المصلين) ليرشد المتلقين أن أول طريق النجاة ومفتاح الفلاح هو أن تكون في زمرة المصلين الثابتين على هذا الوصف ، ولما ذكر الإنسان حالتين من أحوال

١ – لسان العرب: مادة (هـ ل ع)

٢ – السابق مادة : (ج ز ع)

الإنسان جمعتا كل وقته وكل أحواله فالإنسان إما في خير فيمنع، وإما في شر فيجزع، فذكر الدواء النافع لهذا الداء العضال وهو المداومة على الصلاة، فقال : ﴿ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ والدواء هنا يتمثل في أن يشغل الإنسان نفسه بتلك العبادة فيداوم عليها ويواظب على أدائها ويحافظ على أوقاتها، فلا يضيع لها وقتا ولا يؤخر لها أداء، ولا يشتغل عنها بشيء من الشواغل، فإن فعل ذلك شغلت تلك العبادة جزءا من وقته وهذبت من خلقه فلا تراه ذا هلع شديد، ولا تراه في جزع ولا منع

وآثر التعبير بـ(الصلاة) دون أن يخصص بالذكر أحد أركانها الدال عليها، أو يأتي مع الصلاة بما بجعل المقصود من الحديث شيئا محددا فيها؛ ليدل على أن موطن الدواء لا يكمن في المداومة على جزء من أجزاء الصلاة ولا الإتيان بركن من أركانها، بل يحصل بالمداومة على كل مقتضياتها السابقة عليها واللاحقة بها، والمتراخية عنها.

لكن لماذا أتي بقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ بعد ﴿ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ ؟

لما وصف القرآن الكريم هذه الطائفة الصالحة بصفات تحمل صاحبها على النجاة من الهلاك دل على أن "أضداد هذه المذكورات نقائص مهلكات، وكانت الأنفس – لما لها من النقص – نزاعة إلى النقائص ميالة إلى الدسائس، ذكر سبحانه بالدواء المبرئ من كل داء، فقال مشيرًا إلى حفظ أحوال الصلاة وأوصافها بعد ذكر الحفظ لذواتها وأعيانها تنبيهاً على شدة الاهتمام بها"[1]، وعلى هذا فقد جاء قوله: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ مؤكدا لقوله: ﴿ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾، وهذا التأكيد فيه زيادة في الدلالة حيث أرشد المتلقين إلى أن من السبل المرجوة للنجاة هو أن يدرب الإنسان نفسه على المحافظة على

١ – نظم الدرر: ٢٠/ ٤٠٩.

الصلاة بكل مقاصدها السابقة عليها واللاحقة بها ، والمتراخية عنها، وفرق بين المداومة والمحافظة، فالمداومة تُعْنَى بالأوقات، ومعلوم أن المحافظة على أوقات الصلاة لابد أن يكون أمرا ثابتا لا تهاون فيه فناسب ذلك التعبير بالاسم الدال على الثبوت، أما المحافظة على أركانها وآدابها وخشوعها وشروطها واستكمال فرائضها وسننها ومستحباتها ومتمماتها في ظواهرها وبواطنها من الخضوع والمراقبة وكل مقاصدها فهو أمر يحتاج إلى تدريب ومجاهدة نفس، حتى يؤتى بها على أكمل الوجوه، فقد يغفل الإنسان عن جانب من هذه الجوانب، ويتفاوت في إتقان أدائها بحسب الأحوال والظروف، فتراه تارة يحسن الوضوء ويقل خشوعه، وتارة يحسن خشوعها لكن لا يصبغ الوضوء فالأمر في ذلك في سجال بين تجدد واستمرار لذلك ناسبه التعبير بالمضارع (يحافظون)، ومن هنا تجد أن القرآن يفرق بين ما تطيقه النفس ومالا تطيقه، فالحفاظ على الأوقات أمر تطبقه النفس ولا تجد فيه مجاهدة فلزم التعبير عنه بالاسم، أما أن يحافظ الإنسان على الصلاة بكل ما تتعلق به خشوعا وإتماما على الوجه الكامل فهذا ما لا تطيقه النفس بل تجد فيه عناء ومشقة وتحتاج معه للمجاهدة والتجدد في الفعل والاستمرار في العزم فناسبه التعبير بالفعل المضارع.

كما أن القرآن فرق بين الأمر الثابت والأمر المتغير في العبادة الواحدة بتعدد صور المعنى، فمعلوم أن أوقات الصلاة ثابتة معلومة، فناسبها التعبير بالصيغة الاسمية التي تدل على الثبات لمناسبتها لثبات الوقت، أما المحافظة على الصلاة وما يتعلق بها والإتيان بخشوعها وأركانها وواجباتها وسننها فهذا أمر نسبي يتغير من إنسان لإنسان، بل يتغير مع الشخص الواحد من حال إلى حال، فليس من صلى في خوف كمن صلى في أمن كمن صلى وهو مطمئن.

التعبير بصيغة الجمع : (صلوات)

ورد هذا التعبير مرتين في القرآن الكريم وهما على النحو الآتي:

الموضع الأول : قوله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾ (سورة البقرة: ٢٣٨)

من المعلوم أن اختيار صيغة الجمع أو المفرد في الحديث عن الصلاة في القرآن الكريم ليس اختيارًا عشوائيًا، بل هو اختيار دقيق يحمل في طياته معانٍ بلاغية وروحانية عميقة، فكل صيغة تحمل دلالة خاصة تتناسب مع السياق العام للآية والأهداف التي تسعى إلى تحقيقها، وهذه الآية وردت في سياق الحديث عن الحياة الزوجية وما يعتريها من منغصات ومشتتات جديرة بأن تحدث للإنسان" فتنا وبلايا ومحنا يضيق عنها نطاق الحصر ويكون بعضها مظنة للتهاون بالصلاة "[(١)]، فعبر بصيغة الجمع؛ للتنبيه على إرادة الشمول حيث يشير استخدام الجمع هنا إلى جميع الصلوات الخمس حتى لا يقع من الإنسان الذي حاصرته المحن تهاونا في أي صلاة من الخمس، ولو عبر بصيغة المفرد "الصلاة"، لكان المعنى مقصوراً على جانب معين من الصلاة وهو المحافظة على جودة أدائها دون التأكيد على المحافظة على أداء الصلوات الخمس، ولكن صيغة الجمع "الصلوات أدت إلى توسيع المعنى وأضفت عليه عمقًا حيث حثت المؤمن على تحقيق التكامل في العبادة، والمحافظة على جميع الصلوات، كما أن التعبير بلفظ (الصلاة) فيه تنبيه على أن الإنسان ينغي عليه ألا يجعل من تلك الأحوال الدنيوية ولا من اشتغاله بما يكافح من شدائد الدنيا، مدخلا للشيطان يفسد عليه به تمام صلاته وما يتعلق بها، فعبر بصيغة الصلاة الدالة على شمول العبادة؛ ليجتمع لهذا التعبير دلالة التأكيد على الحفاظ على كل الصلوات عددا،

(١) نظم الدرر: ٣/ ٣٥٩

والحفاظ على الأداء كيفية، كما أن التعبير بصيغة الصلاة جمعا في هذا السياق له أثر نفسي ودلالة تربوية تدفع المؤمن إلى الالتزام بجميع أوقات الصلاة وأركانها، وتزرع في النفس الشعور بأهمية المحافظة على الصلاة في استقرار الحياة عامة والحياة الزوجية خاصة، حيث دل السياق على أن الاشتجار المذكور بين الأزواج إنما وقع من تضييع المحافظة على الصلوات إما في ذاتها وخشوعها..، وإما في التهاون في أداء واحدة من هذه الصلوات كأن يتهاون في أداء الفجر أو الظهر ونحو ذلك فكان الأمر بالمحافظة على الصلوات عددا وكيفية؛ "لتجري أمورهم على سداد يغنيهم عن الارتباك في جملة هذه الأحكام .. وبذلك كانت المحافظة على الصلوات ملاكاً لصلاح أحوال الخلق مع أزواجهم في جميع أحوالهم"(١)؛ لأنها تهب للمؤمنين الاطمئنان والخشوع والراحة، وتسهم في تحقيق التوازن النفسي والروحي للإنسان.

وعلى ذلك يكون التعبير بالجمع هنا أتى للإشارة إلى دلالات لا يمكن للمفرد أن يؤديها ومن هذه الدلالات أنه أراد أن يشير إلى أن معالجة المقام هنا تقتضي الاهتمام بجميع الصلوات عددا وكيفية وهذا يؤدى بالجمع دون المفرد، كما أن النظم أراد أن يؤكد على أهمية الصلوات جميعها ثم يؤكد على أهمية الصلاة الوسطى وهذا لم يكن يتحقق إلا بذكر ما يدل على الصلوات الخمسة جملة (الصلوات) ثم يتلوها بما يشير إلى الصلاة الوسطى مفردة؛ ليدخل في ذكر الخاص بعد العام، وقد استنبط الإمام الرازي أن المقصود بالصلوات هنا هي الخمس المعروفة حيث يقول: "حافظوا على الصلوات يدل على الثلاثة من حيث إن أقل الجمع ثلاثة، ثم إن قوله تعالى: (والصلاة الوسطى) يدل على شيء أزيد من الثلاثة، وإلا لزم التكرار، والأصل عدمه، ثم ذلك الزائد يمتنع أن يكون أربعة،

(١) نظم الدرر: ٣/٣٦١ و ٣٦٤

وإلا فليس لها وسطى، فلا بد وأن ينضم إلى تلك الثلاثة عدد آخر يحصل به للمجموع وسط، وأقل ذلك أن يكون خمسة، فهذه الآية دالة على وجوب الصلوات الخمسة بهذا الطريق"[١]، وناسب ذلك التعبير بـ(حافظوا) الذي يشير إلى المداومة والتكرار" فحفظ الصلاة المرة بعد المرة على الاستمرار عبارة عن الإتيان بها كل مرة كاملة الشرائط والأركان العملية، كاملة الآداب والمعاني القلبية، فالشيء الذي يتعاهد بالحفظ دائما هو الذي لا يلحقه النقص وإلا لم يكن محفوظا دائما"[٢]، وهذا يؤكد على أهمية المحافظة على الصلاة بانتظام ودون انقطاع، إذ إن المحافظة عليها ليست عملاً عابراً بل يجب أن يكون منهج حياة حتى تستقيم معها كل مقومات الحياة.

<u>الموضع الثاني</u>: قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ (سورة المؤمنون، الآية:٩)

وردت هذه الآية في سياق ذكر أوصاف المؤمنين، ومن الملاحظ أن هذا السياق يتشابه مع سياق سورة المعارج حيث ذكرت الصلاة مرتين في كلا السورتين، ولكن في سورة المؤمنون استعمل صيغة الجمع في قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ أما في سورة المعارج فقد وردت بصيغة الإفراد في قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾، ولتوضيح الفرق بين الاستخدامين والكشف عن الحكمة البلاغية من مجيء الصلاة بصيغة الجمع في سورة المؤمنين، ينبغي أن ينظر للآيتين في ضوء السياق العام لكل سورة، والأهداف التي تسعى كل آية إلى تحقيقها داخل سياقها، وأول ما يرعى الانتباه أن أصحاب الصفات المذكورة في كلا السورتين بينهما تفاوت في الوصف

(١) مفاتيح الغيب: ٦/ ٤٨٢.

(٢) تفسير المنار:٢/٣٤٦ .

والجزاء، فسياق سورة المؤمنون يتحدث عن صفات المؤمنين الذين ثبت لهم الفلاح وقد أتى مفتتح السورة مشيرا إلى فضل تلك الفئة المؤمنة التي اختصها بالحديث فقال: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ وهو "افتتاح بديعي؛ لأنه من جوامع الكلم فإن الفلاح غاية كل ساع إلى عمله، فالإخبار بفلاح المؤمنين دون ذكر متعلق بفعل الفلاح يقتضي في المقام الخطابي تعميم ما به الفلاح المطلوب، فكأنه قيل: قد أفلح المؤمنون في كل ما رغبوا فيه"[1] وهذا يدل على عظيم فعلهم ورفعة شأنهم ورسوخ إيمانهم؛ لهذا وصفهم النظم بصفات دقيقة قيل عنها: إنها" أجمع ما ذكر في وصف المؤمنين" [2] حيث جمعت "أصول التقوى الشرعية لأنها أتت على أعسر ما تراض له النفس من أعمال القلب والجوارح"[3]، وهذا جعل النظم يفخم لتلك الفئة الجزاء، ويخصص لهم أعلى منازل الجنان فآثرهم بالفردوس فقال: ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ولبيان عظيم أجرهم استعمل النظم اسم الإشارة "{أولئك}؛ للإشعار بامتيازهم بها عن غيرهم ونزولهم منزلة المُشار إليه حِسًّا وما فيه من معنى البُعد للإيذانِ بعلوِّ طبقتِهم وبُعدِ درجتهم في الفضل والشَّرفِ"[4]، وتوسيط ضمير الفصل(هم) لتقوية الخبر عن تلك الفئة، وبنى النظم الثواب على طريقة التشويق والإبهام، فقال: (أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ) حاذفا معمول (الوارثون)؛ ليحصل بهذا الحذف إبهاما يأخذ بالأسماع لترقب ما يرثونه، ليأتي قوله: ﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ مفسرا وموضحا ما أبهم، وفي هذا تفخيم لشأن ثوابهم وبيان لجلال قدرهم، وقد

(١) التحرير والتنوير: ١٨/ ٨ .
(٢) نظم الدرر: ١٣/ ١١٠ . .
(٣) التحرير والتنوير: ١٨/١٨.
(٤) إرشاد العقل السليم : ١٣/ ١١٠ .

خص النظم تلك الفئة بأمرين (الفردوس) وهو أعلى منازل الجنة، و(الخلود) وبه تستقر النفوس وتهدأ القلوب، وبهذا فقد جمع لهم من الثواب أعظمه ومن العطاء أجزله، ولما كانت هذه هي المنزلة التي أعدها الله لهؤلاء فقد جمع لهم من الأعمال أتمها، ومن الأوصاف أكملها، وهذا يكشف عن سر المغايرة في التعبير عن الصلاة في صدر الأوصاف وعجزها، ويأخذ بأيدينا نحو سر من أسرار اختصاص النظم لهذا السياق بالتعبير عن الصلاة تارة بصيغة الإفراد، وتارة بصيغة الجمع، وهذا الأمر لا يعد من باب التكرار بل تجد لكل موضع دلالة فالخشوع في الصلاة، غير المحافظة عليها فهما متغايران، وبهذا يجمع لهذه الطائفة الخشوع في كيفية الأداء، والمحافظة على عدد الصلوات؛ كما أنه فصل كلا الموضعين للإشارة إلى أن لكل صفة منهما فضيلةٌ مستقلَّةٌ يقول الإمام الزمخشري: "فإن قلت: كيف كرّر ذكر الصلاة أوّلا وآخرا؟ قلت: هما ذكران مختلفان فليس بتكرير، وصفوا أوّلا بالخشوع في صلاتهم، وآخرا بالمحافظة عليها، وذلك أن لا يسهوا عنها، ويؤدّوها في أوقاتها، ويقيموا أركانها، ويوكلوا نفوسهم بالاهتمام بها وبما ينبغي أن تتمّ به أوصافها، وأيضا فقد وحدت أوّلا ليفاد الخشوع في جنس الصلاة أي صلاة كانت، وجمعت آخرا لتفاد المحافظة على أعدادها: وهي الصلوات الخمس، والوتر، والسنن المرتبة مع كل صلاة وصلاة الجمعة، والعيدين والجنازة، والاستسقاء، والكسوف ...، وغيرها من النوافل"[(١)]، وخالف في الوصفين ليجمع لهم تمام الأداء، لأن" الخشوع صفة للمصلي في حال الأداء لصلاته... والمحافظة التعهد لشروطها من وقت وطهارة وغيرهما والقيام على أركانها وإتمامها حتى يكون ذلك دأبه في كل وقت"[(٢)]

(١) – الكشاف: ٣/ ١٧٧.

(٢) مفاتيح الغيب: ٢٣/ ٢٦٣

أما سور المعارج فإن الصنف المذكور أقل درجة ممن ذكروا في سورة المؤمنون، لأن السياق لم يأت خالصا لذكر أوصاف المؤمنين بل إنه يتحدث عن فئة استثناهم الله قوله: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا (٢١) ﴾(سورة المعارج)؛ لهذا فإن جزاء تلك الصفة كان أقل من جزاء الفئة المذكورة في سورة المؤمنين، فهناك وعد بميراث، أي عطاء وزيادة، والموروث ليس أي جنة بل هو أعلى الجنان وأطيبها وهو جنة الفردوس، ووعدهم فيها بالخلد، أما هنا فالجزاء (جنات مكرمون)، لهذا كانت أعمال الطائفة المذكورة في سورة المعارج وما اتصفوا به من صفات لا يرتقي لما اتصفت به الطائفة المذكورة في سورة المؤمنين فأتي في سورة المؤمنون بالصفات الأكمل والأشمل، وناسب ذلك ذكر الصلاة مفردة مرة، وجمعا مرة؛ ليجمع لهم التمام في الفعل والعدد.

الفصل الثاني

التعبير عن عبادة الصلاة بالمجاز صوره، وأسراره البلاغية

التعبير عن عبادة الصلاة بالمجاز صوره، وأسراره البلاغية

من الصور التي عبر بها القرآن الكريم عن الصلاة، المجاز فتراه في كثير من المواضع يعدل عَنْ لَفْظِ الصَّلاةِ الَّذِي هو كالِاسْمِ لَها إلى التَّعْبِيرِ عَنْها بِطَرِيقِ المجاز ومن المعلوم أن هذا العدول لابد أن يكون له سبب وقصد على دلالة معينة تظهر في بنية السياق العميقة، وتتميز عن الدلالة التي تفهم من التعبير بالحقيقة وتظهر في بنيته السطحية، ومعلوم أنه لا يعدل من الحقيقة إلى المجاز في فصيح الكلام إلا لسر بلاغي يقتضيه المقام ويسوقه إلى الخروج من دلالته الأصلية إلى دلالات فرعية.

التجوز عن الصلاة بـ(القيام)

وما ورد في الذكر الحكيم من تعبيرات دالة على عبادة الصلاة التعبير بـ(القيام) والبحث يحاول التنقيب عن سر هذا التعبير بغية الإجابة عن أسباب العدول إلى التعبير بالقيام، في المواضع التي وردت فيها؟

والمتأمل للمواضع التي عبر فيها القرآن بالقيام عن الصلاة وهي

م	الآيـــــــــــــــــــة	السورة	رقم لآية
١	﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ	**التوبة**	١٠٨
٢	أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾		
٣	﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾	**الحج**	٢٦
٤	﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴾	**الشعراء**	٢١٨
٥	﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾	**الطور**	٤٨
٦	﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾	**المزمل**	٢
٧	﴿۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ ﴾	**المزمل**	٢٠

يجد أن كل الآيات جاءت خطابا للنبي ـ ﷺ ـ إلا موضع الحج الذي أتى الخطاب فيه لسيدنا إبراهيم – عليه السلام – .

١- ما جاء خطابا للنبي – ﷺ-

من الملاحظ أن المواضع التي جاءت خطابا للنبي – ﷺ – كلها أتت على الصورة الفعلية؛ حيث وردت خمس مرات في صورة الفعل المضارع ، ومرة واحدة في صورة فعل الأمر

أولا: ما أتى على صيغة المضارعة

الموضع الأول والثاني:

ومن بدائع النظم في هذا الباب، قوله تعالى: ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾(التوبة : ١٠٨)، وردت هذه الآية في سياق الحديث عن مسجد الضرار الذي بناه المنافقون؛ ليتخذوا منه معقلا لهم لمحاربة الله ورسوله وشقا لصف المؤمنين وتفريقا لوحدتهم، وقد كشف النظم الحكيم لنبيه الكريم حقيقة هذا البناء الواهي كاشفا القناع عن تلك المؤامرة التي تعد من أعجب ما تفتقت عنه حيل المنافقين في مكرهم وكيدهم للإسلام والمسلمين حيث حاولوا هدم الدين من الداخل، وإلى تقويضه من خلال إقامة ما يشبه مؤسساته اسمًا ورَسْمًا، ولما كانت هذه الطريقة أشد نكالاً في إنزال الهزيمة بالحق، فقد أحكم النظم الحكيم هدم تلك المؤامرة، فعبر عن مسجدهم بلفظ النكرة؛ للتحقير من شأنه فهم ما اتخذوه إلا لأغراض فاسدة كشف أمرها النظم الحكيم بمصادر متتابعة :(ضرار ، وكفرا ، وتفريقا ، وإرصادا)؛ للمبالغة في بيان تلك العلل التي دفعتهم لبناء هذا المسجد، وقد كشفت الآية عن إصرارهم الشديد على فعلهم الخبيث وموقفهم الذميم فعبر بلفظ الماضي في الأفعال (اتخذوا، و حارب ، وأردنا) وهذه الأفعال تدل على مدى إصرارهم على موقفهم وأنهم قد بيتوا النية لهذا المكر منذ زمن بعيد، لهذا أتي النهي للنبي ـ ﷺ – عن

الصلاة في هذا المسجد في صورة جامعة مانعة نسجت في ألفظ موجزة وعبارة محكمة وصورة ذات دلالات موحية وذلك في قوله تعالى : ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ وتأمل كيف استطاع النظم أن يوجه النهي إلى بؤرة المعنى ليسبر أغوار القضية، ويأتي على آخرها، فإذا كانت الدلالة السطحية توحي بأن المقصود بالنهي هنا هو النهي عن الصلاة في هذا المسجد إلا أن العدول إلى المجاز المرسل جعل النهي متسلطا على بنية عميقة ودلالة غير الدلالة العامة، فجعل النهي يتوجه إلى القيام وكأنه يريد أن ينبه المخاطب إلى أن مركز الاهتمام الذي يجب أن يُبذل له كل التركيز والرعاية والاعتناء في هذا السياق إنما هو النهي عن القيام، لكن لماذا كان النهي عن القيام هو محور الاهتمام دون السجود أو الركوع أو نحو ذلك؟

لعل السبب في ذلك هو إرادة المبالغة في النهي عن الصلاة في هذا المسجد، فوجه النهي للقيام؛ لأنه أول ما تبدأ به الصلاة وإذا أتى النهى عن مقدمات الشيء وأوله انسحب بالتبعية على الشيء نفسه إلى آخره، كما أن اختصاص القيام بالنهي فيه مزيد تنبيه للنبي – صلى الله عليه وسلم – إذ إنه لو أتى النهى موجها للصلاة لاحتمل أن يكون فيه إباحة لدخول المسجد والجلوس فيه، فأتى النهى عن القيام المطلق؛ ليتضمن النهي عَنِ الصلاة وغيرها كدخول المسجد والمكوث فيه؛ لذلك جاء السياق" مُؤَكَّدا بِلَفْظِ الْأَبَدِ الَّذِي يَسْتَغْرِقُ الزَّمَنَ الْمُسْتَقْبَلَ"[1] فهو ظرف زمان مبهم لا عموم فيه ولكنه عندما اتصل بلا النافية أفاد العموم ؛ لهذا فقد روي أن رسول الله – ﷺ – لما نزلت هذه الآية كان لا يمر بالطريق التي فيها هذا المسجد[2]، كما أن عدم وقوع النهي على

١. تفسير المنار: ٨ / ١٨٢

٢. الجامع لأحكام القرآن: ٤ / ١٧٩ : ١٨٠

الصلاة هنا فيه إشارة إلى بيان حقيقة ما بنوه وأن هذا البناء لم يتخذ في أصله للصلاة، لهذا كان النهي للقيام فيه، ولو أن النظم أتى بالنهي مسلطا على (الصلاة) فقال: ولا تصل فيه، لكان فيه تصريح بأنه مكان يصلح للصلاة، لكنه لما عدل إلى (لا تقم فيه) كان أبلغ في هدم هذا البنيان وأبلغ في النهي عن الصلاة فيه، وكأن النبي لم يكن ليصلي فيه وإنما كان من الممكن أن يذهب إليه ليحدث أهله أو يجالسهم، فكان النهي عن ذلك أيضا، وبهذا فقد سلب عن بنيانهم وصف المسجدية فصارت الصلاة فيه باطلة .

ومن يراجع مادة (ق و م) يجد أن اختيار النظم لهذه المادة المعجمية في هذا الموضع قد طوى وراءه من جليل المعاني وولد في السياق دلالات متعددة كلها تدور في أفق المبالغة في النهي عن الصلاة في هذا المسجد وتسبح في فلك التحذير من الاستجابة لدعوة هؤلاء المنافقين إلى الحضور لهذا البناء، وتدور في مدار هدم مكائدهم التي نسجوا خيوطها تفرقة لوحدة صف الأمة، ويرجع ذلك إلى قدرة هذا الجذر على التعبير عن معان متعددة تؤدي وظائف دلالية في السياق، تؤثر في توجيه المخاطب وتدفعه إلى تأدية المراد كما ينبغي أن يكون، ومن هذه المعاني (العزم)[١] وهذا المعنى يجعل الدلالة العميقة للسياق تتسع لتشمل النهي عن العزم على أداء أي عبادة فيه فيكون النهي للفعل ومن قبله النهي عن العزم على الفعل وهذ أبلغ في النهي، ومن معانيها أيضا (المجلس) [٢]، وهذا المعنى يجعل النهي يتوجه إلى أقل ما يمكن أن يفعله النبي – صلى الله عليه وسلم – في هذا المكان وهو أن يذهب إليه فيجلس فيه، وبهذا التعبير القرآني المعجز ترى كيف تعددت وجوه المعاني في هذه الآية الكريمة

١. لسان العرب: مادة (ق و م)

٢. السابق، مادة (ق و م)

بتعدد الدلالة المعجمية للفظ، ليأتي هذا البيان المعجز جامعا لكل ما يتراءى لظاهر النظر أنه مطابق لمتطلبات السياق ومراد المعنى.

وتأمل اصطفاء النظم للتعبير عن هذا المعنى بالفعل (تقوم) معتل العين وكيف سلط عليه (لا) الجازمة ليحدث فيه إعلال بالحذف (تقم)، والنظم هنا يسخر المستوى الصرفي لخدمة المعنى المراد وكأن النهي لم يكن الغرض منه هو عدم إتمام الحدث، وإنما غرضه عدم حدوث أي نوع من الاستجابة لهؤلاء المغرضين حتى ولو كانت استجابة ناقصة مبتورة، وعليه يكون النظم الحكيم قد وظف قوة المعاني التصويرية للفظة القرآنية التي توشحت بوشاح المجاز لتؤدي دورا بارزا في إظهار المقاصد القرآنية بدقة متناهية، داخل أسلوب بلاغي رفيع دل على مقاصده من أخصر طريق وأيسره، حتى إنك لترى أنه لو وضع الكلام بأية صورة غير الصورة التي عبر بها القرآن ما أدى هذا المؤدى.

ثم لما نهى النظم الحكيم النبي – ﷺ – عن أن يكون له أي صلة بهذا البناء الذي اتخذه المنافقون مسجدا، حثه على أن يقيم روابط الصلة بينه وبين مسجد قباء، وذلك في قوله تعالى :﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴾[التوبة: ١٠٨] ، هذا المسجد الذي أوضح الذكر الحكيم فضله وأعلى من شأنه في عبارة موجزة غنية بالعطاءات، فكان من المناسبة أن يحث نبيه على الاهتمام بأمره حتى يعلن للجميع أن ما يبنى لله – عز وجل– يجب أن يكون له مهابته بخلاف ما بني نفاقا، ومن تمام المناسبة أن عبر عن الصلاة في جانب مسجد قباء بالمجاز المرسل في قوله: ﴿أَنْ تَقُومَ فِيهِ ﴾؛ حيث تتم المقابلة بينه وبين النهى هناك فبين (لا تقم فيه) و(أن تقوم فيه) طباق سلب عمل على إثارة الذهن وجذب الانتباه للتدبر في عواقب الأمور وتقوية المعنى الذي عالجه النظم فكلا البنائين مسجدا لكن شتان بين هذا وذاك.

وكما أن النظم قد اهتم هناك بالمبالغة في عدم الاقتراب نحو هذا البناء، فقد اهتم هنا بالترغيب والحث على الاهتمام بمسجد قباء، ومن براعة النظم الحكيم أن المادة المعجمية التي استخدمها في ذم مسجد ضرار هي نفسها التي استخدمها في مدح مسجد قباء، وهي (ق و م)، بل إنه وضعها في نفس القالب التعبيري وهو المجاز المرسل الذي علاقته الجزئية، واستعمال القيام الذي هو بداية الصلاة فيه حث على الصلاة كلها؛ لأن الحث على المقدمات فيه حث على ما بعدها، كما أن إيثار (القيام) فيه حث على الاهتمام بهذا المكان وأهله إذ إنه لو جاء الحث على الصلاة بلفظ الصلاة؛ لتوهم أن الأمر للعناية بالصلاة فحسب، لكن جاء الحث على الإقامة التي يفهم من دلالاتها أن فيها حث على المكوث في المسجد مع أهله ورعاية شؤنهم والسماع لهم، ويؤكد ذلك مدحه لأهل المسجد بقوله: ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴾ ولعل هذا الثناء يشعر بتأكيد الحث على مجالستهم ومخالطتهم والسماع إليهم لا مجرد الصلاة في مسجدهم وهذا يتناسب مع التعبير بالقيام الذي من معانيه المكوث والاستقرار، لذا ورد في الصحيح : –أن رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ كان يَأْتي قُبَاءً رَاكِبًا وَمَاشِيًا[1]. .

<u>الموضع الثالث: قوله تعالى: ﴿ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ [الشعراء: ٢١٨]</u>

جاءت هذه الآية في إطار لوحة قرآنية بديعة مدادها تسلية النبي – ﷺ – والربط على قلبه، حيث أمره ربه أن يبلغ الرسالة لأهله وعشيرته فقال سبحانه

١ – من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، الجامع الصحيح المختصر(صحيح البخاري)، لمحمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري / (حديث رقم: ١١٣٦): ٣٩٩/١، تحقيق : د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير ، اليمامة – بيروت، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٧ – ١٩٨٧م .

وتعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ () وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ( ) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [الشعراء من ٢١٤: ٢١٦] ولما كان من المتوقع أن تقابل دعوته – ﷺ – بالرفض من أقرب الناس إليه، وهذا من شأنه أن يحدث ضيقا في صدره وحرجا من موقفهم، فكان من تمام التسلية والطمأنينة للرسول – ﷺ – أن يبلغه ربه بأنه بمحل عنايته فهو معه مطلع على أحواله يرى عبادته، وكلما كانت مدة العناية أطول كانت التسلية أجدر وأعظم؛ لذا صاغ النظم المعنى في صورة المجاز الذي زاد من معانى الألفاظ والتراكيب، وأحدث لها نماء في الدلالة مع اختصار في الألفاظ، فدل بالتعبير عن الصلاة بالقيام على إحاطة رؤيته – سبحانه وتعالى – بالنبي – ﷺ من أول لحظة عزم فيها على القيام؛ وذلك لأن من معاني القيام العزم، ولو عبر بالحقيقة فقال: الذي يراك حين تصلي، لكان هذا التعبير ذا دلالة محدودة ولانحصرت مظاهر الرعاية والعناية الإلهية في مدة الصلاة، إلا أنه لما عدل إلى المجاز وعبر بالقيام أخرج المعنى من المحدودية الدلالية إلى دلالة أوسع استشراقا وأكثر عطاء، فأحدث اتساعا للمفهوم وتولدت دلالات جديدة ناسبت سياق التسلية، حتى ذكر بعضهم أن معنى﴿ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴾: أي "أينما كنت" [١]، وقيل ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ مِن نَوْمِكَ مِن فَرْشِكَ تارِكًا لِحُبِّكَ، لِأَجْلِ رِضا رَبِّكَ.[٢]، وبهذا ترى أن التعبير القرآني بما له من معان دلالية قد أغنى عن كثير من الكلمات التي كان يمكن الاحتياج إليها للتعبير عن نفس المعنى لو لم تستخدم تلك اللفظة القرآنية، وناسب اتساع تلك الدلالة التعبير بالأفعال المضارعة(يراك، تقوم) التي تدل على التجدد والاستمرار وهذا يدل على أن تلك العناية من الرب العلي لنبيه عناية

١. جامع البيان في تأويل القرآن: ١٩/ ٤١١

٢. نظم الدرر : ١٤/١١٠.

متجددة ومستمرة لا تنقطع عنه أبدا، وبهذا تجد أن هذه الآية تجمع كل مظاهر العناية الربانية التي اختص الله بها نبيه – ﷺ – في كل زمان ومكان إذ هو معه ويراه ويحفظه، وفي هذا كله تأكيد لتلك السمة الأسلوبية من سمات إعجاز القرآن الكريم، ألا وهي سمة الاتساع في المعاني عن طريق اختيار اللفظ الأوفى بالمراد.

الموضع الرابع : قوله تعالى:﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ **[الطور ، من الآية: ٢١٨]**

جاء في معنى قوله تعالى : ﴿حِينَ تَقُومُ ﴾أي : حين تصلي، فعبر عن الصلاة بركن من أركانها وهو القيام، ولكن لماذا آثر النظم الحكيم التعبير بالقيام عن الصلاة دون غيرها من التعبيرات الأخرى ؟

لعل السبب هنا أن هذا الموضع يلتقي مع الموضع السابق بأن فيه أيضا تسلية للنبي – ﷺ – على ما يلاقيه من أذى فقال له ربه مواسيا إياه: ﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ (الطور : ٢١٨) ولما أمره بالصبر أرشده إلى أن يداوم على التسبيح في كل حال وعلى أية حال، إذ إن تسبيح الله –تعالى– عون على الصبر والرضا وسبب من أسباب جلب معيّة الله تعالى وعزّته، والتعبير بالقيام وإن كان فيه اختزال للكل في صورة الجزء إلا أنه أدى إلى اتساع دلالة السياق، حيث إن لفظة (تقوم) جعلت أذهان المفسرين تسبح في كشف دلالات تلك اللفظة من خلال عطاءات السياق ومدلولات اللفظ المختلفة، فقيل: إنه عبر بالقيام وأراد الصلاة، ويكون التعبير بالقيام هنا فيه حث على جعل التسبيح يأخذ وقتا طويلا دون أن يقتصر على وقت الصلاة فحسب بحيث يشغل التسبيح أغلب أوقاته – ﷺ –خصوصا تلك الأوقات التي تتغشاها حالات الضيق والحزن؛ لأن التسبيح سبيل للخروج من تلك الأحوال النفسية التي تعتري الإنسان، وهو سبب لإزالة وهن النّفس ورفع الهمّة، وقد استعمل النظم الفعل الأمر (سبح)؛ للدلالة

على أهمية هذه المطلب وضرورة المسارعة إليه والتمسك به، وهذه دعوة لعامة الأمة فليس هذه الدواء النافع مما اختص به النبي – ﷺ – بل له ولأمته من بعده، وقيل:(حين تقوم) أي: من نومك ومن فراشك، وقيل: من كل مجلس[1]؛ وبهذا فقد اتسعت دلالة السياق لتردد اللفظة القرآنية بين الحمل على الحقيقة والمجاز؛ وذلك قد يؤتى به عند إرادة الحمل على كلا المعنيين الحقيقي والمجازي طلبا للاتساع في المعنى إذا ما اقتضاه السياق.

الموضع الخامس : قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيلِ وَنِصفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَة مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾ **[المزمل، من الآية :٢٠]**

نزلت هَذِهِ الآيَةَ لِلتَّخْفِيفِ عن النبي – ﷺ – وأمته، ولرفع الحرج عنهم لما شق على نفوس بعضهم من فرض قيام الليل عليهم، لذا حشد النظم الكريم عددا من الأدوات التعبيرية والوسائل اللغوية التي تجسد لطف الله بنبيه وأمته في تصوير حسن بديع، حيث أتى بالخبر مصدرا بـ(إن)؛ تأكيدا لهذا الخبر ورغبة في تقوية مضمونه عند المخاطبين وتقريره في نفوسهم، إذ إن المخاطب هو النبي – صلى الله عليه– وليس في نفسه شك من إخبار الله إليه، لكن أتى التوكيد لزيادة تقرير المعنى في نفسه – ﷺ – وهذا أبلغ في رفع الحرج الذي عبر عنه القرآن بقوله: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحصُوهُ فَتَابَ عَلَيكُم﴾ [المزمل، من الآية :٢٠)، وناسب ذلك التعبير بـ(رب) إذ إن من المعاني التي تدل عليها "المصلح للشيء، يقال: ربَّ فلان ضيعته، إذا قام على إصلاحها"[2]، فيكون المعنى ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ "أي المُدَبِّرَ لِأَمْرِكَ عَلى ما يَكُونُ إحْسانًا إلَيْكَ ورِفْقًا بِكَ وبِأُمَّتِكَ" [3]،وهذا يلقي في قلب

١. جامع البيان في تأويل القرآن:٢٢/٤٨٨.
٢. مقاييس اللغة : ٢/٣٨١.
٣. نظم الدرر:٢١/٢٩.

المخاطب مزيدا من الطمأنينة تجاه ما سيأتي بعدها، ويجعل الكلام ينزل على صدر سامعه كالماء البارد الزلال، وتأمل التعبير بالفعل المضارع في قَوْلِهِ تعالى: (يَعْلَمُ)؛ وما نثره على السياق من بيان أن ذلك العلم مستمر ومتجدد، ولما كان هذا الجزء من المعنى – أعنى علم الله بحال نبيه ومن معه وعنايته بهم – ذا شأن كبير فقد حرص النظم على إبرازه واستحضار صورته في مقام المشاهدة وكأنهم يطلعون عليه وتراه أعينهم فتقر به قلوبهم وتهدأ معه نفوسهم، وأتى بالتعبير عن صلاة الليل بقوله: (تقوم) وهذا التعبير وإن كان من باب إطلاق الجزء وإرادة الكل إلا أنه له طاقة تعبيرية استطاعت أن تجعل تلك المفردة ترفع الحرج عن النبي – ﷺ –؛ لأنها بينت للمخاطبين أن الله سبحانه وتعالى مطلع على عبادة نبيه ومن معه، ويعلم مقدار المشقة التي تحملوها، وهو الذي أمرهم بالفعل وهو من خفف عنهم، ولو أتى التعبير بغير ذلك فقال : (يعلم أنك تصلي من الليل) ما أظهر جانب المشقة الحاصل بالتعبير بالقيام، ولكان بين دلالة التعبير ومراده أمداً بعيدا وسَفَراً قاصدا.

وفي التعبير بالمضارع ما يدل على أنهم مواظبون على عبادتهم غير تاركين لها، كما أن فيه استحضار لصورة قيامه – ﷺ – على الوجه الذي أمر به في مفتتح الصورة الكريمة في قوله تعالى: ﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾وفي هذا إبراء لذمته – ﷺ – وتأكيدا على فعل ما أمر به، وفيه ربط لخاتمة السورة بأولها حيث عقد بين المعنيين رابطة ألفة ومحبة مما يلقي بظلال تربوية يزداد معها المعنى جمالا وقوة، هذه الظلال تحمل رسالة تقول لكل من يستجيب لنداء ربه ويطيع أمره ويكبح جماح نفسه ويتحمل مشاق العبادة: إن رب العالمين مطلع على فعله ومتولى صلاح أمره وسيرفع عنه ما أجهده، ولعل هذا الأمر فيه تسلية للنبي – ﷺ – ومن معه بأنهم سيلاقون أول الدعوة عناء ومشقة، إلا أن الله سيرفع ذلك عنهم ويخفف من وطأته عليهم.

ثانيا ما أتى على صورة الأمر: قوله تعالى: ﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (سورة المزمل، الآية:٢)

عبر النظم الحكيم عن صلاة الليل بالقيام؛ الذي هو جزء من الصلاة من باب التعبير بالجزء وإرادة الكل، وآثر النظم التعبير بالقيام هنا؛ لأنه هو الركن الذي تحدث به المشقة دون غيره في صلاة الليل، ومن يتأمل عبادة قيام الليل فهي عبادة لها شأن عظيم؛ لأنها بنيت على تحمل المشقة وترك الراحة وفراق الإلف والمحبوب، وهذه الأمور تنافي الطباع ويشق على النفوس فعلها، وبهذا يتناسب التعبير بالقيام الذي يحمل القدر الأكبر من المشقة؛ للدلالة على أهم ما يميز تلك العبادة التي أوضحها القرآن في قوله تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلٗا﴾ [المزمل ٦]، ومن يتأمل تلك الصورة التي اصطفاها النظم الحكيم للتعبير عن تلك العبادة يجد أنها تتناسب مع السياق العام للسورة الذي افتتح بنداء النبي – ﷺ – في قوله:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾ [المزمل: ١] حيث يأمره ربه أن يترك التزمل، وهو : التغطي في الليل، وينهض إلى القيام لربه –عز وجل – والتَّشَمُّرِ لِلعِبادَةِ، تمهيدا للقِيامِ بِأعْباءِ النبوة وما سيحمله من مهام عظيمة وأحمال ثقيلة قد صرح بها القرآن في قوله: ﴿إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ٥]، وفي هذا إشارة تربوية للنبي – ﷺ – ولأمته إلى أن إنتاج أي عمل عظيم يحتاج من صاحبه بذل جهد كبير ليعينه على القيام به بكل سهولة، كما أن فيه دلالة على أن التقرب إلى الله تعالى في العبادات لا سيما عبادة الليل التي تشق على النفس يعين على انجاز المهمات الكبيرة والصعبة؛ لذا آثر النظم الحكيم استعمال فعل الأمر من القيام (قم)؛ للدلالة على أن فعل هذا الأمر من الأهمية بمكان بحيث لا ينبغي أن يقع فيه تراخٍ حتى يتخلص النبي –صلى الله عليه وسلم – مما أصابه من خوف ويتلبس سريعا بالمهام المنوط بها، وبهذا ترى أن للتعبير القرآني داخل سياقاته طاقات وجدانية كبيرة

وإيحاءات تأثيرية عجيبة ودلالات تربوية جليلة تمثلت في التناسب البديع بين مدلول الجزء الذي عبر به القرآن عن العبادة وهو القيام بما فيه من مشقة، وبين العبادة التي أمر بها النبي – ﷺ – وكذا التناسب بين المشقة الحاصلة في القيام وبين ما سيكون فيه النبي – ﷺ – من مشقة في تبليغ دعوته بالإضافة إلى ما أرشد إليه من أدوات تعينه ﷺ على أداء رسالته .

ما أتى خطابا لخليل الرحمن إبراهيم – عليه السلام –

وذلك في قوله تعالى: ﴿وإِذْ بَوَّأْنا لِإِبْراهِيمَ مَكانَ البَيْتِ أنْ لا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطّائِفِينَ والقائِمِينَ والرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ **(سورة الحج، آية:٢٦)**

من المفسرين من حمل لفظ (القائمين) على الحقيقة، ومنهم من حملها على المجاز، ومنهم من جوز الجمع بينهما، ومن يتأمل النظم الحكيم يجد أن السياق هنا لا يأبى الجمع بين المعاني المذكورة في هذه الآية سواء منها ما كان حقيقة أو مجازا، بل إن مجيء هذه الكلمة في هذا الموضع محتملة لكل ما ذكره السادة المفسرون مما يقتضيه السياق ويتسع له هو أبلغ دلالة على إعجاز هذا الكتاب العزيز، وكونه من لدن حكيم حميد، فمن ذهب إلى الحقيقة يرى أن (القائِمِينَ) بِمَعْنى المُقِيمِينَ، و(الطّائِفِينَ) بِمَعْنى الطّارِئِينَ أو الطّائِفِينَ بِالبَيْتِ مِن غَيْرِ أهْلِ مَكَّةَ[١]،ومن حملها على المجاز ذهب إلى أن معنى (القائمين): المصلين[٢].

١ – مفاتيح الغيب:٢٣/ ٢١٩، روح المعاني:٩/١٣٦،

٢ – مفاتيح الغيب:٢٣/ ٢١٩، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم:١/١٥٨، روح المعاني:٩/١٣٦.

ولعل السر في التعبير بالقيام عن الصلاة هو أن النظم الحكيم يعدد من أحوال الناس الموجودين حول بيت الله، وحينما يمعن الناظر إلى مشهد الخلائق حول بيت الله الحرام يجد أن الناس ما بين طائف، وما بين واقف أو جالس، وما بين مصل، أما الطائف فقد ذكر صراحة ، وأما الواقف والجالس فهما يدخلان في القائمين، إذ إن من دلالتها المكوث والثبات في المكان، أما المصلون فتجد منهم القائم، والراكع والساجد، أما القائم فقد شمله قوله:(القائمين)، أما الراكع والساجد فقد عبر عنهم بالركع السجود، وبهذا تكون المفردة القرآنية (القائمين) قد اتسعت دلالتها وقويت طاقتها التعبيرية حتى دخل في مضمونها أصناف مختلفة من أحوال الناس حول الكعبة وهذا التوسع لا تكاد تراه بتلك الصورة العجيبة إلا في القرآن الكريم، ومن الملاحظ أن النظم بدأ بـ(الطائفين)؛ لأنهم أقرب الناس شأنا بالبيت الحرام، إذ إن الطواف عبادة خاصة بالكعبة المشرفة، أما غيره من العبادات الأخرى فتكون في البيت الحرام وفى غيره، ثم أتى بالقائمين؛ لتكون حلقة وصل بين الأصناف الأخرى من غير الطائفين –أعنى الماكثين في المسجد والمصلين–، حيث إن هذه المفردة ذات غصون متفرعة لشجرة واحدة إحدى فروعها متصلة بمدلول المكوث والفرع الثاني يتصل بحال من أحوال المصلين، وأتى بالمفردة القرآنية (القائمين) على صيغة الجمع؛ للدلالة على كثرة من يتصفون بتلك الصفة حول بيت الله الحرام والذين يأتون من أجل تعظيم شعائر الله، وصاغ النظم الحكيم تلك المعاني على صيغة (فاعل) لتتناسب مع التكثير والمبالغة.

<u>لكن لماذا آثر النظم الحكيم التعبير بصيغة فاعل في هذا السياق؟</u>

لعل السبب هو أن صيغة فاعل تدل على الفعل والذات الفاعلة، وعليه يكون استعمال تلك الصيغة قد أدى إلى توسعة في علة التطهير حيث إنه ينبئ عن أن التطهير متعلق بالفعل والأشخاص لا بأحدهما دون الآخر أي طهر بيتي

من أجل الطواف ومن يطوفون، وهذا المعنى لا يؤدى بالفعل وحده أو المصدر وحده.

ومن يلاحظ النظم في سورة الحج يجد أنه آثر التعبير بـ(القائمين)، أما في سورة البقرة فقد عبر بـ(العاكفين) وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَعَهِدنَا إِلَىٰٓ إِبرَٰهِـۧمَ وَإِسمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾(البقرة، من الآية : ١٢٥)، والسر من وراء ذلك أن النظم الحكيم يضع كل مفردة في مكانها المناسب وبنائها المتماسك بحيث لا يمكن أن تستبدل بغيرها، ومن أسرار اصطفاء كل سياق بعباراته التي وردت به ما ذكره الإمام البقاعي من أن النظم ذكر (الْقَائِمِينَ) في الحج دون (العاكفين)؛ لأن العكوف تقدم ذُكِرَه في قوله تعالى:﴿سَوَاء الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾ (سورة الحج، من الآية:٢٥)، فاستغنى النظم عن إعادته، وأن القيام أقرب إلى مقصود السورة[١]حيث القيام من القبور ليوم الجمع والنشور، وبالنظر إلى ما ذكره العلماء من أن العاكفين هم أهل الحرم وساكنوه ومن جاوروهم، أما القائمون فهم المصلون الذين جاءوا مسافرين إلى البيت الحرام وسيغادرونه بعد قضاء حاجاتهم، ومن يتأمل هذه المعاني يجد أن معنى العكوف يتناسب مع سياق سورة البقرة الذي يتحدث عن قصة بناء البيت الحرام، وجاء في هذا السياق على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام، قوله تعالى: ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ (سورة البقرة، من الآية:١٢٦) حيث ذكر أهل البيت وساكنيه، وهذا يتناسب مع معنى العاكفين، أما سياق سورة الحج فهو يتناول الحديث عن أداء فريضة الحج التي يأتي إليها الناس من كل فج عميق، ليشهدوا منافع لهم وبعد قضاء مناسكهم يشدون رحالهم عائدين إلى

١. نظم الدرر: ٣٦/١٣.

بلادهم، فهم غير عاكفين بل مسافرين لأداء مناسك الحج وسيعودون فناسب ذكر كلمة القائمين في رحاب سياق سورة الحج.

٢- التجوز عن الصلاة بـ(الركوع).

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُوا مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [البقرة ٤٣]

أطلق النظم الركوع على الصلاة من باب المجاز المرسل، حيث عبر بالجزء وأراد الكل، ومن المعلوم أن النظم لا يعدل في التعبير من الحقيقة إلى المجاز إلا إذا أراد الإشارة إلى دلالة لا ينهض بها التعبير الحقيقي، وللوقوف على السر وراء العدول عن استعمال كلمة الصلاة، وإيثار التعبير بالركوع في هذا الموضع يجب إمعان النظر في السياق، ومن الملاحظ أن الخطاب في هذه الآية موجه لليهود وقد بدأت الآية بتوجيه الأمر لهم بإقامة الصلاة ثم عطف قوله: ﴿ وَٱرۡكَعُوا مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ أيْ صَلُّوا مَعَ المُصَلِّينَ، فيكون هذا العطف من باب التأكيد إلا أن هذا التأكيد حمل معنى زائدا هذا المعنى تولد من الطاقة التعبيرية التي أوجدها التجوز عن الصلاة بالركوع، فأوجد احْتِرازا عَنْ صَلاةِ اليَهُودِ، إذ إنهم كانوا يصلون إلا أن صلاتهم لا ركوع فيها، فحتى لا يقع منهم توهم بأنهم كيف يؤمرون بالصلاة وهم يؤدونها، فدفع التعبير القرآني هذا التوهم بالتعبير بالركوع الذي دل على أن الصلاة التي أمروا بها إنما هي صلاة أمة النبي – ﷺ – لا صلاتهم، وبالنظر إلى معنى الرُّكُوعَ وما يحتويه من دلالة على الخُضُوعَ فإن ذلك يحمل إشارة إلى وجب خضوعهم التام إلى النبي – ﷺ – ودينه، حيث إن كونهم من أتباع موسى – عليه السلام – لا يغني عن إيمانهم بالنبي – ﷺ –، وقيل: إن هذا التجوز فيه مَزِيدِ التَّوْصِيَةِ بِصلاة الجَماعَةِ [١]،

١. نظم الدرر: ٣٣٥/١.

لِعظيم شأنها وكثرة فَوائِدها، وعلى هذا يكون ﴿وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أمَرَ لهم بإتْقانِها، وفي قوله: ﴿ وَٱرۡكَعُوا مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ أمر بِفِعْلِها في الجَماعَةِ[1].

وبهذا تجد أن التعبير القرآني قد فتح بابا لفهم المعنى المراد من السياق وأبان عن مزيد من مقاصده لا بكثرة ألفاظ لكن بدقة التعبير ووقوع كل كلمة في موقعها الذي تقتضيه حكمة البيان.

ومن التجوز عن الصلاة بالركوع قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ﴾ [سورة المائدة: ٥٥]

جاء التجوز عن الصلاة بالركوع في هذه الآية، حيث أطلق الجزء وأراد الكل، وهذا التعبير القرآني قد أدى إلى اتساع دلالة المعنى وجعل اللفظ يحمل تأويلات متعددة كل واحد منها يرشد إلى وجه من وجوه المعنى دون أن يأباه السياق أو يعارضه، بل إن السياق له دور مهم في توجيه استيعاب تلك الدلالات والمعاني، ومن ينظر إلى المعنى في قوله تعالى: ﴿وَهُمۡ رَٰكِعُونَ﴾ يجد أن التعبير القرآني هنا قد اجتمع له عدة طرق أدت إلى اتساع المعنى؛ منها تعدد الأوجه الإعرابية، وتعدد المعنى المراد، واحتمال كون اللفظ مستعمل فيما وضع له، أو في غير ما وضع له، كل هذه الطرق جعلت الأقوال تتعدد دون أن يكون بينها تعارض، فمنهم من حملها على معنى الركوع ويكون المراد مِنَ الرُّكُوعِ هنا الخُضُوعُ، ويكون المعنى أنَّهم يُصَلُّونَ ويُزَكُّونَ وهم مُنْقادُونَ خاضِعُونَ لِجَمِيعِ أوامِرِ اللَّهِ ونَواهِيهِ وعلى هذا تكون الواو للحال وجملة (وهم راكعون) حالٌ مِن فاعِلِ الفِعْلَيْنِ، أي يعملون ما ذُكِرَ مِن إقامَةِ الصَّلاةِ وإيتاءِ الزَّكاةِ وهم خاشِعون ومُتَواضِعُون لِلَّه –تَعالى–، وقيل: إن المراد هو الركوع الذي هو ركن من أركان الصلاة وإنما أتى هنا؛ لأن أصْحابَ النبي – ﷺ – كانُوا عِنْدَ نُزُولِ هَذِهِ الآيَةِ

١. مفاتيح الغيب: ٣/ ٤٨٧.

مُخْتَلِفُونَ في هَذِهِ الصِّفاتِ، مِنهم مَن قَدْ أتَمَّ الصَّلاةَ، ومِنهم مَن دَفَعَ المالَ إلى الفَقِيرِ، ومِنهم مَن كانَ بَعْدُ في الصَّلاةِ وكانَ راكِعًا، فلما كانوا مختلفين في هذه الصفات لا جرم ذكر الله تعالى كل هذه الصفات وقيل : إن الآية نزلت في على رضى الله عنه حيث تصدق بخاتمه وهو راكع[١]، وقيل: إن الركوع هنا بمعنى الصلاة حيث عبر بالجزء وهو الركوع وأراد الكل وهو الصلاة، وعلى هذا فإن الواو عاطفة، وجملة (وهم راكعون) معطوفة على الصلة، وعليه يكون " ظاهر معنى هذه الجملة أنها عين معنى قوله: (يقيمون الصلاة)، إذ المراد ب بـ(راكعون) مصلون لا آتون بالجزء من الصلاة المسمى بالركوع، فوجه هذا العطف: إما بأن المراد بالركوع ركوع النوافل، أي الذين يقيمون الصلوات الخمس المفروضة ويتقربون بالنوافل وإما المراد به ما تدل عليه الجملة الاسمية من الدوام والثبات، أي الذين يديمون إقامة الصلاة " .[٢]

وبالرجوع إلى السياق تجد أن الركوع الذي هو جزء من الصلاة له مزيد صلة بالسياق هذه الصلة هي التي استدعت التعبير بالركوع دون غيره من أركان الصلاة الأخرى، ويظهر ذلك في أنه لما نهى النظم الحكيم عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء ﴿لا تَتَّخِذُوا اليَهُودَ والنَّصارىٰ أَوْلِياءَ﴾ أتت هذه الآية ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم رَٰكِعُونَ ﴾؛ لبيان من هم أحق بِالمُوالاةِ، وصدرت بـ(إنَّما) التي تفيد القصر وتدخل على المعاني المأنوسة القريبة من النفوس لا الحقائق الغريبة والأفكار البعيدة[٣]، لذا تجد أن أسلوب القصر هنا قد سبق بنهي صريح عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء؛

١ – يراجع مفاتيح الغيب: ١٢/ ٣٨٢– ٣٨٣

٢ – التحرير والتنوير: ٦/٢٤٠.

٣. ينظر دلالات التراكيب دراسة بلاغية: ١٥٥.

ليكون ذلك تهيئة لمضمون القصر وتمهيدا له، حتى ترك في النفس دلالة على أن الولاية محصورة في أهل الإيمان، وأتى القصر هنا قصر صفة على موصف قصرا حقيقيا؛ لبيان الفئة التي يجب أن تكون لها الولاية، لهذا وجب أن تحدد تحديدا دقيقا، ولما كانت الصلاة والزكاة يشترك فيهما أهل الشرائع السماوية أتى بقوله: (وَهُم رَٰكِعُونَ)؛ ليكون قيدا كاشفا للمقصود لأن الركوع مما اختصت به أمة النبي – ﷺ – فاليَهُودَ؛ والنَّصارى؛ لا رُكُوعَ في صَلاتِهِمْ وبهذا فقد تعدد المعنى الوظيفي للمبني الواحد (الركوع) ليتسع المعنى في أوجز تعبير وهذا ضرب من ثراء المعنى يغني به الأسلوب ويعظم سلطانه.

ومن التعبير بالركوع عن الصلاة قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرۡكَعُواْ لَا يَرۡكَعُونَ﴾ [المرسلات: ٤٨]

فقوله: ﴿ارْكَعُوا﴾ أيْ صَلُّوا، وأطْلَقَ الركوع عَلَي الصلاة تَسْمِيَةً لَها بِاسْمِ جُزْءٍ مِنها، وخَصَّ هَذا الجُزْءَ؛ لِأَنَّهُ ألصق بالمعنى المراد حيث إن النظم يريد من المخاطبين أن يظهروا الخضوع والانقياد لله تعالى وأن يتخلوا عن عنادهم وكبريائهم إذ إن مسألة الكفر عند أكثرهم لم تكن إلا مسألة كرامة وعناد وكبرياء لا مسألة شك وتكذيب، فأتى الأمر بتوجيه الدعوة إلى أصل الداء ومصدر التكذيب، حيث أمرهم بالخُضُوعِ والطّاعَةِ والانقياد، فناسب ذلك استعمال الركوع دون غيره؛ لأنه ينشر تلك الدلالة على السياق ويجعلها أصلا تعول عليها الأفهام، كما أن الأمر بالركوع فيه دلالة صريحة إلى أن الدعوة هنا إنما هي دعوة للدخول في دين الإسلام وليست مجرد دعوة لأداء عبادة الصلاة، فعبادة الصلاة موجودة في كل الشرائع إلا أن الركوع اختصت به شريعة الإسلام، وبهذا تكون الدعوة هنا قد أتت في صورة مركزة فاشتملت على استئصال الداء ووجهت المخاطبين إلى اعتناق دين الله، كما أن التعبير بـ(الركوع) كشف عن سبب من أسباب رفض بعض المعاندين إقام الصلاة حيث إن بَعْضَ العَرَبِ قيل: إنهم

ثقيف، نَفَرَوا عَنِ الدِّينِ والصلاة مِن أَجْلِ الركوع، وقالَوا للنبي – ﷺ – حُطَّ عَنّا الصَّلاةَ فَإِنّا لا نُجْبى(١) لأنَّ فيه – زَعَمَ – إبْرازًا لِلْإِسْتِ فيكونُ ذلك مَسَبَّةً [٢]؛ وبهذا تكون الصورة التي عبر بها القرآن عن عبادة الصلاة قد دلت على فيض من المعاني بفضل ما تميز به النظم الحكيم من اتساع دلالات ألفاظه وتراكيبه.

٣- التجوز عن الصلاة بـ(السجود)

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿۞ لَيسُوا سَوَاء مِّن أَهلِ ٱلكِتَـٰبِ أُمَّة قَايِمَة يَتلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ءَانَاءَ ٱلَّيلِ وَهُم يَسجُدُونَ﴾ (سورة آل عمران، الأية ١١٣)

فقوله تعالى: ﴿وهم يَسْجُدُونَ﴾ أي وهم يصلون فعبر بالجزء (السجود) وأراد الكل (الصلاة) ولمعرفة جانبٍ من أسرار التعبير بالسجود يجب تأمل السياق للوقوف على علاقة المعاني التي تدفقت من ترابط كلمات السياق القرآني واكتمال العلاقة بين دلالات اللفظ ومراد النظم بحيث لا تجد بديلا يقوم مقام تلك الألفاظ التي حملت دلالات المعنى، ومن يتأمل السياق يجد أن الحديث عن طائفة من أهل الكتاب أسلموا وحسن إسلامهم فأقبلوا على الحق، ومن الملاحظ أن النظم عدد مساوئ أهل الكتاب وذكر أن منهم المؤمن وأكثرهم فاسق فقال: ﴿وَلَو ءَامَنَ أَهلُ ٱلكِتَـٰبِ لَكَانَ خَيرا لَّهُم مِّنهُمُ ٱلمُؤمِنُونَ وَأَكثَرُهُمُ ٱلفَـٰسِقُونَ﴾ (سورة آل عمران، الآية: ١١٠) ثم أخذ يعدد مذماتهم، إلا أنه حرص على إظهار محاسن من آمن منهم فأتى بقوله:﴿ لَيْسُوا سَواءً﴾ وهي جُمْلَةٌ استئنافية سِيقَتْ تَمْهِيدًا لِتَعْدادِ مَحاسِنِ الطائفة المؤمنة من أَهْلِ الكِتابِ وإنصافا لها حتى لا يوهم دخولهم في الحُكْمِ السابق عَلى أكثرهم، وتأكيدا لِقَوْلِهِ تَعالى :

---

١. وضَعَ يَدَيْهِ عَلى رُكْبَتَيْهِ أوْ عَلى الأرْضِ أوِ انْكَبَّ عَلى وجْهِهِ، والتَّجْبِئَة أنْ تَقُومَ قِيامَ الرُّكُوعِ (ينظر لسان العرب مادة: جبى)

٢. يراجع نظم الدرر: ٢١/ ١٨٦. بتصرف

﴿ مِـنْهُمُ الْمُؤْمِنُـونَ ﴾ أي أن لَيْسَوا جَمِيعا مُتَشارِكِينَ فـي الِاتِّصافِ بِما ذُكِرَ مِنَ القَبائِحِ بل منهم من خالف فعلهم وترك ضلالهم وهدي إلى الصراط المستقيم؛ لذلك حرص النظم الحكيم على أن يعبر عنهم بأسلوب يحقق هذا الإنصاف ويكشف عن اختلافهم عمن ضل منهم فقال : ﴿ مِن أَهْـلِ الكِتـابِ أُمَّـةٌ قائِمَـةٌ ﴾ بدلا من أن يقول : (منهم أمة قائمة) وهذا من باب وضع المظهر موضع المضمر حتى يميزهم أتم تمييز ويضفي عليهم مزيد اهتمام وعناية، وسماهم القرآن (أهل الكتاب) على الرغم من أنهم قد آمنوا وذلك باعتبار ما كانوا عليه قبل إيمانهم ويرى الإمام فخر الرازي أن السر في هذه التسمية راجع إلى تميز تلك الفئة عن غيرهم من أهل الكتاب الذين ظلوا في ضلالهم [١]، وقد وصف النظم هذه الفئة المَذْكُورَةَ بِصِفاتٍ ثَمانِيَةٍ، ومن يتأمل تلك الصفات يجد أن سبعة منها يمكن أن يشترك فيها أهل الأديان السماوية، ولَمّا كان الغرض هنا مدح من آمن منهم كان من كمال التعبير أن يأتي بصفة تمييز تلك الفئة عن غيرهم، فقال: ﴿وهم يَسْجُدُونَ﴾ ولو قال وهم يصلون لانضمت تلك الصفة لأخواتها وما كان يرجى منها تمييز إذ إن الصلاة عبادة مشتركة بين الجميع، لكن السجود اختصت به أمة الرسول – ﷺ – وبهذا تختص تلك الفئة المؤمنة بهذا المدح لِتَمَيُّزِهِمْ واخْتِصاصِهِم بهذا الفعل الجَلِيل الشَّأْنِ الَّذي لم يَتَشَرَّفُ بِأدائِه أهْلُ الكِتابِ كما أن وصفهم بالسجود " أبلغ وأبين من أن يقال: يتهجدون لأنه يدل على صورة فعلهم"[٢]، وما فيها من كَمالِ الخُضُوعِ لله واخْتِيرَتِ الجُمْلَةُ الِاسْمِيَّةُ لِلدَّلالَةِ

١. يراجع مفاتيح الغيب: ٨/ ٣٣٢.
٢. التحرير والتنوير: ٥٨/٤.

عَلى الِاسْتِمْرارِ، وكُرِّرَ الإسْنادُ تَقْوِيَةً لِلْحُكْمِ وتَأْكِيدًا لَهُ، واخْتِيارُ صِيغَةِ المُضارِعِ في (يسجدون) لِلدَّلالَةِ عَلى التَّجَدُّدِ[1].

ولما قيد تلاوتهم لآيات الله بكونها في آناء الليل، ناسب ذلك أن يعبر عن صلاتهم بالسجود؛ لأنه إذا كان الليل موطن قرب العابدين بربهم، فإن السجود من أشد مواطن القرب بين العبد وربه، وبهذا تجد مناسبة بين التعبير عن صلاتهم بالسجود وبين ما جاوره من تعبير؛ ليكون صورة متجانسة ذات معان متكاملة تعطى وصفا دقيقا لتلك الفئة التي ميزها القرآن عن الجماعة التي انفصلت عنها وسلكت طريق الهداية.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ فَسَبِّح بِحَمدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴾ [سورة الحجر، الآية: ٩٨]

فقوله: ﴿وكُنْ مِنَ السّاجِدِينَ﴾ أيِ المُصَلِّينَ فَفِيهِ التَّعْبِيرُ عَنِ الكُلِّ بِالجُزْءِ، ومن الملاحظ أن السياق هنا يرشد النبي – ﷺ – إلى ما يجب أن يفعله ليزول ما حل به من ضِيقٍ وما ألم به من حُزْنٍ، ومن هذه الأمور الإسراع إلى الصلاة، وقد امتثل النبي – ﷺ – لهذا الأمر حتى صح عنه أنه كان "إذا حَزَبَهُ أمْرٌ صَلّى "[2]، ولما كان من طبيعة الإنسان الذي نزل به ضيق أو ألمَّ به حزن أن يطرق أقرب الأبواب إلى ما يطيب خاطره ويَكْشِفُ الغَمَّ الَّذِي يَجِدُهُ؛ لذا كان الأمر بالسجود في هذا الموضع لأنه كما ورد عن النبي – ﷺ – " أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ"[3]، وكأنه يقول له إذا وجدت

---

١. ينظر روح المعاني للألوسي:٢/٣٤٩-٢٥٠.

٢ – من حديث حذيفة رضى الله عنه، سنن أبي داود، باب وقت قيام النبي – صلَّى الله عليه وسلم – من الليل، (حديث رقم : ١٣١٩): ٢/٤٨٥.

٣ –من حديث أبي هريرة رضى الله عنه، صحيح مسلم، باب ما يقال في الركوع والسجود _حديث رقم:(٤٨٢): : ١/٣٥٠

ما يحزنك فقم إلى صلاتك، وأطل في سجودك، فإن فعلت كشف الله عنك الغم والضيم، ولو قال وكن من المصلين ما أفاد هذا المعنى وما كشف عن موضع القرب الذي تنشرح فيه النفوس وتزول معه الأحزان.

ويأتي العلم الحديث ليكشف عن فيض من المعاني المتدفقة التي يغدقها التعبير القرآني عبر تناسق عجيب بين ألفاظه وما تنتجه من دلالات وإحكام قوي للرباط الناظم لهذه الألفاظ وتلك الدلالات، حيث أثبت العلم بتجاربه المعملية أن وضعية السجود لها أثر كبير في التخلص من ضيق الصدر وصعوبة التنفُّس التي تحدث عند المعاناة من الحزن الشديد والقلق القوي والتوتر، حيث يعمل السجود على زيادة معدل التهوية الرئوية، كما أنه يسمح بتفريغ هواء الزفير ويساعد على انحدار التجمعات الزائدة من الإفرازات المخاطية من الشعب الهوائية والتي تعمل على الشعور بضيق في الصدر بسبب قلة الهواء الداخل للرئة، وانحدار هذه التجمعات بفضل وضعية السجود يزيد من معدل التهوية الرئوية والاستفادة بأكبر قدر ممكن من الهواء النقي مما يحدث الإحساس بالانشراح في الصدر؛ لذا فإن كثير من الأطباء المعالجين لأمراض الصدر يجعل المريض يأخذ وضعية السجود للتخلص من عدد من أمراض الصدر، والقلب[١]، وبهذا تجد تناسبا عجيبا في التعبير القرآني وما أثبته العلم الحديث، حيث تجد أنه ذكر الضيق في الصدر، مع أن محله القلب إلا أن ذكر الصدر يظهر أن الصدر يتأثر بعوامل الحزن التي تؤثر على كمية الهواء الداخلة للرئة، وتأمل كيف أتى العلاج، وهو الصلاة وكيف خصص السجود لما له من أثر

١. يراجع الصلاة رياضة النفس والجسد، مختار سالم: ١٤٧، المركز العربي الحديث، ط ١٩٩٠م

عجيب للتخلص مما أصاب الصدر من ضيق، لترى أن هذا التعبير القرآني يفيض بمعان محكمة لا طاقة للبشر بأن يأتوا بمثلها.

ليس هذا فحسب بل إن العلم الحديث أثبت أن المواقف التي تحدث الحزن لدى الإنسان غالبا ما تتسبب في استجابة هائلة في الدماغ كرد فعل افتراضي ناجم عن الحزن، مما يؤثر على وجود شحنات زائده من الطاقة لها ضرر كبير على المخ، وأسرع طريقة وأنفعها للتخلص من تلك الطاقة الزائدة هي السجود حيث إنه رياضة لتفريغ الشحنات الزائدة ولتنشيط الدورة الدموية ولزيادة التركيز، وتدريب الإنسان على الصبر والهدوء، ولعل القرآن الكريم قد أشار إلى جانب من هذه الحقيقية وهو أن السجود يولد الصبر والهدوء لدى الإنسان، ويجعله يتحمل ملمات الحياة وصعابها وذلك حينما تحدث عمن يقومون الليل فقال: ﴿ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ [الفرقان: ٦٤]. وذكر جزاؤهم في قوله: ﴿ أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴾ [الفرقان: ٧٥]. وتأمل كيف قرن الله بين السجود في الليل وبين الصبر، وهذا دليل على أن كثرة السجود تعالج الانفعالات وتزيد الإنسان صبراً!

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَا تُطِعهُ وَٱسجُد وَٱقتَرِب ۩﴾ [العلق: ١٩]

ذهب جماعة من العلماء إلى أن المراد بالسجود هنا الصلاة[١]، وعليه يكون التعبير من باب المجاز المرسل الذي علاقته الجزئية، وهذا الأمر يستدعي النظر للوقوف على الاعتبارات الدقيقة والمهمة وراء ترشيح النظم للفظة السجود في هذا السياق دون سواها للتعبير عن الصلاة، فمع أن السجود ركن من أركان الصلاة إلا أنه لابد وأن يكون له مزيد صلة بسياق الحديث، بحيث لا يمكن لأي ركن آخر أن يحل محل السجود أو أن يعطي عطاءه هنا.

١ – يراجع: الكشاف : ٧٧٩/٤، مفاتيح الغيب: ٢٢٦/٣٢، الجامع لأحكام القرآن:١٢٨/٢٠.

وقد وردت هذه الآية في سياق حديث القرآن عن موقف أبي جهل مع النبي – ﷺ – حيث أراد أن يمنعه عن الصلاة عند الكعبة، الأمر الذي أوجد ضيقا في نفس النبي – ﷺ – فأتى النظم الحكيم بفواصل قصيرة وألفاظ قوية معبرة وعبارات موجزة أوجدت في قلب النبي ثباتا على موقفه وبددت القلق من نفسه، وألقت الرعب في قلب عدوه بما لها من وقع شديد يصخ الأذان فيشتد قرعه على المسامع والأذهان ويصعق القلوب ويخلع النفوس، مع بلاغة المعنى ووفائه، وتأمل ذلك جليا في الأمر الإلهي الذي أتى للنبي – ﷺ – بأن يداوم على صلاته في خشوع وطمأنينة دون أن يشغل باله بعدوه فإن الله كافيه أمره وناصره عليه، فالتعبير بالسجود هنا فيه معالجة لجانب نفسي لدى النبي – ﷺ –، الذي قد يعتريه انشغال عن صلاته بسب ما قد يختلج صدره من خوف أو قلق بشأن ما قد يفعله به أبو جهل من أذى أو منع عن الصلاة عند البيت، فجاء التعبير القرآني بكلمة (اسجد)؛ لتسهم تلك الكلمة في أداء المعنى المراد بدلالتها، ونوع صياغتها، حيث أرشدت النبي إلى ما يجب أن يشغل به نفسه وهو إتمام صلاته والخشوع فيها بحيث لا يشغله خوف ولا قلق عن إتمامها وخشوعها، وتأمل قوله تعالى: ﴿أَرَءَيتَ ٱلَّذِىٰ يَنهَىٰ ۝٩ عَبدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠﴾ وكيف رد القرآن عليه بقوله: ﴿كَلَّا لَا تُطِعهُ وَٱسجُد وَٱقتَرِب ۩﴾ وهذا الرد بتعبيراته وجرسه يحمل تحديا قويا، فإذا كان أبو جهل نهى النبي عن مجرد الصلاة بسبب ما كان يجده في نفسه من غيظ حينما يرى النبي – ﷺ – يصلي عند الكعبة، فما بالك إذا وجده عند البيت ساجدا خاشعا معظما لله، فإن ذلك أوجب لزيادة غَيْظه وغضبه، وأشد إمعانا في إخزائه، فتكون لفظة السجود حملت جانبا من التحدي، وأظهرت صورة من صور حفظ الله لعبده ونصرته له، كما أن الأمر بالسجود بعد النهي عن عدم طاعة عدو الله بدد غيوم الخوف التي كادت تسيطر على النبي – ﷺ – ؛ لأنه –عز وجل – لن ينهى عبده عن عدم طاعة

عدوه إلا إذا ضمن له السلامة من مكره، ولن يأمره بالسجود إلا إذا ضمن له إتمام العبادة دون أذى، كما أن الأمر بالسجود يتناسب مع ما عطف عليه وهو قوله: (واقترب) التي أتت بِصِيغَةِ الِافْتِعالِ "للحث على مَعْنى التَّكَلُّفِ والتَّطَلُّبِ، أيِ: اجْتَهد في القُرْبِ إلى اللَّهِ بِالصَّلاةِ"[1]، ومعلوم أن السجود هو الركن الذي يرجى فيه تحقق أكبر درجات القرب من الله؛ لأنه أعلى مراقي القرب، وذلك مصداقا لقول النبي – ﷺ – (أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ)

كما أن التعبير بالسجود دون الصلاة أوجد اتساعا في المعنى وغزارة في عطاء الألفاظ حيث ذهب أكثر أهل التأويل أن المراد من (اسجد) "صل وتوفر على عبادة الله تعالى فعلا وإبلاغا، وليقل فكرك في هذا العدو فإن الله مقويك وناصرك، وقال بعضهم: بل المراد الخضوع، وقال آخرون: بل المراد نفس السجود في الصلاة"[2] وهذا الاتساع لم يكن يتحقق بدون هذا التعبير القرآني، ومن بلاغة النظم وجمال أسلوبه أن هذه المعاني وغيرها تجد لها دلالات في النص وعطاءات في فهم مراده، يتسع معها المعنى لخدمة السياق فيضفي عليه مزيدا من الظلال الدلالية المتناسقة، فلا تجد بين تعدد المعاني تنافرا بل تجد تكاملا عجيبا بين هذا الدلالات، وتعلقا بين تلك المعاني بعضها ببعض على وجه ينتج دلالات تفوق قدرة البشر على تقصيها، وهذا ضرب من ضروب البلاغة القرآنية ووجه من وجوه إعجازها.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ (سورة الشعراء:٢١٩)

فقوله : ﴿فِي السَّاجِدِينَ﴾ أيْ: المُصَلِّينَ، وعبر بالساجدين من باب إطلاق الجزء وإرادة الكل، وآثر النظم التعبير بـ(السجود) دون غيره لما له من مزية

١ – التحرير والتنوير: ٣٠/ ٤٥٣.

٢ – مفاتيح الغيب : ٢٢٦/٣٢.

جعلته ذات صلة وثيقة بالسياق، هذه المزية تتمثل في اللفظ ومعناه ومدلوله والرباط الناظم للفظ وما جاوره، وللوقوف على تلك المزية يجب تأمل موقع الكلمة ودلالتها داخل سياقها حتى تبين عن دقة موقعها، وثراء دلالتها، وتدفق معانيها، فلا تجد لفظة في اللغة تقوم مقامها ولا تعطيك عطاءها، وقوله تعالى: ﴿وتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ أتى بعد قوله: ﴿ٱلَّذِىٰ يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ﴾ وهذه الآية – كما تقدم – فيها بيان بأن العناية الربانية تحيط بالنبي – ﷺ – في كل أحواله، وتشعره بالأنس والقربي من الله –عز وجل–، وأتى بقوله: ﴿وتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾؛ لتتسع بها أحوال الرعاية فتشمل كل أحوال النبي – ﷺ – وهذا الاتساع نتج عن اتساع المعنى الذي ولده استعمال الساجدين دون المصلين، هذا الاتساع الذي جعل العلماء يعددون من مرام النص فقيل: إن المراد بالساجدين المصلين وقيل: المعنى يراك حين تقوم للصلاة بالناس جماعة، وقيل: إنه لا يخفى عليه حالك كلما قمت وتقلبت مع الساجدين في كفاية أمور الدين، وقيل: المراد تقلب بصره فيمن يصلي خلفه، وقيل: أي يراك في أصلاب الآباء، وقيل: يراك قائما وراكعا وساجدا"[1]، وهذا التعدد في مراد النص يعد من باب تكامل بناء أجزاء المعنى القرآني وهو مسلك لطيف وضرب من ضروب الاتساع في المعنى الذي صاغه النظم في صورة من صور الإيجاز البليغ حيث لا تجد السياق يأبى الجمع بين كل ما ذكر من معان في هذه الآية سواء منها ما كان حقيقة أو مجازا، بل تجده يتسع لكل هذه المعاني ويؤيدها، وهذا الاتساع مع كونه أبلغ دليل على إعجاز هذا الكتاب العزيز، فهو أيضا يتناسق مع اتساع أحوال رعاية الله لنبيه، حيث يراه في وحدته ويراه في جماعة المصلين بل ويرعاه في كل أحواله، كما أن هذا التعبير القرآني جمع مع العناية بالنبي العناية

١ – مفاتيح الغيب: ٢٤/ ٥٣٦– ٥٣٧، يراجع: الجامع لأحكام القرآن: ١٣/١٤٤.

بِالمسْلِمِين "تَبَعًا لِلْعِنايَةِ بِرَسُولِهِمْ، فَهَذا مِن بَرَكَتِهِ ﷺ وقَدْ جَمَعَها هَذا التَّرْكِيبُ العَجِيبُ الإيجازِ"[1]، وعُبِّرَ عَن المصلين هنا بِالسّاجِدِينَ؛ زيادة في العناية بالحبيب وأمته؛ حيث اختار لهم السجود وهو أقرب حالات العبد من ربه في صلاته، وهو أشرف الأركان؛ لهذا أطلقه على المصلين الذين أتى ذكرهم في معرض العناية بالنبي – ﷺ – .

ومن التعبير عن الصلاة بالسجود قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيلِ فَسَبِّحهُ وَأَدبَـٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴾ (سورة ق :٤٠)

فقوله تعالى: (وَأَدبَـٰرَ ٱلسُّجُودِ) أي بعد الصلاة، فعبر بالجزء (السجود) وأراد الكل (الصلاة)، لكن ما السر وراء التعبير بالجزء دون الكل، ولم اختار السجود دون غيره؟

من يتأمل السياق يجد أن الأمر أتى للنبي – ﷺ – بالتسبيح عقب قوله تعالى: ﴿ فَٱصبِر عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ أي أن الأمر بالتسبيح فيه إرشاد إلى ما يجب أن يفعله النبي – ﷺ – تجاه ما يسمعه من هؤلاء المعاندين لدعوته، ومعلوم أن ما كان يسمعه النبي– ﷺ – من أعدائه كان يحزنه ويضيق به صدره، فكانت هذه الآيات مواساة للنبيّ – ﷺ – فيما يلقاه من أذى، حيث أرشده إلى أن يتزود بما يمده بأسباب القوة والقدرة على احتمال ما ألم به، فأمره بأن يلزم التسبيح و يتعاهد السجود ففيهما انشراح للصدر، وإزالة للغم، وتثبيت للقلب، وتقوية للعزم وإعانة على تحمل الشدائد، فإذا كانت الصلاة ذات أثر على مقابلة الشدائد؛ لأنها الصلة بين العبد وربه، إلا أن أثرها لا يتحقق إلا بالخشوع الذي يتجلى في أبهى صوره في السجود، فأتت الآية لترشد إلى الدواء في أكمل صورة وأدق

١. التحرير والتنوير: ٢٠٤/١٩.

أحواله، عن طريق التعبير بصورة اختزلت الصلاة كلها في السجود وجعلت السجود هو الصلاة وكأن الصلاة تجسدت فيه وتوارت بقية الأركان والهيئات خلفه حيث يتجلى القرب بين العبد وربه في أقرب صوره، وهو أكثر الأركان التي يتجلى فيها الخشوع والخضوع والإذعان، ولو قال النظم: (وأدبار الصلاة) لقصر اللفظ عن أداء المعنى المراد، إذ إن المراد هنا الصلاة التي تؤدى بخشوع، كما أن محل تفريج الضيق هو السجود، وعلى ذلك يكون المعنى فالزم التسبيح بعد أدائك الصلاة بخشوع وطمأنينة، إذ لا فائدة ترجى من أداء الصلاة دون خشوع واطمئنان، وعليه فإن القيمة المجازية التي عبر بها النظم عن عبادة الصلاة قد جسدت عملية الفهم والإدراك للمعنى المراد للنظم حتى أصبح واضحا للمتلقي .

والمتأمل إلى الأوقات التي أمر الله نبيه بأن يسبحه فيها يجد أنها تشمل اليوم كله حيث جمع النهار في قوله: ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴾ ففى اختصاص وقتي ما قبل طلوع الشمس وقبل غروبها بتسبيح الله لأنهما "هما الوقتان اللذان يحويان بين طرفيهما، الوقت الحىّ من حياة الناس، والذي فيه يكون العمل فى ميادينها المختلفة[1]، ونبه على جانب الليل بقوله: (ومن الليل) فأمره أن يجعل في الليل نصيبا من عبادته وتسبيحه، ثم أمره أن يجدد عبادة التسبيح مع كل صلاة يصليها في ليل أو نهار؛ ليستغرق بذلك التسبيح جل وقته – ﷺ –، فيكون ختام الآية بقوله: (وَأَدْبَارَ السُّجُودِ) تأكيد على المواظبة والانشغال بعبادة الذكر والتسبيح، لكن لماذا جمع النظم بين التسبيح في الليل والتسبيح بعد الصلوات؟ و ما مناسبة التعبير بالسجود بعد (ومن الليل)؟

١ – التفسير القرآني للقرآن عبد الكريم يونس الخطيب: ١٣/ ٤٩٤ (المتوفى: بعد ١٣٩٠هـ)، دار الفكر العربي – القاهرة

من المعلوم أن الليل هو من أشد مواطن قرب العبد وأنسه بربه فكما ورد في الحديث عن رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: " يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرُ، فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟[1]، وهذه الحالة من القرب تجعل الإنسان يستشعر لذة العبادة والمناجاة فيجد للذكر مذاقا لا يجده في غيرها من الأحوال والأوقات، ومثل الليل في هذا الأثر الذي يجده الإنسان وتلك اللذة ما يجده المصلّى الخاشع أثناء سجوده، حيث يستشعر قربه من الله فيجد لمناجاته أثر ولعبادته لذة ومذاق ويستشعر تبدد الحجب بينه وبين مولاه، وبهذا تجد تناسبا عجيبا بين التعبير بالسجود في سياق الأمر بالتسبيح في الليل .

ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيلِ فَٱسجُد لَهُ وَسَبِّحهُ لَيلا طَوِيلًا ﴾ (سورة الإنسان، الآية:٢٦)

فقوله: ﴿فَٱسجُد لَهُ﴾ أي: فَصَلِّ لَهُ، فالسجود مجاز عن الصلاة بذكر الجزء وإرادة الكل حيث عبر بالجزء وهو (السُّجُودَ) وأراد الكل وهو (الصَّلاة) وحَمْلُ الصلاة هنا عَلى صَلاةِ المَغْرِبِ والعَشاءِ، وذِكْرُهُما بِالسُّجُودِ دون غيره من الأركان؛ "تَنْبِيهًا عَلى أنَّهُ أفْضَلُ الصَّلاةِ، كما أن فيه إشارَةٌ إلى أنَّ اللَّيْلَ مَوْضِعُ الخُضُوعِ و الخشوع ، وتقديم الظرف لما في صلاة الليل من مزيد الكلفة والخلوص ومزيد الفضيلة لأن الالتفات فيه إلى جانب الحق أتم لزوال الشاغل للحواس من حركات الناس وأصواتهم وسائر الأحوال الدنيوية، فكان أبعد عن الرياء فكان الخشوع فيه واللذة التامة بحلاوة العبادة أوفى"[2]؛ لذا ناسبه التعبير بالسجود الدال على الخشوع والخضوع.

---

١ – من حديث أبي هريرة، سنن أبي داود، ٤٢٠/١، (حديث رقم، ١٣١٥).

٢. نظم الدرر: ١٥٧/٢١، بتصرف

ومن الواضح هنا أن الأمر بالسجود أتى موجها للنبي – ﷺ – بعد أمره بالصبر على ما كان من المشركين من أذى وذلك في قوله:﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾، ونهيه عن إطاعة الآثم والكفور في قوله:﴿ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴾، ثم أرشده لما فِيهِ عَوْنٌ لَهُ عَلى ما يقابله من عنت وإعراض من قومه، وبين له أن أكبر عون له على ذلك هو أن يستغرق وقته في عبادة الله وذلك أناء الليل وأطراف النهار، وكشف النظم أن من أهم ما يستعان به هو الصلاة عامة والسجود خاصة، فكان – ﷺ – إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة، طالبا العون من ربه؛ لأنه يعلم أن أقربُ مَا يَكونُ العبْدُ مِن ربِّهِ وَهَو ساجدٌ.

ومن عجيب النظم هنا أنه عبر عن الصلاة بصور متنوعة في سياق واحد وذلك في قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾، حيث قيل: إن "البكرة هي صلاة الصبح والأصيل صلاة الظهر والعصر، (ومن الليل فاسجد له) المغرب والعشاء، فتكون هذه الكلمات جامعة الصلوات الخمس"[1]، وعليه يكون النظم قد استعمل مع صلاة النهار (الذكر) ومع صلاة الليل (السجود) ولعل السر من وراء ذلك أن الذكر فيه إعلان بالتحميد والتهليل والتكبير ويكون سرا وجهرا، باللسان والقلب، وهذا يتناسب مع صلاة النهار التي يؤديها الإنسان وهو متلبس بمشاغل حياته فالنهار هو مجال السعي على المعاش وطلب الأرزاق، لهذا أيضا كان التعبير بالذكر فيه تنبيها على ألا ينشغل المؤمن في يومه بهذه الأمور عن عبادة الله سبحانه وتعالى بل عليه أن يجمع بين الأمرين معا، مصداقا لقوله تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾، ولما كان محل صلاة الليل حين يلج

١- مفاتيح الغيب : ٣٠/٧٥٩.

الإنسان سكنه ويحل السكون والطمأنينة، فناسبه التعبير بالسجود الذي يجد الإنسان فيه القرب من الله، وبهذا فقد وظف النظم الحكيم صور التعبير عن معنى الصلاة بتنوع عباراتها ليعبر عن كل موقف بما يناسبه .

ومن الملاحظ أن المواضع السابقة كلها أتى الخطاب فيها لشخص النبي – ﷺ – يرشده إلى ما يجب أن يقوم به تجاه ما يلقاه من قومه، وفي كل مره تجد أن النظم يجعل السجود هو الوسيلة التي يجب أن يتحصن بها النبي – ﷺ – مما قد يلم به، أو الطريقة التي يتخلص بها مما قد أصابه، لهذا كان للفظ السجود حضور بارز في هذه السياقات وغيرها، وكأن النظم يستحضر صورة النبي– ﷺ– وهو ساجد لربه يتقرب إليه والأمة من ورائه مقتدية به –ﷺ–؛ لذا تراه – ﷺ – كما جاء في الآيات السابقة ساجدا وحده، وتراه من الساجدين، وتراه في الساجدين .

٤ –<u>التجوز عن الصلاة بالركوع والسجود معا:</u>

وذلك في قوله تعالى : ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ (سورة البقرة:١٢٥)

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ (سورة الحج:٢٦)

فالنظم في الموضعين السابقين عبر بـ﴿الرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ وأراد : المُصَلُّينَ من باب التعبير بالجزء وإرادة الكل، ولهذا العدول من التعبير بالحقيقة إلى المجاز أسرار بلاغية منها ما ذكره الإمام الألوسي في السر في إيثار التعبير بالركوع والسجود دون غيرهما من أحوال المصلين : " لأنهما أقرب أحواله إليه تعالى وهما الركنان الأعظمان وكثيرا ما يكنى عن الصلاة بهما ولذا ترك العطف بينهما ولم يعبر بالمصلين مع اختصاره إيذانا بأن المعتبر صلاة ذات ركوع

وسجود لا صلاة اليهود. وقدم الركوع لتقدمه في الزمان "[١]، وكما ذكر سابقا أن هذه الآية تصف أحوال الناس الموجودين حول بيت الله، فمنهم الطائف ومنهم العاكف، ومنهم القائم، ومنهم الجالس، ومنهم من يصلي؛ فالطائف والعاكف ذكرا صراحة، أما الواقف والجالس فهما يدخلان في القائمين، إذ إن من دلالتها المكوث والثبات في المكان، أما المصلون فتجد منهم القائم، والراكع والساجد، أما القائم فقد شمله قوله: (القائمين)، أما الراكع والساجد فقد عبر عنهم بالركع السجود، وعلى ذلك يكون التعبير عن الصلاة بالمجاز هنا له أثر بارز في استكمال الصورة التي أراد النظم الحكيم أن يضعها أمام السامع لزوار بيت الله، ففرق بين أن يذكر حالهم مجملا فيقول: والمصلين، وبين أن يعدد من الهيئات التي يكون عليها المصلين فهم ما بين قائم وراكع وساجد .

ومن الملاحظ أن النظم أتى في الركوع والسجود بجَمْع تَكْسِيرٍ وأتى بما قبلهما جمعا سالما، وعلل الإمام الألوسي هذا التغاييرِ بأنه" تَنْوِيعٌ في الفَصاحَةِ"[٢]، والتغاييرِ وإن كان يأتي في كلام العرب على سبيل التنوع في أساليب الكلم والتوسع فيه، إلا أن لا بد له من سر عميق، ومعنى دقيق، وأثر بعيد، خصوصا إذا ورد في النظم الحكيم، و المتأمل في السياق يجد أن هناك سرا وراء هذا التنوع، فالمغايرة بين أنواع الجموع أدت دورا بارزا في بيان الفرق بين العبادات المذكورة في الآية؛ فالصلاة لا تتساوي مع الطواف في المقصد عند البيت الحرام، فمن يزور بيت الله يكون مقصده الأول والأهم هو الطواف؛ لذا قدمه كما أن الطواف لا يكون إلا في بيت الله الحرم، والاعتكاف لا يكون إلا في المساجد، أما الصلاة فتكون في المسجد وغيره فغاير بين الجموع؛ ليفرق بين هذا

١. روح المعاني: ١/ ٣٧٩.

٢ – نفس المرجع السابق

الدلالات والمقاصد، ولو أتت الجموع على نمط واحد ما اشتمل السياق على تلك الإشارات الدقيقة.

ويرى الإمام ابن القيم أن التغاييرفي الجموع سببه تعلق حكم التطهير ببعض الأعمال دون بعض، فما تعلق بحكم التطهير جمع سالم بخلاف غيره، فتراه يعلل جمع الطائفين جمع سلامة بقوله: إن جمع السلامة في الطائفين أدل على لفظ الفعل الذي هو علة تعلق بها حكم التطهير، ثم يليه في الترتيب القائمين لأنه في معنى العاكفين وهو كالطائفين في تعلق حكم التطهر به، ويوضح أن هذه العلة غبر موجودة مع الركع السجود بسبب أن المستقبلين البيت بالركوع لا يختصون بما قرب منه كالطائفين والعاكفين ولذلك لم يتعلق حكم التطهير بهذا الفعل الذي هو الركوع وأنه لا يلزم أن يكون في البيت ولا عنده فلذلك لم يجيء بلفظ جمع السلامة لأنه لا يحتاج فيه إلى بيان لفظ الفعل كما احتيج فيما قبله[1]، ومن الملاحظ أيضا أن النظم خالَفَ بين وزْنَيْ (الركع، والسجود) فلم يقل: (الركع السجد) على صيغة واحدة؛ ليأتي كل جمع متمكنًا في نظمه، بديعا في سبكه، فكان من مقتضيات الحال، ومستدعيات المقام أن ينوع بين الجمعين؛ ليدل على " المُخالَفَةِ في الهيئات، وكان آخرهما عَلى فُعُولٍ، لأجل كَوْنِهِ فاصلة، والفَواصِلُ قبل وبعد آخِرِها حَرْفٌ قَبْلَهُ حَرْفٌ مَدٌّ، ولِين"[2]

ولما كان الركوع أدل على الصلاة دون السجود فتجد من يقول: صليت ركعتين، وتجد في كتب الفقه قولهم: إن صلاة الصبح ركتان، والظهر أربع ركعات فأتى بـ(الركع) هنا على صيغة (فعّل) التي دلَّت على الكثرة بما فيها من

١. يراجع بدائع الفوائد، ابن القيم: ٦٥/١، ط الكتاب العربي.
٢. روح المعاني: ١/ ٣٧٩.

التضعيف، وهذا يتناسب مع مراد النظم في تفصيله للأحوال الظاهرة للموجودين حول البيت فكثير منهم يطوف وكثير منهم قائم وكثير منهم يصلي، ثم أتى بالسجود جمعا على صيغة (فعول) وهي من صيغ المصادر؛ ليجمع بين دلالة المعنى الظاهر وهو حالة من حالات الموجودين حول الكعبة، والمعنى الباطن وهو الخشوع بما استقاه من صيغة المصدر (فعول) التي صاغ النظم الصفة عليها؛ للدلالة على المبالغة في تلك الصفة، ثم وصف الركع بالسجود ولم يعطف بالواو كما عطف ما قبله؛ لأنهما وصفان متلازمان وركنان لعبادة واحدة ولو عطف أحدهما على الأخر؛ لتوهم أنهما وصفان مختلفان يراد بهما عبادتين مختلفتين، كما أن النظم أراد أن يوسع من دلالة السجود في الآية حتى تنشر ظلال معانيها وما تدل عليه من خشوع وخضوع على ما سبقها فتتمم المعنى وتجعل قبول هذه الأعمال متوقفا على وصفها بالخشوع فأتى بها في صورة الصفة ولو أتى معطوفا ما وجدت هذه الدلالة، ولا كان هذا التكامل في أداء المعاني، وكما مر سابقا فإن النظم عبر بالركع والسجود دون المصلين؛ ليفصل من حالات الناس عند البيت الحرام، وعدم العطف منع توهم قصد حالة الركوع منفردة أو السجود منفردة وإنما جعل القصد هو عبادة الصلاة إذ إنهما لا يجتمعان إلا في الصلاة.

ومن قوله تعالى : ﴿ يَامَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ (سورة آل عمران: ٤٣.)

عبر النظم بالقنوت، والسجود، والركوع، وأراد الصلاة، ومعلوم أن هذا التعبير وراءه أسرار بلاغية اقتضاها السياق والمقام، وقد لمح الإمام الألوسي سرا من أسرار هذا التعبير فيقول: "يحتمل أن يكون المراد من ذلك كله الأمر بالصلاة إلا أنه أمر سبحانه بها بذكر أركانها مبالغة في إيجاب المحافظة عليها لما أن

في ذكر الشيء تفصيلا تقريرا ليس في الإجمال"[1]، والناظر لهذا التفصيل يرى أنه يتناسب مع حال مريم –عليها السلام– فهي ليست كغيرها من نساء العالمين، وحالها في العبادة ليس كحال غيرها، وما حل بها من معجزة لم يحل بغيرها؛ لذا عمد القرآن إلى تلك الصورة التعبيرية المفصلة ليخاطب بها مريم حتى تتناسب وحالها، وحتى تتسلح بكثرة العبادة وطولها وكثرة السجود والركوع في مقابلة ما سيحل بها من محن، فأمرها بالقنوت وهي لفظة ذات دلالة واسعة تدور كلها في تمام العبادة وملازمتها والاستقامة والخشوع ، والقيام بالطاعة التي ليس معها مَعْصِيَةٌ، وقيل إطالةُ القيام[2]، ولعل هذه الأمور مجتمعة لا تتأتى لامرأة أن تقوم بها إلا مريم لما اختصت به من اصطفاء وعناية وطهارة، ولما كان من مقاصد السياق بيان ما اختصت به مريم "بمزيد المواهب والعطايا من الله أوجب عليها مزيد الطاعات، شكرا لتلك النعم"[3]،فناسب مقام الشكر أن يعبر عن تفاصيل العبادة حتى تجتهد في كل ركن من أركانها شكرا لربها، ولما كان القنوت أوسع وأعم من غيره أتى به أولا، ثم تلاه السجود وهو ألصق ما يكون بالشكر، ولشدة قربه من الشكر شرعت سجدة الشكر، كما أن الحالة التي ستمر بها مريم تحتاج إلى أن تكون قريبة من ربها مسلِّمة إليه أمرها، وأكثر ما يعين العبد على تحقيق ذلك هو كثرة السجود، فكأن الأمر بالسجود فيه إشارة إلى الكيفية التي يمكن لمريم أن تستعد بها لمواجهة الأحداث العظام التي ستواجهها، ثم تلا ذلك الأمر بالركوع فقال: ﴿ وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ وفي ذلك دعوة للصلاة مع الجماعة بدلالة قوله: (مَعَ الرَّاكِعِينَ) وعلى ذلك يكون "اسجدي أمر بالصلاة حال

١ – السابق : ٢/ ١٥١.

٢ – لسان العرب (مادة : ق ن ت)

٣ – مفاتيح الغيب : ٨/ ٢١٨.

الانفراد، وقوله: (واركعي مع الراكعين) أمرا بالصلاة في الجماعة"[١]، وهذا يكشف عن سر من أسرار التعبير بالسجود والركوع معا، ويكشف أيضا عن سر من أسرار تقديم السجود، وهو أن كل لفظة أشارت إلى نوع من العبادة فالسجود فيه إشارة إلى صلاتها منفردة، وفي الأمر بالسجود دلالة على المداومة والاستمرار إذ إن مريم كانت تصلى في محرابها وأتى الأمر لطلب المداومة والاستمرار، وأتى الأمر بالركوع؛ ليشير إلى إباحة صلاتها مع الجماعة، ولعل ذلك كان خاصا بها دون نساء زمانها استكمالا لما حدث معها من قبولها لخدمة بيت المقدس دون نساء عصرها، لهذا تجد أن النظم قال: (اركعي مع الراكعين)، ولم يقل: مع الراكعات، فمع أن الراكعين يشمل الرجال والنساء من باب التغليب، كما أن فيه دلالة على أن "الاقتداء بالرجال حال الاختفاء من الرجال أفضل من الاقتداء بالنساء"[٢]، إلا أنه يفهم منه أيضا أن الله قد من عليها عليها بما لم يمن على غيرها من نساء قومها، وأباح لها أن تقتدي بالرجال في صلاتها، وهذا من دلالات الاصطفاء الذي منحه الله إياها.

وقدم النظم ما يدل على صلاتها منفردة (اسجدي) على ما يدل على صلاتها مع الجماعة(اركعي)؛ لأن أكثر صلاة مريم كانت في محرابها منفردة، كما أن الأصل في صلاة الفتاة أن تكون في خدرها، ولا تخرج إلى جماعة إلا إذا أمنت الفتنة على نفسها وغيرها.

ومما اجتمع فيه الركوع والسجود قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (سورة الحج: آية: ٧٧)

١ – نفسه.

٢ – مفاتيح الغيب: ٨/ ٢١٩.

عبر النظم الحكيم بالركوع والسجود وأراد الصلاة؛ "وذلك لأن أشرف أركانها هو الركوع والسجود والصلاة هي المختصة بهذين الركنين فكان ذكرهما جاريا مجرى ذكر الصلاة"[١]، ومن الواضح أن النظم الحكيم يفصل حالات من العبادة التي يحتاجها العبد المؤمن لتحصيل الفلاح والنجاة من عذاب الله الشديد يوم القيامة، هذا اليوم الذي افتتحت تلك السورة بالتحذير مما فيه من أهوال، فأتت خاتمة السورة لتوضح السبيل إلى النجاة من تلك الأهوال، لتجد اتساقا عجيبا بين المفتتح والختام، فأمر "أولا بالصلاة وهي نوع من العبادة، ثم ثنى بالعبادة وهي نوع من فعل الخير، ثم ثلث بفعل الخير وهو أعم من العبادة فبدأ بخاص ثم بعام ثم بأعم"[٢]، وقد خص النظم الحث على الصلاة التي هي عماد الدين ورأس العبادة لتكون أولى هذه الأعمال؛ لأنها كما ورد في الحديث (أَوَّلُ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَلَاتُهُ...)[٣]، وفي المحافظة عليها نجاة من تلك الأهوال، كما ورد عن النبي العدنان ﷺ أَنَّهُ ذَكَرَ الصَّلَاةَ يَوْمًا فَقَالَ: " مَنْ حَافَظَ عَلَيْهَا كَانَتْ لَهُ نُورًا وَبُرْهَانًا وَنَجَاةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ...)[٤] لذا ناسب أن يبدأ بذكرها في سياق الحث على الأعمال التي من شأنها أن تنجي صاحبها من أهوال يوم

١ – السابق: ٢٣/ ٢٥٤.

٢ – البحر المحيط:٥٣٩/٧

٣ – من حديث تَمِيمٍ الدَّارِيِّ ، سنن ابن ماجه، لابن ماجة أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني (المتوفى: ٢٧٣هـ) حديث رقم (١٤٢٦):٢/ ٤٢٥، تحقيق، شعيب الأرنؤوط – وأخرين، دار الرسالة العالمية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٠ هـ – ٢٠٠٩ م.

٤ – من حديث عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، مسند أحمد بن حنبل، لأبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل (المتوفى : ٢٤١هـ) (حديث رقم: ٦٥٧٦): ٢/ ١٦٩ تحقيق: السيد أبو المعاطي النوري، عالم الكتب – بيروت، الطبعة : الأولى ، ١٤١٩هـ . ١٩٩٨ م

القيامة، كما أن النظم خَصَّ البدء بالصلاة "لأنها التكليف الذي يتكرر كل يوم خمس مرات ، أما بقية التكاليف فهي موسمية"[١].

وخص هذين الركنين (الركوع والسجود) في التعبير عن الصلاة ؛ "لأنهما – لمخالفتهما الهيئات المعتادة – هما الدالان على الخضوع، فحسن التعبير بهما عنها جداً في السورة التي جمعت جميع الفرق الذين فيهم من يستقبح – لما غلب عليه من العتو – بعض الهيئات الدالة على ذل"[٢]، كما أن في التعبير بالركوع والسجود دون الصلاة ما يرشد الإنسان المؤمن إلى أهم المواطن في الصلاة التي يجب على المسلم أن يغتنمها للوصول إلى تحقيق مراده، وهذان الموضعان هما (الركوع، والسجود) إذ إن لهما من الخصوصية ما ليس لغيرهما لما صح عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال:"... أَمَّا الرُّكُوعُ فَعَظِّمُوا فِيهِ الرَّبَّ وَأَمَّا السُّجُودُ فَاجْتَهِدُوا فِي الدُّعَاءِ فَقَمِنٌ أَنْ يُسْتَجَابَ لَكُمْ"[٣]، لهذا أتى بهما في صورة الأمر وأوقعهما بعد النداء للدلالة على شدة العناية بهما، وفيه أيضا إشارة إلى أن الصلاة التي من شأنها أن تكون نجاة للعبد يوم القيامة هي التي أداها الإنسان بخشوع وأقامها بالخضوع والذل لله تعالى، وهذا يفهم من التعبير بالسجود، والركوع دون غيرهما، كما أن هناك تناسبا عجيبا بين هذه الآية التي وردت في مختتم سورة الحج، وبين ما افتتحت به سورة المؤمنون، حيث جعل الغاية من العبادات التي حث عليها المؤمنين عليها هو (الفلاح) فقال: ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾، وافتتحت المؤمنون بقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (سورة المؤمنون، الآية :١) وكأن من تحققت منه تلك العبادات فقد تحقق له الفلاح، ولما بدأ في آية سورة الحج

١ – تفسير الشعراوي: ٩٩٤٣/١٦.

٢ – نظم الدرر: ٣٨٨/٥

٣ – من حديث ابن عباس، صحيح مسلم، حديث رقم: (٤٧٩)، ١/ ٣٤٨ .

بالحث على الصلاة، ناسبه أن يبدأ بها في المؤمنون في قوله: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ (سورة المؤمنون، الآية :٢) ، ولما عبر عن الصلاة بالركوع والسجود، اللذين هما مناط الخشوع والخضوع والانكسار لله في الصلاة، أتى في سورة المؤمنون بالخشوع وجعله قيد للفلاح؛ وبهذا تجد تناسبا عجيبا ونسجا فريدا للتعبيرات القرآنية، وعليه فإن الصورة التعبيرية التي اختارها النظم الحكيم للتعبير عن الصلاة قد أوجدت فيضا من المعاني وأحدثت ترابطا عجيبا بين أجزاء النظم، وأظهرت دلالات لاغنى عنها لفهم مراد السياق .

٥-<u>التجوز عن الصلاة بالذكر :</u>

مما ورد فيه التجوز عن عبادة الصلاة بالذكر قوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾[البقرة: ٢٣٩]، فقوله: (فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ): أي فصلوا الصلوات الخمس تامة بحقوقها[١]، وعبر عن الصلاة بقوله :(فَاذْكُرُوا اللَّهَ)؛ لأنه لما نزل بهم الخوف شرع لهم أن يصلوا على أية حال، ومعلوم أن الخوف ينزع الخشوع والطمأنينة من القلب، ولما كان الخشوع والطمأنينة من أسس الصلاة وأركانها، أكد القرآن على تمامهما والحرص على تحقيقهما عند زوال ما يحول بين وجودهما، لهذا تجد النظم عبر بـ(إذا) في قوله: (فَإِذَا أَمِنْتُمْ) الدالة على تأكد الحدوث، وأتى معها فعل الشرط على صورة الماضي؛ ليشير بذلك إلى أنه بمجرد التأكد من زوال الخوف وحلول الأمن وجب عليهم الإسراع إلى تحقيق الخشوع والطمأنينة؛ لأنهما روح العبادة لهذا أتى بجواب الشرط على صورة الأمر المقرون بالفاء؛

١- تفسير البغوي، معالم التنزيل، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي (المتوفى : ٥١٦هـ): ١/ ٢٩٠، تحقيق: محمد عبد الله النمر وآخرون، دار طيبة الرياض، ١٤٠٩هـ.

ليحمل الجواب دلالات الوجوب ويعلى من نبرة التأكيد ويوحي بسرعة الاستجابة، وعبر النظم بلازم الخشوع والطمأنينة ألا وهو ذكر الله؛ ليدل به على الخشوع وزيادة معه حُضُورِ القَلْبِ في كل الأركان بالإضافة إلى أن (فاذكروا الله) اشتملت على عمل القلب واللسان معا.

ومن يتأمل النظم الحكيم في التجوز عن الصلاة في هذه الآية وما ورد في سورة النساء في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱطمَأنَنتُم فَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كانت عَلَى ٱلمُؤمِنِينَ كِتَٰبا مَّوقُوتا﴾[النساء ١٠٣] يجد أنه لما عبر بالأمن في قوله : (فَإِذَا أَمِنْتُمْ) تجوز عن الصلاة بالذكر فقال: (فَاذْكُرُوا اللَّهَ)، ولما عبر بالطمأنينة في قوله: (فَإِذَا ٱطمَأنَنتُم) تجوز عن الصلاة بالإقامة فقال: (فَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ) ولعل السب في ذلك أن الطمأنينة لا تحصل حال حصول الأمن، وإنما تحتاج إلى أسباب مع الأمن؛ لذا فقد عبر القرآن الكريم بالذكر بعد حصول الأمن حتى يكون الذكر سببا داعما لحصول الطمأنينة مصداقا لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ (سورة الرعد، الآية: ٢٨) فإذا حدثت الطمأنينة أقام المسلمون صلاتهم على أحسن وجه وأتم حال، ومن يتأمل الموضعيين يجد أن قوله: (فَإِذَا ٱطمَأنَنتُم) أتت مقابل : ﴿وَإِذَا ضَرَبتُم فِى ٱلأَرضِ فَلَيسَ عَلَيكُم جُنَاحٌ أَن تَقصُرُوا مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِن خِفتُم أَن يَفتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾، فالطمأنينة أتت مقابل السفر والخوف معا وهذا يشير إلى أنها تحمل معنى يجمع حصول الاستقرار من السفر وحصول الأمن، أما قوله:(فَإِذَا أَمِنْتُمْ) فقد أتت مقابل قوله تعالى: ﴿فَإِن خِفتُم فَرِجَالًا﴾ وهذا يدل على أن (فإذا أمنتم) تحمل معنى زوال الخوف دون حصول الطمأنينة فقد يكون في النفس اضطراب بسبب ترقب رجوعه أو عدم زوال أسبابه، وهذا ناسبه أن يكون الجواب (فاذكروا الله) حتى يجلب لهم الطمأنينة، هذا يكشف عن التكامل العجيب بين

الصور الدالة على عبادة الصلاة، فمن يجمع تلك الصورتين يجد أن المعنى يتكامل تكاملا بديعا على هذا النحو الذي بين للمتلقين أنهم متى زال عنهم الخوف(فإذا أمنتم) دون استقرار الطمأنينة فعليهم أن يذكروا الله (فاذكروا الله) لأنه السبيل إلى جلب السكون والطمأنينة للقلب، فإذا سكنت القلوب وهدأت النفوس (فإذا اطمأننتم)، وجب عليهم أن يتموا صلاتهم على الوجه الأكمل خشوعا وأركانا، سننا وواجبات (فأقيموا الصلاة) .

كما أن التعبير بـ(فاذكروا الله) أدى إلى اتساع المعنى حيث جعل السياق يحتمل معنى حث المخاطبين على شكره تعالى من أجل إنعامه عليكم بالأمن بعد ما حل بكم من خوف، وهذا المعنى لا يتعارض مع كون الذكر هنا بمعنى الصلاة، بل إن المعنيين يتكاملان في بيان أجزاء المعنى المراد من السياق، فلا تدافع بين أن يصلى الإنسان بخشوع ثم يشكر ربه على تمام النعمة والمنة، وقد ألمح الإمام الرازي لهذا الاتساع في الدلالة المرادة والتي يتحملها السياق، حيث حمل ذكر الله على الصلاة أو شكر الله، أو كلاهما معا[1].

ومنه قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِي لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ (الجمعة:٩)

فقوله: (ذِكْرُ اللَّهِ) فسره العلماء بأن المراد به هنا الصَّلاة والخُطْبَة معا، وهذا التفسير يكشف عن سر من أسرار التجوز عن الصلاة بـ (ذِكْرِ اللَّهِ)؛ ليشمل الخُطْبَةِ والصَّلاةِ ولو قال: فاسعوا إلى الصلاة لما اشتمل أمر الحث على حضور الخطبة، ومنه أخذ الفقهاء بأن الخُطبة شرطٌ في الجُمُعةِ لا تصحُّ بدونِها، كما أخذوا من ذلك أيضا أن من تخلف عن سماع الخطبة بغير عذر فقد

١- مفاتيح الغيب:٦/٤٩١.

أثم[١]وهذا لم يكن يفهم إذا عبر النظم بالصلاة دون (ذكر الله)، ومن الملاحظ أن العلماء وقفوا طويلا مع التعبير بـ(اسعوا) للجمع بينها وبين حديث النبي ﷺ :"إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها تسعون وأتوها تمشون عليكم السكينة فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فأتموا)[٢]، وذكروا في ذلك أقوالا كثيرة، حتى ذكروا أن سيدنا عمر بن الخطاب لم يكن يقرأها إلا (فامضوا)[٣]، وأورد الإمام ابن عطية احتراس أهل العلم من أن يكون المقصود الإسراع في المشي؛ لأن المأمور به أن تُؤْتى الصَّلاةُ بِالسَّكِينَةِ؛ لذا حملوا السَّعْي على معان كثيرة، منها: النية والإرادة، والعمل والذكر[٤]،وذكر الإمام القرطبي اختلافهم في معنى السعي على أقوال أولها: القصد، وثانيها: العمل، وثالثها: أن المراد به السعي على الأقدام، ورابعها: هو الجري والاشتداد إلا أنه نقل إنكار الصحابة والفقهاء للمقصد الرابع[٥]، ومن يتأمل دقة التعبير القرآني يجد أن التجوز في التعبير عن الصلاة إلى (ذكر الله)

---

١ – الحاوي الكبير في فقه مذهب الإمام الشافعي لأبي الحسن علي بن محمد، الشهير بالماوردي (المتوفى: ٤٥٠هـ): (٤٣٢/٢)، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض – الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ –١٩٩٩ م ، و المغني لابن قدامة، لأبي محمد موفق الدين عبد الله بن أحمد الحنبلي، الشهير بابن قدامة (المتوفى: ٦٢٠هـ): ٢/ ٢٢٤، مكتبة القاهرة، ، بدون طبعة، ، ١٣٨٨هـ – ١٩٦٨م

٢ – من حديث أبي هريرة رضى الله عنه، الجامع الصحيح المختصر(صحيح البخاري (حديث رقم: ٨٦٦): ٣٠٨/١ .

٣ – الجامع لأحكام القرآن: ١٠٢/١٨.

٤ – المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية الأندلسي (المتوفى: ٥٤٢هـ)٥/ ٣٠٩، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤٢٢ هـ .

٥ – الجامع لأحكام القرآن: ١٠٢/١٨.

سوغ التعبير بالسعي الذي يحمل معنى التأكيد على تحقيق الفعل بهمة ونشاط دون ركون إلى كسل أو تسويف، يقول الإمام البقاعي: " لما كان المراد إيجاب المعنى جزماً من غير تردد مع قطع كل علاقة بلا التفات إلى شيء من غير ما عذر الشارع به، عبر عنه بالسعي "[1] وهذا التجوز في التعبير جعل السياق لا يتعارض مع قول النبي ﷺ، فالنبي نهى عن السعي إلى الصلاة بالمعنى الظاهر، والقرآن أمر بالسعي والجد إلى ذكر الله بمعناه الواسع، فمتى أسرع الإنسان إلى ذكر الله عند سماع النداء كان ذلك دليلا على حضور قلبه وعدم غفلته عن إجابة النداء، فتجد منه حرصا على سعي قلبي وبدني نحو الانشغال بأسباب الصلاة من غسل وتطهير وتطيب، وتجد منه حرصا على التوجه إلى الصلاة مبكرا في سكينة وخشوع، وهذا الأمر يتناسب مع صلاة الجمعة إذ إن نفس الإنسان قد تغرر به عند سماع الأذن وتوهمه أنه ما زال في الوقت متسع، فينشغل بأمور دنياه غير مكترث بخطبة ولا تبكير، لهذا أتى الأمر بالسعي إلي ذكر الله دون الصلاة ليكون المقصد من التنبيه هو الحرص على الاستجابة للنداء والسعي لما تقتضيه الصلاة من ذكر وطهارة وتبكير لحضور خطبة الجمعة، وعليه فإن حرص على ذلك أدرك وقته مبكرا وشهد الخطبة والصلاة، ودخل إلى صلاته في خشوع وطمأنينة.

٦- <u>التجوز عن الصلاة بالقراءة</u>

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ (سورة الأسراء: ٧٨) " أَجْمَع العلماء عَلى أَنَّ المُرادَ مِنهُ صَلاةُ الصُّبْحِ، فيكون النظم قد عبر بالجزء (قرآن الفجر) وأراد الكل (الصلاة) ولعل السر في التعبير عَنْ صلاة الصبح بِالقُرْآنِ؛ أن هذه الصلاة تشهدها ملائكة الليل والنهار، فناسب هذا الحضور إطالة

١ - نظم الدرر: ٣٠/ ٦٥.

القراءة؛ لذا عبر بقرآن الفجر للحث على إطالة قراءة القرآن في هذه الصلاة، يقول الإمام الزمخشري عن سر التعبير بـ ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾: حثا على طول القراءة في صلاة الفجر، لكونها مكثورا عليها، ليسمع الناس القرآن فيكثر الثواب، ولذلك كانت الفجر أطول الصلوات قراءة[١]، للإمام والفذ، وأكثر ما يستمع فيها المأموم للقرآن، وقد أخذ الفقهاء من ذلك أن "السنة أن تكون القراءة في هذه الصلاة أطول من القراءة في سائر الصلوات فالمقصود من قوله وقرآن الفجر الحث على أن تطويل القراءة في هذه الصلاة مطلوب لأن التخصيص بالذكر يدل على كونه أكمل من غيره.[٢]

كما أن صلاة الفجر امتازت عن غيرها بأنه يجهر فيها بالقراءة في جميع ركعاتها فخُصَّ " خص ذكر ذلك بصلاة الفجر دون غيرها لأنها يجهر بالقرآن في جميع ركوعها"[٣]، ولما كانت صلاة الفجر تثقل على الناس لمجيئها بعد نوم فأتى بذكر قراءة القرآن " تشويقاً بالتعبير به إليها لثقلها بالنوم".[٤]

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ﴾ (سورة المزمل، الأية: ٢٠)

عبر النظم الحكيم هنا عن الصلاة بالقراءة فقال: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾؛ لأن القِراءَةَ أَحَدُ أَجْزاءِ الصَّلاةِ، فَأُطْلِقَ اسْمُ الجُزْءِ عَلى الكُلِّ، فيكون المعنى: صَلُّوا ما تَيَسَّرَ لَكم مِن صَلاةِ اللَّيْلِ، ومن المعلوم أن هذه الآيَةَ نَزَلَتْ

١ – الكشاف : ٢/ ٦٨٧.

٢ – مفاتيح الغيب: ٣٨٤/٢١.

٣ – التحرير والتنوير:١٨٣/١٥.

٤ – نظم الدرر: ٤٩٢/١١.

لِلتَّخْفِيفِ عن النبي – ﷺ – ومن معه ولرفع المشقة الواقعة عليهم من وجوب قيام الليل، بدليل قوله تعالى: (عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ) فأتى التعبير عن الصلاة بقراءة القرآن؛ ليتناسب مع التخفيف وتأكيدا عليه، لأنه لو قال صلوا ما تيسر من الليل لظن أن التخفيف شمل عدد الركعات دون الكيفية، فلما عبر بالقراءة اشتمل التخفيف الركعات وما اشتملت عليه من قراءة، وخص النظم التعبير بالقراءة إذ هي مناط المشقة في القيام كما أن التعبير عن الصَّلاةِ بِالقُرْآنِ " جمع بين الترغيب في القيام والترغيب في تلاوة القرآن فيه بطريقة الإيجاز"[١] ، بالإضافة إلى أن التعبير بالقراءة جعل السياق يتسع ليشمل المعنى الحقيقي للتعبير مع المعنى المجازي دون منازعة بينهما، بل تجد بين الدلالات تكاملا عجيبا، وتقاربا بليغا، يقول الإمام الرازي: قوله تعالى: فاقرؤا ما تيسر من القرآن فيه قولان: الأول: أن المراد من هذه القراءة الصلاة لأن القراءة أحد أجزاء الصلاة، فأطلق اسم الجزء على الكل، ... القول الثاني: أن المراد قراءة القرآن بعينها والغرض منه دراسة القرآن ليحصل الأمن من النسيان" [٢]، فكأنه قيل: إن شق عليكم قيام الليل فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ فإن هذا لا يشق وتنالون بهذه القراءة ثواب القيام[٣]، وبهذا يكون السياق قد جمع بين التخفيف على المسلمين في صلاة الليل، وحثهم إلى ما يعوضهم ثواب القيام دون المشقة فأردهم إلى قراءة القرآن في تلك الأوقات.

١- التحرير والتنوير: ٢٨٤/٢٩.

٢ – يراجع مفاتيح الغيب:٦٩٤/٣٠ .

٣- روح المعاني: ١٥/ ١٢٣ بتصرف .

٧-<u>التجوز عن الصلاة بالإيمان:</u>

وذلك في قوله تعالى: ﴿وَما كانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمانَكُمْ﴾ (سورة البقرة من الآية : ١٤٣)

قيل إن المراد : صلاة المؤمنين إلى بيت المَقْدِس، وعلى هذا القول أكثر أهل التفسير[١]، فالتعبير عن الصلاة بالإيمانُ "مَجازٌ مِن إطْلاقِ اللّازِمِ عَلى مَلْزُومِهِ[٢]، ومن الملاحظ أن قوله تعالى: ﴿وَما كانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمانَكُمْ﴾ أتى ليطمئن قلوب المؤمنين الذين انتابهم القلق تجاه صلاتهم التي صلوها إلى بيت المقدس، خصوصا بعدما سمعوه من أهل الكفر والنفاق وحكاه القرآن في قوله: ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ﴾(البقرة، ١٤٣)، وقد وظف القرآن الكريم التراكيب وبنيةَ الكلمات توظيفا في غاية الدقة والجمال، فأتى بأسلوب بلاغي متسم بالقوة؛ ليزيل ما نزل بنفوس أهل الإيمان من شك أو حرج، حيث أكد لهم أن صلاتهم التي صلوها إلى بيت المقدس لم يذهب ثوابها ولم يفقدوا أجرها، وقد نفى القرآن الكريم ضياع أجر الصلاة بأسلوب قوي عمد إليه ليبدد كل المخاوف، وحتى لا يبقي في النفوس أي قلق، فعبر بلام الجحود وهذه اللام في السياق ليست مجرد "لام" أوجدت نفى حدوث الفعل، ولم تتوقف دلالتها عند إثبات شدة النفي والإنكار، بل إن مدلولها قد تجاوز دلالة "شدة نفى الفعل" ليتعداه لنفى الرغبة أو النية فيه، الأمر الذى يعالج في السياق جانبا نفسيا كبيرا حيث نزع الشك من صدور الصحابة انتزاعا لا يساوره عود

١- الجواهر الحسان في تفسير القرآن، لأبي زيد عبد الرحمن الثعالبي (المتوفى: ٨٧٥هـ):٣٢٨/١، تحقيق: الشيخ محمد علي معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤١٨ هـ

٢ – روح المعاني:٤٠٦/١

لريب؛ لأن لام الجحود نفت مع الفعل إرادة القيام به، ولو أتى النفي بدونها فقال: وما أضاع الله إيمانكم؛ لاقتصر النفي على الفعل دون نفي الإرادة ونفي الفعل لا يعني بالضرورة نفي إرادة القيام به، وفرق شاسع بين هذا وذاك، فنفي الفعل وإرادته تولد في النفس سكينة وطمأنينة، أما نفي الفعل دون إرادته فتظل معه النفس مضطربة قلقة، وهذا الأمر يكشف عن جانب من جوانب التعبير بالإيمان بدلا من الصلاة، فلو قال: وما كان الله ليضيع صلاتكم، لظلت النفس تائقة إلى مزيد من الطمأنينة ولظلت قلوبهم وجلة لاحتمال أن تكون الفريضة قد سقطت عنهم إلا أن الأجر قد ضاع، لكن لما قال: إيمانكم، شمل النفي ضياع الفريضة والثواب معا بل ودخل فيه كل أعمالهم، وبهذا تزول الريبة من قلوبهم، وتتحطم مكائد المعاندين السفهاء الذين تقولوا عليهم؛ لذا أرجع الإمام القرطبي سبب تسمية الصلاة إيمانا لاتساع معنى اللفظة واشتمالها على نية وقول وعمل [1]، كما أن التعبير بالإيمان جعل دلالة السياق تتسع لتشتمل مع معنى الصلاة المعنى الظاهري للإيمان فيكون التقدير " لِيُضِيعَ حَقَّ إيمانكم حين لم تزلزله وساوس الشيطان عند الاستقبال إلى قبلة لا تودونها "[2].

كما أن تسمية الصلاة إيمانًا فيه مراعاة للجانب النفسي والوجداني للمخاطبين حيث نثر على السياق مزيد مدح إلى الفعل وفاعله، أما من جهة الفعل فقد سمى الصلاة إيمانا، وكأن الإيمان قد جمع في الصلاة وهذا إشعار بمزيد فضل للصلاة وبيان أنها أعظم أركان الإيمان، أما من جهة الفاعل فإن تسمية الصلاة إيمانا فيه مزيد مدح لتلك الفئة المؤمنة، حيث دل التعبير بالإيمان على الحالة الإيمانية التي تلقت بها تلك الطائفة تكليفات ربهم، فصلاتهم كانت

١ – الجامع لأحكام القرآن: ١٥٧/٢.

٢ – التحرير والتنوير: ٢٥/٢.

صادرة عَنِ إيمان وتصديق في كل أحوالهم؛" في وقْتِ بَيْتِ المَقْدِسِ وفي وقْتِ التَحْوِيل، ولما كان الإيمان قطبا عليه تدور الأعمال وكان ثابتا في حال التوجه هنا وهنا ذكره، إذ هو الأصل الذي به يرجع في الصلاة وغيرها إلى الأمر والنهي، ولئلا تندرج في اسم الصلاة صلاة المنافقين إلى بيت المقدس فذكر المعنى الذي هو ملاك الأمر.[١]

٨-<u>التجوز عن الصلاة بالتهجد</u>

وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ (سورة الإسراء، الآية:٧٩) عبر النظم الحكيم عن الصلاة هنا بلفظة دقيقة جدا تآزر في تشكيلها الدوال الصوتية والمعجمية والصرفية لبيان الدلالة المقصودة لها في سياقها؛ <u>أما المستوى المعجمي</u> فقد اختار النظم كلمة تفوق كل بدائلها في الدلالة على المعنى المراد؛ لأن السياق قصد هنا صلاة مخصوصة لا تكون إلا في الليل وبعد نوم، فاختار من صور التعبير ما يتناسب مع دلالة المعنى المراد وهو التهجد؛ وذلك لأن (الهاء والجيم والدال) أصيل يدل على ركود في مكان. يقال: هجد، إذا نام هجودا، والهاجد: النائم ، وإن صلى ليلا فهو متهجد، كأنه بصلاته ترك الهجود عنه[٢]، ويقال لمن قام من النوم إلى الصلاة إنه متهجد فوجب أن يحمل هذا على أنه سمي متهجدا لإلقائه الهجود عن نفسه[٣]، ولما كانت هذه العبادة ذات مشقة على النفس؛ لأن الإنسان يترك من أجلها لذة النوم ويتحمل مشقة القيام، فقد اختلفت حكما واسما عن قيام الليل، فإذا كانت صلاة الليل تسمى قياما مطلقا، فإن التهجد صنف مخصوص من تلك العبادة يكون بعد الاستيقاظ من نوم، وله منزلة مخصوصة، إذ إنه أقرب إلى

١ – المحرر الوجيز:١/٢٢١

٢ – مقاييس اللغة ، مادة (هـ ج د).

٣ – مفاتيح الغيب ٢١/٣٨٦

وقت الفضيلة وهو ثلث الليل الأخير، ويؤدى بعد مغالبة وحرص على قطع الراحة والتلبس بالعبادة، لذا خص النظم النبي – ﷺ – بخطاب التهجد، ثم أغراه بثوابه فقال: ﴿ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾، ولو قال النظم: (ومن الليل فصل له) أو (ومن الليل فقم له) ما ظهرت تلك الخصوصية التي امتازت بها تلك العبادة.

أما المستوى الصرفي فقد وظفه النظم الحكيم في طلب الاستمرار والمداومة حيث عبر بصيغة المضارعة التي تشير إلى ضرورة مجاهدة النفس للاستمرار على تلك العبادة وعدم الانقطاع عنها بسب ما قد تستشعره النفس من ثقلها.

أما المستوى الصوتي فقد وظفه النظم توظيفا دقيقا لبيان المعنى وتأمل ذلك في التشكيل الصوتي للفظة المستعملة (هـ ج د) وما لها من أثر كبير في رسم الصورة ونقل المعنى وبيان حقيقة تلك العبادة القرآنية، حيث صاغ النظم اللفظة الدالة على العبادة من حروف تحمل سمات صوتية تتناسب مع صفات تلك العبادة التي عبرت عنها، فمن المعلوم أن التهجد عبادة تكون في جوف الليل الهامس، وهي عبادة ثقيلة شديدة على النفس لما تطلبه من ترك الراحة والانشغال بالعبادة، كل ذلك تصوره حروف تلك اللفظة فمن صفات الهاء أنها حرف (مهموس) وهذا يتناسب مع طبيعة الوقت الذي يعمه السكون ولا تجد فيه إلا همس العابدين، ومن صفات الجيم، والدال (الشدة) وتلك الشدة تصور لك ما في العبادة من شدة وثقل على النفس، وبهذا ترى تناسبا عجيبا لتلك الكلمة مع سياقها ومقامها، وتتبين مدى دقتها في تصور تلك العبادة تصويرا محكما دقيقا بأبلغ عبارة وأدق تعبير، بما لها من دلالة فنية كانت محصلة تلك الدلالات المختلفة والمستويات المتعددة.

الخاتمـــــــة

الحمد لله على ما فتح به وأعان عليه ويسر، وأشهد أن لا إله إلا الله، عنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو، وأشهد أن سيدنا محمدا ـ ﷺ ـ عبده ورسوله أشرف الخلق، وسيد المرسلين.

فبعد هذه الجولة البلاغية التي تناول البحث فيها تنوع صور التعبير عن عبادة الصلاة في القرآن الكريم، وتنوع المعاني والدلالات التي حملتها هذه الصور آن للقلم أن يخط حصاد هذا التطواف، وأن يلم خيوطه وشجونه، في إشارة موجزة إلى أهم النتائج التي أسفرت عنها هذه الدراسة، وهى على النحو الآتي:

١- كشفت هذه الدراسة عن أن التنوع في التعبير عن الصلاة في القرآن الكريم هو أسلوب بلاغي متعمد، يهدف إلى:

- إثراء المعنى عن طريق إضافة أبعاد معنوية ودلالية جديدة إلى معنى الصلاة.
- التأثير في العاطفة عن طريق إثارة المشاعر الدينية والقيمية لدى المتلقين.
- التعمق: الوصول إلى المعاني العميقة والفلسفية للصلاة.

٢- كشف البحث عن وجود ترابط والتكامل بين هذه التعبيرات المختلفة الواردة في القرآن الكريم بشأن عبادة الصلاة، حيث يؤدي كل تعبير متطلب سياقه، ويكمل وجها من وجوه الصورة الكلية التي يريد النظم الحكيم أن يرسخها في نفوس المخاطبين.

٣- استطاعت تلك الصور المتنوعة أن تتغلغل في بواطن المعاني، وتسبر أغوارها؛ لتعبر عنها في أبها صورها وأدق مقاصدها فقامت بوظيفة جمالية تجلت في فهم أبعاد عبادة الصلاة وأثرها في حياة الفرد والمجتمع

٤- الصور التعبيرية التي استعملها النظم الحكيم للحديث عن الصلاة اتسعت دلالاتها لتصور كل أحوال الصلاة والمصلين بكافة تفاصيلها.

٥- لم تكن غاية النظم في تنوع التعبيرات والصور مجرد عدول لفظي ، وإنما كان لكل تعبير غاية فنية وميزة جمالية ومقتضى ظهر من خلال السياقات المختلفة والمقامات المتنوعة و تناسب مع سياق الآية وجرسها الإيقاعي وهذا سمت من سمات الكلام العالي المعجز .

٦- على الرغم من أن الصور المجازية التي استعملها النظم حملت دلالات جديدة تناسبت مع سياقاتها، إلا أن التعبيرات القرآنية المجازية لم تقطع الدلالة المستفادة من السياق بالدلالة الوضعية للألفاظ، بل ربطت بين الدلالة المعجمية ودلالة السياق، وذلك لأن الموقف تطلب الثنائية في الإشارة لمشير واحد

٧- أظهر البحث أن النظم الحكيم إذا عبر عن عبادة الصلاة بـ(الصلاة) فإنه يريد المعنى الشامل للعبادة بكل ما تتعلق به قبل الشروع فيها، ومع الشروع، وما يتعلق بها بعد التسليم.

٨- عبادة الصلاة بأن الألفاظ الأخرى كـ(اركعوا، اسجدوا...) تراعي حالة واحدة و كيفية محددة في تلك العبادة، أما لفظ الصلاة فيشير إلى العبادة بشكلها الكامل حيث أركانها وشروط صحتها وسننها وخشوعها...،

٩- لم يستعمل النظم الحكيم الإقامة إلا مع (الصلاة) لأنها تدل على العبادة بشكلها الكامل حيث أركانها وشروط صحتها وسننها وخشوعها...، وهذا أيضا يتناسق مع اشتمال التعبير على كلمة (إقامة)، فالإقامة من معانيها؛ العزم والمحافظة والإصلاح والملازمة و الثبات والتمسك والاستقامة والاعتدال

١٠- كشف البحث أن تنوع التعبير عن عبادة الصلاة كان من أغراضه بيان أهمية تلك العبادة وضرورة المحافظة عليها في كل حال وزمان .

١١- اتضح من البحث أن النظم الحكيم يعبر عن عبادة الصلاة بلفظ الصلاة مسبوقا بالفعل المضارع من القيام في المواضع التي يراد فيها التنويه على عبادة الصلاة بشكلها العام بكل تفاصيلها مع التأكيد على معنى المحافظة

والإصلاح والملازمة والثبات والتمسك والاستقامة والاعتدال في كيفية أدائها.

١٢- أوضح البحث أن من دلالات التعبير عن الصلاة بجزء من أجزائها هو إظهار جانب من جوانب الإعجاز العلمي في هذه العبادة المباركة وذلك كالتعبير بالسجود عن الصلاة في حالات الضيق .

١٣- كشفت التعبيرات المتعددة عن فريضة الصلاة عن منهج إسلامي تربوي من شأنه أن ينبه الأمة على ضرورة الحفاظ على الصلاة والعناية بها والحرص على أدائها أداء تاما في كل وقت وحين وفي جميع الأحوال والظروف، حتى إنه لا يجوز أن يتهاون في أدائها وتمامها حتى في أشد الأوقاف وأصعب المواقف، فكان كل حال يقتضي صورة من صور التعبير التي تناسبه وتدل عليه .

١٤- اتضح من خلال البحث أنه عند الحديث عن إقامة الصلاة يأتي فعل (الإقامة) متصلا به واو الجماعة أكثر من ذكره بدونها ؛ وذلك للإشارة إلى أن الأصل في عبادة الصلاة أن تقام في جماعة، كما أنه يريد به هذه العبادة إقامة منهجا متكاملا للأمة ولا يريد منها أن تكون عادة فردية .

١٥- وظف النظم الحكيم تعدد صور التعبير عن عبادة الصلاة في بيان أحكام فقهية متعددة لعبادة الصلاة.

١٦- من المعلوم أن الإنسان يمر في حياته بظروف متباينة فتارة يعتريه الخوف، وتارة يتلبس بالأمن، وأحيانا يصيبه المرض إلى غير ذلك من الحالات المتباينة، فكان من بلاغة النظم أنه خص كل حالة بتعبير يتناسب مع الحالة التي يعبر عنها، فإذا تحول الإنسان من حال إلى حال تجد التعبير يتحول من صورة إلى صورة .

١٧- وظف النظم قوة المعاني التصويرية للفظة القرآنية التي توشحت بوشاح المجاز لتؤدي دورا بارزا في إظهار المقاصد القرآنية بدقة متناهية، داخل أسلوب بلاغي رفيع دل على مقاصده من أخصر طريق وأيسره، حتى إنك

لترى أنه لو وضع الكلام بأية صورة غير الصورة التي عبر بها القرآن ما أدى هذا المؤدى.

١٨- لم يقتصر القرآن الكريم في الحديث عن عبادة الصلاة بصورة واحدة بل عدد صور التعبير عن هذه العبادة لأنها عبادة لا تسقط في حضر ولا سفر، لا في صحة ولا مرض، لا في أمن ولا خوف فحرص النظم على تعدد الصور لتعدد أحوال هذه العبادة .

١٩- نوع النظم بين الحقيقة والمجاز في التعبير عن عبادة الصلاة وأتى المجاز المرسل على رأس الصور المجازية التي استخدمها النظم الحكيم للتعبير عن عبادة الصلاة لأن الصلاة عبادة تتكون من أركان كل ركن له خصوصية والنظم يعبر عن الصلاة بأحد أركانه ليكشف عن عطاء هذا الركن في الموقف الذي ذكر فيه.

٢٠- وظف النظم الحكيم جميع المستويات اللغوية للفظ المستخدم في المجاز للتوسع في المعنى المراد بأوجز عبارة وأدق تعبير، فيخرج المعنى من المحدودية الدلالية إلى دلالة أوسع استشراقا وأكثر عطاء، ويحدث معها اتساعا للمفهوم وتتولد دلالات جديدة تناسب السياق

٢١- وظف النظم الحكيم الدلالات البلاغية للصور المتنوعة التي عبر بها عن عبادة الصلاة في بيان دلالات نفسية، وتربوية متنوعة بحيث استطاعت كل صورة أن تؤدي دلالة معينة استدعاها السياق.

توصيات البحث.

١- ضرورة جمع الصور المختلفة للمعنى الواحد في القرآن الكريم وبيان دلالات هذا التنوع البلاغي.

٢- جمع الصور المختلفة للمعنى الواحد في القرآن والسنة للوقوف على الأسرار البلاغية من وراء التنوع في التعبير .

فهرس المراجع والمصادر

م القرآن الكريم

١. إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، لأبي السعود العمادي (المتوفى: ٩٨٢هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون تاريخ.

٢. أسباب نزول القرآن للنيسابوري، (المتوفى: ٤٦٨هـ) ، تحقيق: عصام بن عبد المحسن الحميدان، دار الإصلاح – الدمام، الطبعة: الثانية، ١٤١٢ هـ – ١٩٩٢ م.

٣. الإقناع في حل ألفاظ أبي شجاع، محمد الشربيني الخطيب، تحقيق مكتب البحوث والدراسات – دار الفكر ، ١٤١٥هـ، بيروت.

٤. أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله البيضاوي (المتوفى: ٦٨٥هـ)، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤١٨ هـ.

٥. البحر المحيط في التفسير، لأبي حيان محمد بن يوسف بن حيان الأندلسي (المتوفى: ٧٤٥هـ)، تحقيق : صدقي محمد جميل، دار الفكر – بيروت، الطبعة: ١٤٢٠ هـ

٦. بدائع الفوائد، ابن القيم ط الكتاب العربي.

٧. التحرير والتنوير، بن عاشور (المتوفى: ١٣٩٣هـ)، الدار التونسية للنشر – تونس، سنة النشر: ١٩٨٤ هـ.

٨. تفسير البغوي، معالم التنزيل، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي (المتوفى: ٥١٦هـ)، تحقيق: محمد عبد الله النمر وآخرون، دار طيبة الرياض، ١٤٠٩هـ.

٩. تفسير الشعراوي، للشيخ محمد متولي الشعراوي (المتوفى: ١٤١٨هـ)، مطابع أخبار اليوم، ١٩٩٧م

١٠. التفسير القرآني للقرآن: عبد الكريم يونس الخطيب (المتوفى: بعد ١٣٩٠هـ)، دار الفكر العربي، القاهرة، بدون تاريخ.
١١. تفسير المنار، لمحمد رشيد بن علي رضا (المتوفى: ١٣٥٤هـ)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠ م
١٢. التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية ، أحمد سعد محمد ، مكتبة الآداب ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٨ م . .
١٣. جامع البيان في تأويل القرآن، لمحمد بن جرير الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م
١٤. الجامع الصحيح المختصر (صحيح البخاري)، لمحمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري، تحقيق : د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير ، اليمامة – بيروت، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٧ – ١٩٨٧م .
١٥. الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي (المتوفى: ٦٧١هـ)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية – القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م
١٦. الجواهر الحسان في تفسير القرآن، لأبي زيد عبد الرحمن الثعالبي (المتوفى: ٨٧٥هـ)، تحقيق: الشيخ محمد علي معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٨ هـ
١٧. الحاوي الكبير في فقه مذهب الإمام الشافعي لأبي الحسن علي بن محمد، الشهير بالماوردي (المتوفى: ٤٥٠هـ)، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض – الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ -١٩٩٩ م ،

١٨. الحجة في القراءات السبع، للحسين بن أحمد بن خالويه (المتوفى: ٣٧٠هـ)، تحقيق: د. عبد العال سالم مكرم، دار الشروق – بيروت، الطبعة: الرابعة، ١٤٠١ هـ .
١٩. دلالات التراكيب دراسة بلاغية، د/ محمد أبو موسى، مكتبة وهبة ، ط: ١٤٢٩هـ، ٢٠٠٨م.
٢٠. دلالة الألفاظ على المعاني عند الأصوليين دراسة منهجية تحليلية ، د/ محمود توفيق سعد، مكتبة وهبة الطبعة الأولى ،١٤٣٠هـ،٢٠٠٩م .
٢١. روح المعاني، شهاب الدين محمود بن عبد الله الألوسي (المتوفى: ١٢٧٠هـ) ، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ ..
٢٢. زاد المعاد في هدي خير العباد، : محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ)، مؤسسة الرسالة، بيروت – مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، الطبعة: السابعة والعشرون ، ١٤١٥هـ /١٩٩٤م
٢٣. سنن ابن ماجه، لابن ماجة أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني (المتوفى: ٢٧٣هـ) ، تحقيق، شعيب الأرنؤوط – وأخرين، دار الرسالة العالمية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٠ هـ – ٢٠٠٩ م.
٢٤. سنن ابن ماجه، لابن ماجة أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني (المتوفى: ٢٧٣هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي الناشر: دار إحياء الكتب العربية – فيصل عيسى البابي الحلبي، بدون تاريخ .
٢٥. سنن أبي داود، لأبي داود سليمان بن الأشعث (المتوفى: ٢٧٥هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت، بدون تاريخ.

٢٦. شرح مختصر أصول الفقه، تقي الدين أبي بكر بن زايد الجراعي (٨٢٥هـ – ٨٨٣ هـ): دراسة وتحقيق: عبد العزيز محمد عيسى، لطائف لنشر الكتب والرسائل العلمية، الشامية – الكويت، الطبعة: الأولى، ١٤٣٣هـ – ٢٠١٢ م

٢٧. صحيح الإمام مسلم ، للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (المتوفى : ٢٦١ هـ): دار الجيل ببيروت ، وطبعتها مصورة من الطبعة التركية المطبوعة سنة ١٣٣٤ هـ.

٢٨. الصلاة رياضة النفس والجسد، مختار سالم، المركز العربي الحديث، ط ١٩٩٠م

٢٩. الكشاف، للزمخشري (المتوفى: ٥٣٨هـ)، دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤٠٧ هـ .

٣٠. لسان العرب لمحمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، دار صادر – بيروت، الطبعة الأولى

٣١. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية الأندلسي (المتوفى: ٥٤٢هـ)، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤٢٢ هـ .

٣٢. مسند أحمد بن حنبل، لأبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل (المتوفى : ٢٤١هـ) تحقيق: السيد أبو المعاطي النوري، عالم الكتب – بيروت، الطبعة : الأولى ، ١٤١٩هـ . ١٩٩٨ م

٣٣. مسند الإمام أحمد بن حنبل، لأبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل (المتوفى: ٢٤١هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط – عادل مرشد، وآخرون، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ – ٢٠٠١ م.

٣٤. المصاحف، لأبي بكر بن أبي داود الأزدي السجستاني (المتوفى: ٣١٦هـ)، تحقيق: محمد بن عبده، الفاروق الحديثة – مصر / القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٢م.

٣٥. معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي (المتوفى: ٣٩٥هـ)، المحقق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، عام النشر: ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م

٣٦. المغني لابن قدامة، لأبي محمد موفق الدين عبد الله بن أحمد الحنبلي، الشهير بابن قدامة (المتوفى: ٦٢٠هـ)، مكتبة القاهرة، ، بدون طبعة، ، ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م

٣٧. مفاتيح الغيب، لأبي عبد الله محمد بن عمر فخر الدين الرازي (المتوفى: ٦٠٦هـ)، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤٢٠ هـ

٣٨. المقتضب لمحمد بن يزيد المبرد (المتوفى: ٢٨٥هـ) تحقيق، محمد عبد الخالق عظيمة، الناشر: عالم الكتب. – بيروت.

٣٩. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، إبراهيم بن عمر بن حسن البقاعي (المتوفى: ٨٨٥هـ)، الناشر: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة